

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السادس عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٩)

الأصل:

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة:

وَقَدْ كَانَ مِنَ ٱنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ ٱلسَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ ٱلْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ ٱلْآرَاءِ ٱلْجَائِرَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فَهَأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي.

وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى ٱلْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ ٱلْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي ٱلطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي ٱلنَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ.

***

الشرح:

ما لم تغبَوْا عنه، أي لم تسهوا عنه ولم تغفلوا، يقال: غبيتُ عن الشيء أغبى غباوة؛ إذا لم يفطن، وغَبِي الشيء عليّ كذلك إذا لم تعرفه، وفلان غبيّ على «فعيل»، أي قليل الفِطْنة، وقد تغَابى؛ أي تغافل؛ يقول لهم: قد كان من خروجكم يومَ الجمل عن الطاعة،

ونثرِكم حبلَ الجماعة ، وشقاقِكم لِي ما لستم أغبياء عنه ، فغفرت ورفعت السيف ، وقبلت التوبة والإنابة .

والمدبِر ها هنا : الهارب ، والمقبِل : الّذى لم يفرّ؛ لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل .

ثم قال : فإن خطت بكم الأمور ، خطا فلان خُطْوة يخطُو ، وهو مقدار ما بين القَدمين ، فهذا لازم ، فإن عدّيته ، قلت : أخطيت بفلان ، وخطوت به ، وها هنا قد عدّاه بالباء .

والمردية : المهلكة ، والجائرة : العادلة عن الصواب . والمنابذة ، مفاعلة ، من نبذتُ إليه عهدَه أى ألقيته وعدلت عن السِّلم إلى الحرب ، أو من نبذت زيداً ، أى اطّرحته ولم أحفل به .

قوله : « قرّبت جيادى » ، أى أمرت بتقريب خيلي إلىّ لأركب وأسير إليكم .

ورحلت ركابى ، الرّكاب الإبل ، ورحلتها : شددت على ظهورها الرّحل ، قال :

رَحَلَتْ سُمَيّةُ غُدوَةً أَجْمَالَهَا غَضْبَى عَلَيْكَ فَا تَقُولُ بَدَالَها(١)

كلَعقة لاعق ، مثل يضرب للشيء الحقير التافه ، ويروى بضم اللام ، وهي ما تأخذه المِلْعقة .

ثم عاد فقال مازجا الخشونةَ باللِّين : مع أنى عارف فضلَ ذى الطاعة منكم ، وحقّ ذى النصيحة ، ولو عاقبت لما عاقبت البرىء بالسقيم ، ولا أخذت الوفىّ بالناكث .

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغرّاء المشهورة ، وقال فيها : والله لآخذنّ البرىءَ بالسقيم ، والبَرّ باللّئيم ، والوالد بالولد ، والجار بالجار ، أو تستقيم إلى قناتكم . فقام أبو بلال مِرداس

---

(١) للأعشى ، ديوانه ٢٢ .

ابن أديّة يهمس ، وهو حينئذ شيخ كبير ، فقال : أيها الأمير ، أنبأنا الله بخلاف ما قلت ، وحكم بغير ما حكمت ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] ، فقال زياد : يا أبا بلال ، إني لم أجهل ما علمت ؛ ولكنّا لا نخلص إلى الحقّ منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً .

وفي رواية الرياشيّ: «لآخذن الوليّ بالوليّ» ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرّجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم .



(١) سورة الأنعام ١٦٤ .

(٣٠)

الأصل:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَاتَّقِ ٱللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَٱنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَٱرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً ، وَسُبُلاً نَيِّرَةً ، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً ، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً ، يَرِدُهَا ٱلْأَكْيَاسُ ، وَيُخَالِفُهَا ٱلْأَنْكَاسُ ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ ٱلْحَقِّ ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ ، وَغَيَّرَ ٱللَّهُ نِعْمَتَهُ ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ .

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ ! فَقَدْ بَيَّنَ ٱللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً ، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً ، وَأَوْرَدَتْكَ ٱلْمَهَالِكَ ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ ٱلْمَسَالِكَ .

***

الشرح :

قوله : « وغاية مُطَّلبة » ؛ أي مساعفة لطالبها بما يطلبه ، تقول: طلب فلان مِنّي كذا فأطلبتُه : أي أسعفت به . قال الراوندي : مطّلبة بمعنى متطلّبة ، يقال: طلبت كذا وتطلّبته ؛ وهذا ليس بشيء ، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى .

والأكياس : العقلاء ، والأنكاس : جمع نِكْس ؛ وهو الدنيء من الرجال ، ونكب عنها : عدل .

قوله : « وحيث تناهت بك أمورك » ، الأَوْلى ألّا يكون هذا معطوفا ولا متّصلا

بقوله ، فقــد بين الله لك سبيلك ، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف : حيث أنت ، أى قِفْ حيث أنت ؛ فلا يذكرون الفعل ؛ ومثله قولهم : مكانَك ، أى قف مكانك .

قوله : « فقد أجريت » ، يقـال : فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا ، أى الغـاية التى يقصدها هى كذا ، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة ، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا ، أى انتهى به إلى كذا . ويروى : « قد أوْحلتك شرًّا » أو أورطتك فى الوحل ، والغَىّ ضدُّ الرشاد .

وأقحمتك غيًّا : جعلتك مقتحما له .

وأوعرت عليك المسالك : جعلتها وعْرة .

***

وأوّل هذا الكتاب :

أمّا بعد ، فقد بلغَنِى كتابُك تذكر مشاغبتى ، وتستقبح موازرتى ، وتزعمنى متحيِّرا وعن الحق مقصّرا ، فسبحـان الله ، كيف تستجيز الغيبة ، وتستحسن العضيهة ! إنّى لم أشاغب إلّا فى أمرٍ بمعروف، أو نهى عن منكر ، ولم أتجبّر[1] إلّا على باغٍ مارق، أوملحد منافق ، ولم آخذ فى ذلك إلّا بقول الله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾[2] ، وأما التقصير فى حق الله تعالى فمعاذ الله ! وإنّما المقصّر فى حقّ الله جلّ ثناؤه مَنْ عطّل الحقوق المؤكّدة ، وركن إلى الأهواء المبتدعة ، وأخلد إلى الضّلالة المحيّرة ؛ ومن العجب أن تصِفَ يا معـاوية الإحسان ، وتخـالف البرهان ، وتنـكث الوثائق التى هى لله عزّ وجـلّ طَلِبة ، وعلى عباده حجّة ، مع نبذ الإسلام ، وتضيـيـع الأحكام ، وطمس الأعلام ،

---

(١) ا ، ب « ولم أضجر » وما أثبته عن « د » .

(٢) سورة المجادلة ٢٢

والجرى فى الهوى ، والتهوّس[1] فى الرّدى ، فاتق الله فيما لديك، وانظر فى حقّه عليك ... الفصل المذكور فى الكتاب .

وفى الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضىّ رحمه الله ، منها :

وإنّ للناس جماعة يد الله عليها ، وغضب الله على مَنْ خالفها ، فنفسَك نفسَك قبل حلول رمسِك ، فإنّك إلى الله راجع ، وإلى حشره مُهْطِع[2] وسيبهظُك كربه ، ويحلّ بك غمّه ، فى يوم لا يغنى النادمَ ندمُه ، ولا يُقبَل من المعتذِرعُذرُهُ ، ﴿ يوم لا يُغنى مَوْلًى عن مولًى شيئاً ولاهم يُنْصَرون ﴾[3] .



---

(١) التهوس فى الردى : الوقوع فيه

(٢) المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع .

(٣) سورة الدخان ٤١ .

الأصل :

ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين :

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ ، ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَى ، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا .

إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ؛ غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا ، وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ ، وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ ، وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ ، وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ .

* * *

الشرح :

[ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره]

قال الزّبير بن بكار فى كتاب "أنساب قريش" : ولد الحسن بن علىّ عليه السلام للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله حسناً ، وتوفّى لليالٍ خلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة خمسين .

قال : والمروىّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّى حسناً وحسيناً رضى الله عنهما يوم سابعهما ، واشتقّ اسم حسين من اسم حسن .

قال : وروى جعفر بن محمد عليه السلام أنّ فاطمة عليها السلام حلقت حسنا وحُسينا يوم سابعهما ووزنت شعرها فتصدّقت بوزنه فضة .

قال الزُّبير : وروت زينب بنت أبي رافع ، قالت : أتتْ فاطمة عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شَكْوِه(١) الذى توفّيَ فيه ، فقالت : يا رسولَ الله ، هذان ابناك ، فورِّثْهما شيئاً ؛ فقال : أمّا حسن فإن له هيبتي وسُودَدِي ، وأما حسين فإن له جراءتي وجُودي .

***

وروَى محمّد بن حبيب في أماليه أنّ الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجّة ماشيا تُقَاد الجنائب معه ، وخرج من ماله مرّتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات مالَه ؛ حتى أنه كان يعطى نعلًا ويُمسك نعلا ، ويعطِي خُفًّا ، ويمسك خُفًّا .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضا أنّ الحسن عليه السلام أعطى شاعرا ، فقال له رجل من جلسائه : سبحانَ الله ! أتعطى شاعراً يعصي الرحمن ، ويقول البهتان ! فقال : يا عبدَ الله ، إنّ خير ما بذلت من مالك ما وَقيْت به عِرْضَك ؛ وإنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وروى أبو جعفر ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : أوّل ذُلٍّ دخل عَلَى العرب موتُ الحسن عليه السلام .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : سُقِيَ الحسن عليه السلام السمّ أربعَ مرات ، فقال: لقد سقيتُه مرارا فما شقّ عليّ مثل مشقته هذه المرّة . فقال له الحسين عليه السلام : أخبِرْنى مَنْ سقاك ؟ قال : لتقتلَه ؟ قال : نعم ؛ قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبي الذى أظنّ فالله أشدّ نِقمة ، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بى برىء .

---

(١) الشكو : المرض .

وروى أبو الحسن ، قال : قال معاوية لابن عبّاس ، ولقيه بمكّة : يا عجبا من وفاة الحسن ! شرب علة بماء رومة[١] ، فقضى نحبه ، فوجَم ابنُ عبّاس ، فقال معاوية : لا يحزنك الله ولا يسوءك ، فقال : لا يسوءنى ما أبقاك الله ! فأمر له بمائة ألف درهم .

وروى أبوالحسن قال : أوّلُ من نعى الحسنَ عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سلَمة ، نعاه لزياد ، فخرج الحكم بن أبى العاص الثقفىّ ، فنعاه ، فبكى الناس ـ وأبو بكرة يومئذ مريض ، فسمع الضّجّة ، فقال : ما هذا ؟ فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة : مات الحسن بن علىّ ، فالحمد لله الذى أراح الناس منه ! فقال : اسكتى ويحك ! فقد أراحه الله من شرّ كثير ، وفقد الناسُ بموته خيرا كثيرا ، يرحم الله حسنا !

قال أبو الحسن المدائنىّ : وكانت وفاته فى سنة تسع وأربعين ، وكان مرضه أربعين يوما ، وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة ، دسّ إليه معاوية سمّا على يد جَعْدة بنت الأشعث ابن قيس زوجة الحسن ، وقال لها : إن قتلتيه[٢] بالسّمّ فلك مائة ألف ، وأزوّجك يزيد ابنى . فلما ماتَ وفَى لها بالمال ، ولم يزوّجها من يزيد . قال : أخشى أن تصنع بابنى كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نَجَبة ، قال : سمعتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام ، يقول : أنا أحدّثكم عنّى وعن أهل بيتى ؛ أمّا عبد الله ابن أخى فصاحب لهو وسَماح ، وأمّا الحسنُ فصاحب جَفْنة وخِوان ، فتًى من فتيان قريش ؛ ولو قد التقتْ حَلْقتا البِطان[٣] لم يُغنِ عنكم شيئا فى الحرب ، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا .

---

(١) د : « بماء برومة » . (٢) د : « قتلته » .
(٣) مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد .

قال أبو جعفر : وروى ابن عباس ، قال : دخل الحسن بن عليّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس فى مجلس ضيّق ، فجلس عند رجليه ، فتحدّث معاوية بما شاء أن يتحدّث ، ثم قال : عجبا لعائشة ! تزعم أنّى فى غير ما أنا أهله . وأنّ الذى أصبحت فيه ليس لى بحقّ ، مالها ولهذا ! يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به ؛ فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية ! قال : إى والله ، قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : جلوسك فى صدر المجلس وأنا عند رجليك ؛ فضحك معاوية ، وقال : يابن أخى ، بلغنى أنّ عليكَ دَيْناً ، قال : إن لعلىّ دينا ، قال : كم هو ؟ قال : مائة ألف ، فقال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ؛ مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ؛ فقم مكرّما ، واقبض صِلَتك . فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية لأبيه : تالله ما رأيتُ رجلًا استقبلك بما استقبلك به ؛ ثم أمرت له بثلثمائة ألف ! قال : يا بنىّ ، إن الحقّ حقهم ، فمن أتاك منهم فاحْثُ له .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب ،قال : قال علىّ عليه السلام : لقد تزوّج الحسن وطلّق حتى خفتُ أن يثير عداوة ، قال أبو جعفر : وكان الحسنُ إذا أراد أن يطلق امرأةً جلس إليها ، فقال : أيسرّكِ أن أهبَ لك كذا وكذا ؟ فتقول له ماشئت ، أو نعم ؛ فيقول : هو لك ؛ فإذا قام أرسل إليها بالطلاق ؛ وبما سمّى لها .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : تزوّج الحسن بن علىّ عليه السلام هندا بنت سهيل ابن عمرو — وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيز ، فطلقها — فكتب معاوية إلى أبى هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقيَه الحسن عليه السلام ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخطب هندا بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية ، قال الحسن عليه السلام :

فاذكرني لها ، فأتاها أبو هريرة ، فأخبرها الخبر ، فقالت : اخترْ لي ، فقال : أختار لك الحسن . فتزوّجته ، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن : إن لي عند هند وديعةً ؛ فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جلست بين يدي عبد الله بن عامر ، فرقّ لها رِقّة عظيمة[1] ، فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ؟ فلا أراك تجد محلّلا خيرا لكما مني ! قال : لا ، ثم قال لها : وديعتي ، فأخرجت سَفَطين فيهما جوهر ؛ ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر[2] عليها ؛ وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد ؛ فكانت تقول : سيّدهم جميعا الحسن ، وأسخاهم ابن عامر ، وأحبّهم إليّ عبدُ الرحمن بن عتاب .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : تزوّج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئا فطلّقها ، فخطبها المنذر ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شهّر بي ! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوّجها ، فأبلغه المنذر عنها شيئا فطلقها ؛ فخطبها المنذر ، فقيل لها : تزوجيه ، فقالت : لا والله ماأفعل ؛ وقد فعل بي ما قد فعل مرتين ؛ لا والله لا يراني في منزله أبدا .

وروى المدائنيّ ، عن جويرية بن أسماء ، قال : لما مات الحسن عليه السلام ، أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريرَه ، فقال له الحسين عليه السلام : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ ؟ قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وروى المدائنيّ عن يحيى بن زكرياء عن هشام بن عروة ، قال : قال الحسن عند وفاته : ادفنوني عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شرّ ، فلمّا أرادوا دفنه ، قال مروان بن الحكم : لا يدفن عثمان في حَشّ كوكب[3] ، ويدفن الحسن هاهنا ،

---

(١) د : « شديدة » . (٢) د : « الباقي » .

(٣) حش كوكب ، بفتح أوله وتشديد ثانيه : موضع عند بقيع الغرقد ، اشتراه عثمان رضي الله عنه ، وزاده في البقيع ، ولما قتل ألقي معه .

فاجتمع بنو هاشم وبنو أميّة ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم ، وجاءوا بالسّلاح ، فقال أبو هريرة لمرْوان : أتمنع الحسن أن يدفن فى هذا الموضع ، وقد سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة » ! قال مروان : دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبى سعيد الخدرىّ ! وإنما أسلمتَ أيام خيبر ، قال أبو هريرة : صدقت ، أسلمت أيام خيبر ، ولكنّنى لزمت رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولم أكن أفارقه ؛ وكنت أسأله ، وعُنيت بذلك حتى علمت مَنْ أحبّ ومَنْ أبغض ، ومَن قرّب ومَن أبعد ، ومن أقرّ ومَن نفى ، ومَنْ لعن ومَنْ دعا له ؛ فلما رأت عائشة السّلاح والرجال ، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم ، وتسفك الدماء ، قالت : البيت بيتى ، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه ، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع جدّه ؛ فقال له محمد بن الحنفيّة : يا أخى ، إنه لو أوصى أن ندفنه لدفنّاه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد استثنى ، وقال : « إلا أن تخافوا الشرّ » ، فأى شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه ! فدفنوه[1] فى البقيع .

قال أبو الحسن المدائنىّ : وصل نعىُ الحسن عليه السلام إلى البَصْرة فى يومين وليلتين، فقال الجارود : بن أبى سَبْرة[2] :

إذا كان شرٌّ سارَ يوماً وليلةً ‏ ‏ ‏ وإن كان خيرٌ أخّر السَّيْر أرْبعا

إذا ما بَريد الشرّ أقبل نحوَنَا ‏ ‏ ‏ بإحدى الدّواهى الرُّبْد سارَ وأسْرعا

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصُلْح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك وهو لى حلال لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ! فخطب معاوية أهلَ الكُوفة ، فقال : يا أهل الكوفة ،

---

(١) د : « فدفن » . (٢) د : « هبيرة » .

أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ؛ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ؛ ألا إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ؛ ولا يصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنهم إن لم تغزوهم غزوكم . ثم نزل .

قال المدائني : فقال المسيب بن نجبة للحسن عليه السلام : ما ينقضي عجبي منك ! بايعت معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعقدا ظاهرا ، أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها[1] غيرك ، قال . فما ترى؟ قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يامسيب ، إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكني أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض ؛ فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر .

* * *

قال المدائني ودخل عبيدة بن عمرو الكندي على الحسن عليه السلام — وكان ضرب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة — فقال : ما الذي أرى بوجهك ؟ قال : أصابني مع قيس . فالتفت حجر بن عدي إلى الحسن ، فقال : لوددت أنك كنت مت قبل هذا اليوم ، ولم يكن ما كان ، إنا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبوا . فتغير وجه الحسن ، وغمز الحسين عليه السلام حجرا ، فسكت ، فقال الحسن عليه السلام : يا حجر ، ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك ، وما فعلت إلا إبقاء عليك ، والله كل يوم في شأن .

---

(١) عبارة د : « ما أراد بما قال غيرك » .

قال المدائني : ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النّهديّ ، فقال له : السّلام عليك يامذِلّ المؤمنين ! فقال الحسن : اجلس يرحمك الله ، إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله رُفِع له مُلْك بني أميّة ، فنظر إليهم يَعلُون منـبره واحدا فواحدا ، فشقّ ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآنا قال له : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾(١). وسمعت عليّاً أبي رحمه الله يقول: سيَلِي أمرَ هذه الأمّة رجل واسع البُلعوم ، كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية . وقال لي : إنّ القرآن قد نطق بملك بني أميّة ومدّتهم ، قال تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾(٢)، قال أبي : هذه ملك بني أمية .

قال المدائني : فلمّا كان عام الصلح ، أقام الحسن عليـه السلام بالكوفة أيّاماً ، ثم تجهّز للشخوص إلى المدينة ، فدخل عليـه المسيّب بن نُجبَة الفَزارِيّ وظبيان بن عُمارة التيميّ ليودّعاه ، فقال الحسن : الحمد لله الغالب على أمرِه ؛ لو أجمع الخَلق جميعـا على ألا يكون ماهو كائن ما استطاعوا . فقال أخوه الحسين عليه السلام : لقد كنت كارها لما كان طيّب النفس على سبيل أبي حتى عزم عليّ أخي ، فأطعته ، وكأنما يجذّ أنفي بالمواسي ، فقال المسيّب : إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تُضاموا وتنتقصوا ، فأمّا نحن، فإنهم سيطلبون مودّتنا بكل ما قدروا عليه ، فقال الحسين : يامسيّب ، نحن نعلم أنك تحبّنا ، فقال الحسن عليه السلام : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أحبّ قوما كان معهم » ، فعرض له المسيّب وظبيان بالرجوع ، فقال : ليس [لي](٣) إلى ذلك سبيل ، فلمّا كان من غدٍ خرج ، فلمّا سار بدير هند نظر إلى الكوفة ، وقال :

وَلَا عَنْ قِلًى فارقتُ دارَ مَعاشري ... هم المانعون حَـوْزَتي وذِمارِي

---

(١) سورة الإسراء : ٦٠ . (٢) سورة القدر ٣ .

(٣) من « د » .

ثم سار إلى المدينة .

قال المدائنيّ : فقال معاوية يومئذ للوليد بن عُقْبة بن أبي مُعيط بعد شخوص الحسن عليه السلام : يا أبا وهبٍ ، هل رمت ؟ قال : نعم ، ومِتّ .

قال المدائنيّ : أراد معاوية قولَ الوليد بن عقبة يحرّضه على الطلب بدم عثمان :

ألَا أبْلِغْ مُعاوية بن حربٍ ... فإنّك من أخي ثقـة مُليمُ[(١)]
قطعت الدّهر كالسّدِم المعنّى ... تهدّرُ في دمشق ولا تريمُ[(٢)]
فلو كنت القتيل وكان حيًّا ... لشمّر لا ألفُّ ولا سئوم
وإنّك والكتاب إلى عليٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِم الأديمُ[(٣)]

وروى المدائنيّ ، عن إبراهيم بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، قال : دخل رجل على الحسن عليه السلام بالمدينة ، وفي يده صحيفة ، فقال له الرجل : ما هذه ؟ قال : هذا كتاب معاوية ، يتوعّد فيه على أمرٍ كذا ، فقال الرجل : لقد كنت على النّصَف ، فما فعلت ؟ فقال له الحسن عليه السلام : أجلْ ، ولكنّي خشيت أن يأتيَ يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا ، تشخب أوداجُهم دما ، كلّهم يستعدِي الله فيم هُريق دمه !

قال أبو الحسن : وكان الحصين[(٤)] بن المنذر الرقاشيّ يقول : والله ما وفى معاوية للحسن بشيء ممّا أعطاه ؛ قتل حُجْرًا وأصحابَ حُجْر[(٥)] ، وبايع لابنه يزيد ، وسمّ الحسن .

---

(١) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

(٢) في اللسان : « السدم : الذي يرغب عن فحله فيحال بينه وبين ألافه ويقيد إذا هاج فيرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه ، ومنه قول الوليد بن عقبة . . . واستشهد بالبيت .

(٣) الحلم ، بالتحريك : فساد الجلد ؛ قال صاحب اللسان في شرح البيت : « يقول أنت تسعى في إصلاح أمرٍ قد تم فساده ؛ كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به » .

(٤) د : « الحضين » ، (٥) حجر بن عدى .

قال المدائنيّ : وروى أبو الطفيل ، قال : قال الحسن عليه السلام لمولًى له : أتعرف معاوية بن خديج ؟ قال : نعم ، قال : إذا رأيته فأعلمني ؛ فرآه خارجاً من دار عمرو ابن حريث ، فقال : هو هذا ! فدعاه ، فقال له : أنت الشّاتم عليًّا عند ابن آكلة الأكباد ! أما والله لئن وردت الحوض ولم ترده لترينّه مشمرا عن ساقيه ، حاسرا عن ذراعيه ، يذود عنه المنافقين .

قال أبو الحسن : وروى هذا الخبر أيضا قيس بن الربيع ، عن بدر[١] بن الخليل ، عن مولى الحسن عليه السلام .

قال أبو الحسن : وحدّثنا سليمان بن أيّوب ، عن الأسود[٢] بن قيس العبديّ ، أنّ الحسن عليه السلام لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له : يا حبيب ، ربّ مسيرٍ لك في غير طاعة الله ! فقال : أمّا مسيري إلى أبيك فليس من ذلك ، قال : بلى والله ؛ ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت شرًّا قلت خيرا ، كان ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[٣] ، ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٤] .

* * *

قال أبو الحسن : طلب زياد رجلا من أصحاب الحسن ، ممن كان في كتاب الأمان ، فكتب إليه الحسن :

من الحسن بن عليّ إلى زياد ؛ أمّا بعد ؛ فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لي فلانٌ أنك تعرّضت له ، فأحبّ ألّا تعرض له إلّا بخير . والسلام .

---

(١) في د : « زيد » .   (٢) د : « أبي الأسود » .
(٣) سورة التوبة ١٠٢ .   (٤) سورة المطففين ١٤ .

فلما أتاه الكتاب ، وذلك بعد ادّعاء معاوية إياه غضب حيث لم ينسبه إلى أبى سفيان ، فكتب إليه :

من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن ؛ أما بعد ، فإنه أتانى كتابك فى فاسق تؤويه الفسّاق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايمُ الله لأطلبنّه بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ الناس إلىّ لحما أن آكله للحمٌ أنت منه [والسلام][1] .

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب ، بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب :

من معاوية بن أبى سفيان إلى زياد . أمّا بعد ، فإن لك رأيين : رأيا من أبى سفيان ورأياً من سُمَيّة ، فأمّا رأيك من أبى سفيان فحلمٌ وحزم ، وأمّا رأيك من سُمَيّة فما يكون من مثلها . إنّ الحسن بن علىّ عليه السلام كتب إلىّ بأنّك عرضت لصاحبه ، فلا تعرض له ، فإنى لم أجعل [لك][1] عليه سبيلا ؛ وإنّ الحسنَ ليس ممّن يرمَى به الرَّجَوَان[2] ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمّه ، فالآن حين اخترتَ له ، والسلام .

* * *

قلت : جرى فى مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول فى أنّ عليا عليه السلام شرُف بفاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضر المجلس : بل فاطمة عليها السلام شرُفت به وخاض الحاضرون فى ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة ، وسألنى صاحب المجلس أن أذكر ما عندى فى المعنى وأن أوضح : أيّما أفضلُ : علىٌّ أم فاطمة ؟ فقلت : أمّا أيّهما أفضل ؛ فإن أريد بالأفضل الأجمع للمناقب التى تتفاضل بها الناس ، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك ، فعلىٌّ أفضل ، وإن أريد بالأفضل الأرفع منزلةً عند الله ، فالذى

---

(١) عن « د » .

(٢) الرجوان : تثنية رجا ، والرجا مقصور : ناحية كل شىء . ويقال : رمى به الرجوان : إذا استهان به ، فكأنه رمى به هنالك ، أراد أنه طرح فى المهالك .

استقرّ عليه رأى المتأخرين من أصحابنا، أن علياً أرفع المسلمين كافة عندالله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث ؛ وفاطمة امرأة من المسلمين ، وإن كانت سيِّدة نساء العالمين ؛ ويدلّ على ذلك أنّه قد ثبت أنّه أحبّ الخلق إلى الله تعالى بحـديث الطائر ، وفاطمة من الخلق ، وأحبّ الخلق إليـه سبحانه أعظمهم ثوابا يوم القيـامة ، على ما فسره المحققون من أهل الكلام ، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسبا ، ففاطمة أفضـلُ لأنّ أباها سيّـد ولد آدم من الأولين والآخرين ، فليس فى آباء علىٍّ عليه السلام مثـله ولا مقارنه ، وإن أريد بالأفضل مَنْ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنُوًّا وأمسّ به رحما ، ففاطمة أفضل ، لأنها ابنته ؛ وكان شديد الحبّ لها والحنوّ عليها جدًّا ، وهى أقرب إليه نسبا من ابن العمّ ، لا شبهة فى ذلك .

فأمّا القول فى أنّ عليا شَرُف بها أو شَرُفت به ، فإنّ عليا عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة ، فمنها ما هو متعلقٌ بفاطمة عليها السلام ، ومنها ما هو متعلّقٌ بأبيها صلوات الله عليه ، ومنها ما هو مستقلٌّ بنفسه .

فأمّا الذى هو مستقلٌّ بنفسه ، فنحو شجاعته وعفّته وحلمه وقناعته وسَجاحة أخـلاقه وسماحة نفسه . وأمّا الذى هو متعلّقٌ برسول الله صلى الله عليه وآله فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته ، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب .

وأما الذى يتعلق بفاطمـة عليها السلام فنـكاحه لها ؛ حتى صار بينـه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله الصّهر المضاف إلى النّسب والسبب ؛ وحتى إنّ ذرّيته منها صارت ذرّيّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وأجزاء من ذاته عليه السلام ؛ وذلك لأنّ الولد إنما يكون من مَنِىّ الرجـل ودم المرأة ، وهما جزآن من ذاتى الأب والأم ، ثم هـكذا أبدا فى ولد الولد ومَنْ بعده من البطون دائما . فهذا هو القول فى شرف علىّ عليه السلام بفاطمة .

فأمّا شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العــالمين ، إلّا أن كونها زوجة عليّ أفادها نوعاً من شرف آخر زائدا على ذلك الشرف الأوّل ؛ ألا ترى أن أباهــا لو زوّجها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالهــا فى العظمة والجلالة كحالهــا الآن ، وكذلك لو كان بنوهــا وذرّيتهــا من أبي هريرة وأنس بن مالك لم يــكن حالهم فى أنفسهم كحالهم الآن .

***

قال أبو الحسن المدائنيّ : وكان الحسن كثير التزوّج ، تزوج خَوْلة بنت منظور بن زبان الفزارية ، وأمّها مليــكة بنت خارجة بن سنــان ، فولدت له الحسن بن الحسن . وتزوّج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابنــا سمّاه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاريّ ـ واسم أبي مسعود عقبــة بن عمر ـ فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوّج جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وهى التى سقته السم ، وتزوّج هند ابنة [سهيل بن عمرو ، وحفصة ابنة][1] عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتزوّج امرأة من كلْب ، وتزوّج امرأة من بنات عمرو بن أهتم المِنقريّ ، وامرأة من ثقيف ، فولدت له عمرًا ، وتزوّج امرأة من بنات علقمة ابن زرارة ، وامرأة من بنى شيبان من آل همام بن مرّة ، فقيل له : إنها ترى رأىَ الخوارج ، فطلقها ، وقال : إنى أكره أن أضمّ إلى نحرى جَمْرة من جَمْر جهنم .

وقال المدائنيّ : وخطب إلى رجل فزوّجه ، وقال له : إنى مزوّجك ، وأعلم أنك مِلق طِلق غلِق[2] ؛ ولــكنك خير الناس نسباً ، وأرفعهم جداً وأبا .

قلت : أما قوله ملق طلق ؛ فقد صدق ؛ وأما قوله غَلِقٌ فلا ؛ فإن الغَلِق الــكثير الضجر ، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدرا وأسجحهم خلقاً .

---

(١) من « د » .

(٢) الملق : الفقير .

قال المدائني : أحصيت زوجات الحسن بن علي فكنّ سبعين امرأة .

* * *

قال المدائنيّ : ولما توفّيَ عليٌّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام توُفّيَ ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى النّاس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، فخرج الحسن عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيها الناس ؛ اتقوا الله ، فإنا أمراؤكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قَيْس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له في اثني عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بساباط وانتهب متاعه ؛ ودخل المدائن ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبي حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتموني على أن تسالموا مَنْ سالمني ، وتحاربوا مَنْ حاربني ؛ وقد أتاني أنّ أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبي منكم ، لا تغرّوني من ديني ونفسي .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ـ وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب ـ إلى معاوية يسأله المسالمة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضىَ ، وقدم معاوية إلى الكوفة .

* * *

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس إلى الحسن :

أمّا بعد فإن المسلمين ولّوك أمرهم[1] بعد علىّ عليه السلام ، فشمّرْ للحرب ، وجاهد عدوّك ، وقاربْ أصحابك ، واشتر[2] من الظَّنين[3] دينَه بما لا يثلِم[4] لك دِيناً[5] ، ووالِ أهل[6] البيوتات والشَّرَف ، تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ؛ فإن بعض ما يكره الناس ـ ما لم يتعد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ، وعزّ الدين ـ خير من كثير مما يُحبّه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر وذلّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقتَدِ بما جاء عن أئمّة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلّا فى حرْب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك فى ذلك سعة إذا كنت محاربا ، ما لم تبطلْ حقّاً .

واعلم أنّ عليّاً أباك إنّما رغبَ الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أساء بينهم فى الفىء ، وسوّى بينهم فى العطاء ، فثقُل عليهم ؛ واعلم أنّك تحاربُ مَنْ حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام ؛ حتى ظهر أمرُ الله ، فلمّا وحّد الرب ، ومحق الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

(١) فى د : « أمورهم » . (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنين : « المتهم » . (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقد ١ : ٣٠ ، وعيون الأخبار ١ : ١٤ « يثلمك » . (٦) العقد وعيون الأخبار : « وول »

وهم لها كارهون ؛ فلما رأوْا أنه لا يعز فى الدين إلّا الأتقياء الأبرار ، توسّموا بسيما الصالحين، ليظنّ المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا بذلك حتى شركوهم فى أماناتهم ، وقالوا : حسابهم على الله ؛ فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ؛ وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ؛ والله ما زادهم طول العمر إلا غيّاً ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلّا مقتا ؛ فجاهِدْهم ولا ترض دنيّة ، ولا تقبل خسفاً[1] ؛ فإنّ عليا لم يُجب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب ؛ وإنّهم يعلمون أنّه أوْلى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلمّا حكموا بالهوى ، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجلُه ، ولا تخرجنّ من حقّ أنت أولى به ، حتى يحول الموت دون ذلك . والسلام .

***

قال المدائنىّ : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقمع به الشّرْك ، وأعزّ به العرب عامّة ، وشرّف به قريشا خاصّة ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[2] ؛ فلمّا توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه ، فلا تنازعونا سلطانه ، فعرفت العرب لقريش ذلك ؛ وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدّين ، وسابقة فى الإسلام ؛ ولا غرو[3] إلّا منازعته إيّانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله ألّا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده فى الآخرة . إنّ عليا لمّا توفّاه الله ولّانى المسلمون الأمرَ بعده ، فاتق الله يا معاوية ؛ وانظر لأمة محمد

---

(١) خسفا ، أى ذلا . (٢) سورة الزخرف ٤٤ .

(٣) لا غرو ؛ أى لا عجب .

صلى الله عليه وآله ، ما تحقنُ به دماءها ، وتصلح به أمرها . والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيمىّ ، تيْم الرّباب ، وجندب الأزدىّ ، فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعة الحسن عليه السلام فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

أمّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحقّ الأوّلين والآخرين بالفضل كلّه ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحتَ بتهمة أبى بكر الصديق وعمر وأبى عبيدة الأمين ، وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ؛ إنّ الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به[1] ؛ فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أنّ يولُّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ؛ وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مقامه ويذبّ عن حرم الإسلام ذبّه ما عدلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحال اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنّك أضبط لأمر الرعيّة ، وأحوطُ على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيَد للعدوّ ، وأقوى على جمع الفىء ، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك ؛ فإنّ أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوما ، فطالب الله بدمه ؛ ومن يطلبه الله فلن يفوته . ثم ابتزّ الأمّة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدَم فى الإسلام ، وادّعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسُفكت الدماء ، واستُحلّت الحرَم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعى علينا بيعة ؛ ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تصلح عليه الأمّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه مثله وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكْم بما علمت ، وخلعاه ، فوالله مارضى بالحكم ، ولاصبر لأمر الله ؛ فكيف تدعونى إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك، وقد خرج منه ! فانظر لنفسك ولدينك . والسلام .

(١) فى د « أحقها » .

قال : ثم قال للحارث وجندب : ارجعا فليس بيني وبينكم إلّا السيف ؛ فرجعا وأقبل إلى العراق فى ستين ألفا ؛ واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهرىّ والحسن مقيم بالكوفة ، لم يشخص حتى بلغه أنّ معاوية قد عبر جسر مَنْبِج ، فوجّه حجْر بن عدىّ يأمر العمال بالاحتراس ، ويذبّ الناس ، فسارعوا . فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثنى عشر ألفا ، فنزل دير عبد الرحمن ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ، وأمر قيس بن سعد بالمسير ، وودّعه وأوصاه ، فأخذ على الفرات وقرى الفلُّوجة ، ثم إلى مَسْكِن . وارتحل الحسن عليه السلام متوجّها نحو المدائن ، فأتى ساباط فأقام بها أياما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنكم بايعتمونى على أن تسالموا مَنْ سالمت وتحاربوا مَنْ حاربت ، وإنى والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة فى شرق ولا غرب ، ولَمَا تكرهون فى الجماعة والألفة والأمن ، وصلاح ذات البين خير مما تحبون فى الفرقة ، والخوف والتباغض والعداوة ، وإنّ عليا أبى كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ؛ فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تَنْدُر[1] عن كواهلها كالحنظل . ثم نزل .

فقال الناس : ما قال هذا القول إلّا وهو خالع نفسه ومسلم الأمرَ لمعاوية ، فثاروا به فقطعوا كلامَه ، وانتهبوا متاعه ، وانتزعوا مُطْرَفًا كان عليه ، وأخذوا جارية كانت معه ، واختلف الناس فصارت طائفة معه ؛ وأكثرهم عليه ، فقال : اللهمّ أنت المستعان ، وأمر بالرّحيل ، فارتحل الناس ، وأتاه رجل بفرس ، فركبه وأطاف به بعض أصحابه ، فمنعوا الناس عنه وساروا ، فقدمه سنان بن الجرّاح الأسدىّ إلى مظلم ساباط ، فأقام به ؛ فلما دنا منه تقدّم إليه يكلّمه ، وطعنه فى فخذه بالمِعْوَل[2] طعنة كادت تصل إلى العظم ، فغُشِى عليه وابتدره أصحابه ، فسبق إليه عُبيد الله الطائىّ ، فصرع سنانا وأخذ ظبيان بن عُمارة المعول

---

(١) تندر : تقطع . (٢) المعول : حديدة ينقر بها الصخر .

من يده ، فضربه به فقطع أنفه ، ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله ؛ وأفاق الحسن عليه السلام من غَشْيته ، فعصبوا جُرحه وقد نَزف وضعف ، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود ، عمّ المختار بن أبي عُبيد ، وأقام بالمدائن حتى برئ من جرحه .

***

قال المدائنيّ ؛ وكان الحسن عليه السلام أكبرَ ولد عليّ ، وكان سيّداً سخيا حليما خطيبا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه ؛ سابق يوما بين الحسين وبينه فسبق الحسن ، فأجلسه على فخذه اليمنى ، ثم أجلس الحسين على الفخذِ اليسرى ، فقيل له : يارسول الله أيّهما أحبُّ إليك ؟ فقال : أقول كما قال إبراهيم أبونا ، وقيل له : أيّ ابنيك أحبّ إليك ؟ قال : أكبرهما وهو الذى يلد ابني محمدا صلّى الله عليه وسلّم .

وروى المدائني عن زيد بن أرقم ، قال : خرج الحسن عليه السلام وهو صغير ، وعليه بُرْده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب ، فعثر فسقط ، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة ، ونزل مسرعا إليه ، وقد حمله الناس ، فتسلّمه وأخذه على كتفه ، وقال : إنّ الولد لفتنة ، لقد نزلت إليه وما أدرى أين أنا ! ثم صعد فأتمّ الخطبة .

وروى المدائنيّ ، قال : لقى عمرو بن العاص الحسن عليه السلام فى الطواف ، فقال له : يا حسن ، زعمت أنّ الدين لا يقوم إلّا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله راسيا بعد مَيْله ، وبيّنا بعد خفائه ، أفرضى الله بقتل عثمان ؛ أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطَّحين ، عليك ثياب كغرقىء[1] البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألَمّ للشّعث ، وأسهل للوَعث ، أن يوردك معاوية حياضَ أبيك ؛ فقال الحسن عليه السلام : إنّ لأهل النار علامات يُعرفون بها ، إلحاداً لأولياء الله ؛ وموالاة لأعداء الله ، والله إنك

---

(١) الغرقىء : القشرة الملتزقة ببياض البيض .

لتعلم أنّ عليا لم يرتَبْ فى الدين ، ولا يشكّ فى الله ساعة ولا طرفة عين قطّ ، وايم الله لتنتهينّ يابن أم عمرو أو لأنفذنّ حِضْنَيك بنوافذ أشدّ من القَعْضَبيّة[1] : فإيّاك والتهجّم علىّ ، فإنى مَنْ قد عرفت ؛ لست بضعيف الغَمزة ، ولا هشّ المُشاشة[2] ؛ ولا مرىءِ المأكلة ، وإنّى من قريش كواسطة القلادة ، يُعْرَفُ حسبي ، ولا أُدْعَى لغير أبى ، وأنت مَنْ تعلم ويعلم الناس ، تحاكمت فيك رجال قريش ، فغلب عليك جزّارُوها ، الأمهم حسبا ، وأعظمهم لؤما ، فإياك عنّى ، فإنّك رجس ، ونحن أهل بيت الطهارة ، أذهب الله عنا الرّجس وطهرنا تطهيرا . فأُفحِمَ عمرو وانصرف كئيبا .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ قال : سأل معاوية الحسن بن علىّ بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشدَه أن يفعل ، فوضع له كرسىّ ، فجلس عليه ، ثم قال : الحمد لله الذى توحّد فى مُلْكه ، وتفرّد فى ربوبيته ، يؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزعه عمّن يشاء . والحمد لله الذى أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أوّلكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديما وحديثا أحسن البلاء ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس ، إنّ ربّ علىّ كان أعلم بعلىّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصّه بفضل لم تعتادوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ! طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم ، وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنْقا ، وسقاكم عَلَقاً ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فلستم بملومين على بغضه . وايم الله لا ترى أمة محمد خفضا ما كانت سادتهم وقادتهم فى بنى أمية ، ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ؛ لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم إلى شياطينكم ، فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دَعَتكم ، وحيف حكمكم . ثم قال : يا أهلَ الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامى الله ، صائب

(١) القعضبية : الأسنة ، منسوبة إلى قعضب اسم رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .
(٢) المشاش فى الأصل : رءوس العظام .

على أعداء الله ، نَـكَال على فجّار قريش ، لم يزلْ آخذا بحناجرها ، جاثما على أنفاسها ؛ ليس بالملومة فى أمر الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، ولا بالفَرُوقة فى حرب أعداء الله ، أعطى الـكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتّبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . ثم نزل .

فقال معاوية : أخطـأ عَجِلٌ أو كاد ؛ وأصـاب مثبت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن !.

* * *

فأمّا أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ ، فإنّه قال : كان فى لسان أبى محمّـد الحسن عليه السلام ثقل كالفأفأة ؛ حدّثنى بذلك محمد بن الحسين الأشنانىّ ، قال : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسىّ ، عن مفضّل بن صالح ، عن جابر ، قال : كان فى لسان الحسَن عليـه السلام رُتّة [1] ، فـكان سلمان الفارسى رحمـه الله يقول : أتته من قِبَل عمّه موسى بن عمران عليه السلام [2] .

قال أبو الفرج : ومات شهيدا مسموماً ، دسّ معـاوية إليه وإلى سعد بن أبى وقاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سمًّا ، فماتا منه فى أيّام متقاربة ؛ وكان الذى تولّى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جَعْدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية . ويقال : إنّ اسمها سُكينة ، ويقال عائشة ويقال : شعثاء [3] ، والصحيح أنّ اسمها جَعْدة .

قال أبو الفرج : فروى عمرو بن ثابت ؛ قال : كنتُ أختلف إلى أبى إسحـاق

---

(١) ا ، ب : « رثة » ، تصحيف ، والصـواب ما أثبته من د ومقاتل الطالبيين ، والرتة : عجلة الـكلام مع قلة المبالاة .

(٢) مقاتل الطالبيين ٥٠ . (٣) ب : « شيثا » .

السَّبِيعيّ [سنة] (١) ، أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن عليّ عليه السلام عقيب وفاة أبيه ؛ ولا (٢) يحدّثني بها ؛ فدخلت إليه في يوم شاتٍ وهو في الشمس ، وعليه برنسه ، فكأنه غُول ، فقال لي : مَنْ أنت ؟ فأخبرته ، فبكى ، وقال : كيف أبوك ، وكيف أهلك ؟ قلت : صالحون ، قال : في أيّ شيء تردد منذ سنة ؟ قلت : في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه (٣) .

حدّثني هُبيرة بن مريم (٤) ، قال : خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبِقْه الأوّلون ، ولا يدركه الآخرون [بعمل] (٥) . لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه ؛ ولقد كان يوجّهه برايته ، فيكتنفه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ؛ ولقد توفّيَ في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم ؛ والتي توفّي فيها يوشع بن نوح ، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله .

ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه ثم قال : أيّها الناس ، مَنْ عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الدّاعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه ، إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ (٦) ، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت .

قال أبو الفرج : فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبد الله بن العباس بين

---

(١) من د ومقاتل الطالبيين . (٢) د : «فلا» .
(٣) مقاتل الطالبيين ٥١ . (٤) كذا في مقاتل الطالبيين .
(٥) من مقاتل الطالبيين . (٦) سورة الشورى ٢٣ .

يديه ؛ فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا : ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة ! فبايعوه ، ثم نزل من المنبر(١) .

قال أبو الفرج : ودس معاوية رجلًا من حِمْير إلى الكوفة ، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار ، فدُلّ على الحِميرىّ(٢) وعلى القَينىّ ، فأخِذا وقتلا(٣) .

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

أمّا بعد ؛ فإنّك دسست إلىّ الرجال ، كأنك تحبّ اللقاء ؛ لا أشك فى ذلك فتوقّعْه إن شاء الله . وبلغنى أنك شمتّ بما لم يشمت به ذو الحجى ؛ وإنّما مثلك فى ذلك كما قال الأوّل :

فإنّا ومَنْ قد مات منّا لكالّذِى ... يروح فيُمسى فى المبيت ليغتدِى(٤)

فقُلْ للّذِى يبغى خلاف الّذِى مضى ... تجهّزْ لأخرى مثلها فكأنْ قدِ

فأجابه معاوية :

أما بعدُ ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ؛ ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آسَ ، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

فأنتَ الجوادُ وأنتَ الّذِى ... إذا ما القلوب مَلأْنَ الصُّدُورَا(٥)

جديرٌ بطعنةِ يوم اللِّقَا ... ء يضربُ منها النِّساء النُّحُورَا

وما مِزْبَدٌ من خليج البحا ... رِ يعلو الإكام ويعلو الجسورا

بأجودَ منه بما عنده ... فيعطى الألوف ويعطى البُدُورا(٦)

(١) مقاتل الطالبين ٥٢ .

(٢) مقاتل الطالبين : « فدل على الحميرى عند لحام » .

(٣) مقاتل الطالبين ٥٢ .

(٤) فى مقاتل الطالبين ، البيت الثانى قبل الأول .

(٥) ديوانه ٧٢ .

(٦) مقاتل الطالبين ٥٣ .

قال أبو الفرج : وكتب عبد الله بن العباس من البَصرة إلى معاوية :

أما بعد ، فإنّك ودسّك أخا بنى القَيْن إلى البصرة ، تلتمس من غفلاتِ قريش بمثل ما ظفِرْتَ به من يمانيّتك ، لكما قال أميّة بن أبى الأسكر[1] :

لعمرُكَ إنّى والخزاعىّ طارقاً كنعجةِ عادٍ حتفَها تتحفّرُ
أثارتْ عليها شفرةً بكُراعِها فظلّتْ بها من آخر الليل تنحَرُ
شمتّ بقومٍ من صديقك أهلكوا أصابهُم يومٌ من الدّهر أصْفَرُ[2]

فأجابه معاوية :

أمّا بعد ، فإن الحسن بن علىّ ، قد كتب إلىّ بنحو ممّا كتبت به ، وأنبأنى بما لم يحقق سوء ظنٍّ[3] ورأى فىّ ، وإنك لم تصب مثلى ومثلكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعىّ يجيب أميّة عن هذا الشعر :

فوالله ما أدرى وإنّى لصادقٌ إلى أىّ مَنْ يظنّنى أتعذّرُ
أعنّف إن كانت زبينة أهلِكتْ ونال بنى لحيان شرٌّ فأنفِرُوا[4]

---

(١) كذا فى الأغانى ومقاتل الطالبيين وهو الصواب ، وفى ب : « أمية بن أبى الصلت » .

(٢) فى الأغانى : « أعسر » .

(٣) مقاتل الطالبيين : « بما لم يحقق سوء ظن ورأى فىّ » .

(٤) أنفروا : شردوا ، وفى الأغانى : « ونفروا » ، والخبر فى الأغانى ١٨ : ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ومقاتل الطالبيين ٥٣ ، ٥٤ ، وفى الأغانى عن أبى عمرو الشيبانى : « أصيب قوم من بنى جندع بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر ، يقال لهم : بنو زبينة ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوة بنى المصطلق ، وكانوا جيرانه يومئذ ، ومعهم ناس من بنى لحيان بن هذيل ، ومع بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم ، وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قريش ؛ فقال أمية بن الأسكر لطارق الخزاعى :

* لَعَمْرُكَ إنّى والْخُزَاعِىُّ طَارِقاً *

وأورد أبيات أمية ورد طارق ؛ ثم قال : « وهذه الأبيات الابتداء والانتهاء تمثل بابتدائها ابن عباس فى رسالة له إلى معاوية ، وتمثل بجوابها معاوية فى رسالة أجابه بها » .

قال أبو الفرج : وكان أوّل شيء أحدثه الحسن عليه السلام أنّه زاد المقاتلة مائة مائة ، وقد كان علىّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل ، وفعله الحسن حال الاستخلاف ، فتبعه الخلفاء من بعده فى ذلك[١] .

* * *

قال : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدى[٢] :

من الحسن[٣] بن علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك ، فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة للمؤمنين ، وكافّة للناس أجمعين ، ﴿ لينذرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويحقّ القول على الكافرين ﴾[٤] ، فبلّغ رسالاتِ الله ، وقام بأمر الله حتى توفّاه الله غير مقصّرٍ ولا وانٍ ، وبعد أن أظهر الله به الحقّ ، ومحقَ به الشِّرك ، وخص به قريشاً خاصّة فقال له : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[٥] . فلما توفِّىَ تنازعت سلطانَه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلتُه وأسرته وأولياؤه ، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقّه ، فرأت العرب أن القول ماقالت قريش ، وأنّ الحجة فى ذلك لهم على مَنْ نازعهم أمر محمد ، فأنعمت[٦] لهم ، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاجَجَت به العرب ، فلم تنصفْنا قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج ، فلمّا صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجّتهم ، وطلب النَّصَف[٧] منهم باعدونا واستولَوْا بالإجماع على ظلمِنا ومَرَاغمتنا[٨] والعَنَت[٩] منهم لنا ، فالموعد الله ، وهو الولىّ النَّصير ؟

(١) مقاتل الطالبيين ٥٥ .

(٢) مقاتل الطالبيين : « مع جندب بن عبد الله الأزدى » .

(٣) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسن . . . » .

(٤) سورة يس ٧ . (٥) سورة الزخرف ٤٤ .

(٦) أنعمت لهم ؛ أى قالت لهم : « نعم » . (٧) النصف : الإنصاف .

(٨) راغمهم : نابذهم وعاداهم . (٩) العنت : المشقة وفى د « والعبث » .

ولقد كنّا تعجّبنا لتوثّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان نبيّنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب[1] فى ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمرٍ لستَ من أهـله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليـه وآله ولكتابه ، والله حسيبك ، فستردُ فتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتَلْقَينّ عن قليل ربّك ، ثم ليجزينّك بما قدّمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إنّ عليا لما مضى لسبيله ــ رحمة الله عليه يوم قُبِض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبعث حيًّا ــ ولّانى المسلمون الأمر بعده ، فأسأل الله ألّا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنّما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فيما بينى وبين الله عزّ وجلّ فى أمرك ، ولك فى ذلك إن فعلته الحظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيـه النّاس مِنْ بيعتى ، فإنك تعلم أنّى أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتّقِ الله ودَعِ البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السّلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهلَه ومَنْ هو أحقّ به منك ، ليطفىء الله النائرة[2] بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذاتَ البَيْن ، وإن أنت أبيتَ إلّا التمادىَ فى غيّك سرت[3] إليك بالمسلمين فحاكمتُك ، حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فكتب معاوية إليه[4] :

---

(١) الأحزاب : هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال رسول الله صلى الله عليـه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد فى غزوة الخندق .

(٢) النائرة : العدواة والشحناء .

(٣) مقاتل الطالبيين : « نهدت » .

(٤) فى مقاتل الطالبيين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علىّ ، سلام الله عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فقد بلَغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله من الفضْل ، وهو أحق الأوّلين والآخرين بالفضْل كلّه قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلّغ وأدّى ، ونصح وهَدى ؛ حتى أنقذ الله به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمَى ، وهَدَى به من الجَهالة والضلالة ، فجزاه الله أفضلَ ما جزى نبيّاً عن أمته ؛ وصلوات الله عليه يوم وُلِد ، ويوم بُعث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبعث حيّاً !

وذكرت وفاة النبىّ صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده ، وتغلّبهم على أبيك ، فصرّحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر الفاروق وأبى عبيدة الأمين وحوارىّ (١) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصُلَحاء المهاجرين والأنصار ، فكرهت ذلك لك ؛ إنّك امرُؤ عندنا وعند الناس غيرَ الظَّنين (٢) ولا المسىء ، ولا اللئيم ، وأنا أحبّ لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إنّ هذه الأمة لمّا اختلفت بعد نبيّها لم تَجهل فضلكم ولا سابقتكم ، ولا قرابتكم من نبيّكم ، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله ، فرأت الأمّة أن تَخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها ، ورأى صُلَحاء النّاس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلاما ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأىَ ذوى الدين والفضل ، والناظرين للأمّة ، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التّهمة ، ولم يكونوا متّهمين ، ولا فيما أتوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أنّ فيكم مَنْ يغنى غناءه ، ويقوم مقامه ، ويذبّ عن حريم الإسلام ذَبّه ،

---

(١) هو الزبير بن العوام .
(٢) ب : « ظنين » .

ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ، ولـكنهم علموا فى ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله ، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا .

وقد فهمت الّذى دعوتَنِى إليه من الصلح ، والحال فيما بينى وبينك اليوم مثلُ الحـال التى كنتمَ عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، فلو علمت أنّك أضبطُ منّى للرعيّة ، وأحوَطُ على هــذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيَد للعدوّ ، لأجبتك إلى ما دعوتَنى إليه ، ورأيتك لذلك أهلا ، ولـكن قد علمت أنّى أطولُ منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمّة تجربة ، وأكبر منك سناً ، فأنت أحق أن تجيبَنى إلى هذه المنزلة التى سألتَنى ، فادخل فى طاعتى ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من مالٍ بالغا ما يبلغ ، تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أىّ كُوَر العراق شئتَ ؛ معونةً لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ؛ ولك ألّا نَستولىَ عليك بالإساءة ، ولا نَقضِىَ دونك الأمور ، ولا نَعصىَ فى أمر أردت به طاعة الله . أعاننا الله وإيّـاك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء . والسلام .

قال جندب : فلمـا أتيت الحسنَ بكتاب معاوية ، قلت له : إنّ الرجل سائر إليك ، فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضه وبلاده وعمله ، فإمّا أن تُقدّر أنه ينقاد [1] لك ؛ فلا والله حتى يرى منّا أعظم من يوم صِفّين . فقـال : أفعل ، ثم قعد عن مشورتى وتناسى قولى [2] .

* * *

قالوا : وكتب معاوية إلى الحسن :

---

(١) د ومقاتل الطالبين : « تبعاً لك » .

(٢) مقاتل الطالبين ٥٥ ـ ٥٩ .

أما بعد(١) ، فإنّ الله يفعل فى عباده ما يشاء ، لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدى رعاع من الناس ، وايئس(٢) من أن تجدَ فينا(٣) غميزة(٤) ، وإن أنت أعرضت عمّا أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

وإنْ أحدٌ أسدَى إليك أمانةً ... فأوفِ بها تُدْعَى إذا متّ وافيا

ولا تحسُدِ المولَى إذا كان ذا غنًى ... ولا تجْفُه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها . والسلام .

فأجابه الحسن :

أما بعد(٥) فقد وصل إلىّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، فتركت جوابك خشية البغى [منّى](٦) عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحقّ تعلم أنّى من أهله ، وعلىّ إثمٌ أنْ أقول فأكذب . والسلام .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحى بنسخة واحدة :

من (٧عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان٧) ومن قِبَله من المسلمين . سلام عليكم ، فإنّى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنة عدوّكم وقتل خليفتكم ، إن الله بلُطْفه ، وحسن صنعه ، أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده ،

---

(١) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد » .

(٢) ب ، أيس ، وأثبت ما فى ا ، د ومقاتل الطالبيين .

(٣) ا ، د ومقاتل الطالبيين . (٤) الغميزة : المطعن .

(٥) فى مقاتل الطالبيين : بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد . . . » .

(٦) من د .

(٧–٧) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » .

فاغتاله فقتله ، فترك أصحابه متفرّقين مختلفين ؛ وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ؛ فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

قال : فاجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً إلى العراق . وبلغ الحسنَ خبرُه ومسيرُه نحوَه ؛ وأنّه قد بلغ جسر منبج ، فتحرّك عند ذلك ، وبعث حُجْر بن عدىّ فأمر العمال والنّاس بالتهيّؤ للسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ! فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون . وقال الحسن : إذا رضيتْ جماعة النّاس فأعلِمنى ؛ وجاءه سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، فقال له : اخرج ، فخرج الحسن عليه السلام ، وصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ؛ فإنّ الله كتب الجهاد على خَلْقِه ، وسمّاه كُرها[2] ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصْبِروا إنّ الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون .

بلغنى أنّ معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه ؛ فتحرّك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنُّخَيلة حتى ننظر وتنظروا ، ونَرَى وتروا .

قال : وإنّه فى كلامه ليتخوّف خذلان الناس له ، قال : فسكتوا فما تكلّم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف .

فلمّا رأى ذلك عدىّ بن حاتم قام فقال : أنا ابنُ حاتم ! سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيبون إمامكم وابنَ بنت نبيّكم ! أين خطباء مُضَر [أينَ المسلمون ؟ أينَ

---

(١) مقاتل الطالبيين ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) هو من قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ .

الخواضون من أهـــل المصر][1] الذين ألسنتهم كالمخاريق[2] فى الدّعة ، فإذا جَدَّ الجِدّ فروّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها .

ثم استقبل الحسن بوجهه ، فقال : أصاب الله بك المراشد ، وجنّبك المكاره ، ووفّقك لما يُحمَد ورده وصــدره[3] . قد سمعنا مقالتك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهى إلى معسكرى ،فمن أحبّ أن يوافينى فليوافِ .

ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ودابته بالباب ، فركبها ومضى إلى النّخَيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه . وكان عدىّ بن حاتم أوّل الناس عسكَرَ[4] .

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ ومعقل بن قيس الرياحىّ وزياد بن صَعْصعة[5] التّيمى ، فأنّبوا النّاس ولاموهم وحرّضوهم ، وكلّموا الحسنَ عليه السلام بمثل كلام عدىّ ابن حاتم فى الإجابة والقبول ، فقال لهم الحسن عليه السلام : صدقتم رحمكم الله ! ما زلتُ أعرفكم بصدق النيّة والوفاء والقبول والمودّة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا ثم نزل .

وخرج النّاس فعسكروا ، ونشطوا للخروج ، وخرج الحسن إلى المعسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، وأمره باستحثاث النّاس وإشخاصهم إليه ، فجعل يستحثّهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر .

وسار[6] الحسن عليه السلام فى عسكر عظيم وعدّة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن ،

---

(١) من مقاتل الطالبيين .

(٢) المخاريق : جمع مخراق ؛ وهو المنديل أو نحوه يلوى فيضرب به .

(٣) كذا فى مقاتل الطالبيين ، د .

(٤) ا : « عسكرا » .

(٥) فى ا ، د « حفصة » .

(٦) مقاتل الطالبيين : « ثم إن الحسن . . . » .

فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فقال له : يابن عمّ ، إني باعث إليك اثني عشر ألفا من فرسان العرب وقرّاء المصر ، الرجل منهم يزيد[1] الكتيبة ، فسر بهم ، وألِنْ لهم جانبك ، وابسُط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك ، فإنّهم بقية ثقات أمير المؤمنين ، وسر بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات ، ثم تصير إلى مَسْكِن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك ، فإنّى على أثرك وشيكاً ، وليكن خبرك عندى كلّ يوم ، وشاور هذين — يعنى قيس ابن سعد وسعيد بن قيس — وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أُصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على النّاس[2] .

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور[3] ، حتى خرج إلى شاهى[4] ، ثم لزم الفرات والفلُّوجة[5] ؛ حتى أتى مسكِن[6] ، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى دير كعب ، ثم بكّر فنزل ساباط دون القنطرة ، فلمّا أصبح نادى فى الناس : الصّلاة جامعة ! فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : الحمد لله كلّما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وائتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله . أما بعد ، فوالله إنّى لأرجو أن أكونَ قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة . ألّا وإنّ ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبّون فى الفرقة ؛ ألّا وإنّى ناظر لكم خيرا

---

(١) ا : « يزن » . (٢) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « ثم أمره بما أراد » .

(٣) شينور : صقع بالعراق ، وفى ب « سينور » تحريف .

(٤) شاهى : موضع قرب القادسية .

(٥) ياقوت : « فلاليج السواد: قراها ، واحدها الفلوجة ، والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر » .

(٦) مسكن : موضع على نهر دجيل .

من نظر كم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردّوا عليّ رأيي . غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإيّاكم لما فيه محبّته[1] ورضاه ، إن شاء الله ! ثم نزل .

قال : فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنّه يريد أن يصالح معاوية ، ويكل الأمر إليه ، كَفَر والله الرجل ! ثم شدُّوا على فسطاطه . فانتهبوه حتى أخذوا مصلّاه من تحته ؛ ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزديّ ، فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ، ومنعوا منه مَنْ أراده ، ولاموه وضعّفوه لما تكلم به؛ فقال : ادعُوا إليّ ربيعةَ وهَمْدان ، فدعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شَوْب[2] من غيرهم ، فلمّا مرّ في مظلم ساباط[3] ، قام إليه رجل من بني أسد ، ثم من بني نَصْر بن قُعَين يقال له جراح بن سنان ، وبيده مِغْوَل ، فأخذ بلجام فرسه[4] ، وقال : الله أكبر ! ياحسن [5]أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت[5] . وطعنه بالمِغْوَل ، فوقعت في فخذه، فشقّته حتى بلغت أربيّته[6] ، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه ، فخرّا جميعا إلى الأرض ؛ فوثب عبد الله بن الأخطل[7] الطائيّ ، ونزع المِغْوَل من يد جراح بن سنان ، فخضخضه[8] به ، وأكبّ ظَبيان بن عُمارة عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذا له الآجرّ فشدخا رأسه ، ووجهه حتى قتلوه .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لما فيه المحبة والرضا » .

(٢) الشوب : الأخلاط من الناس .

(٣) مظلم ساباط : مضاف إلى ساباط التي قرب المدائن : موضع هناك ، قال ياقوت : « ولا أدري لم سمي بذلك » .

(٤) مقاتل الطالبيين : « فرسه » .

(٥ـ٥) مقاتل الطالبيين : « يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل » .

(٦) الأربية : أصل الفخذ . (٧) مقاتل الطالبيين : « الخطل » .

(٨) ا : « فخضخضه » .

وحُمِل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن ، وبها سعيد[1] بن مسعود الثقفيُّ والياً عليها من قبله ، وقد كان عليٌّ عليه السلام ولّاه المدائن فأقرّه الحسن عليه السلام عليها ، فأقام عنده يعالج نفسه . فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها الحلوبية[2] بمسكِن ، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه ؛ فلما كان من غدٍ وجّه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم ؛ فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عُبيد الله بن عباس أنّ الحسن قد راسلني فى الصّلح ؛ وهو مسلم الأمرَ إلىّ ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنتَ متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتَنى الآن أن أعطيَك ألف ألف درهم ، أعجّل لك فى هـذا الوقت نصفها ؛ وإذا دخلت الكوفة النّصف الآخر ؛ فانسلّ عبيد الله إليه ليلاً ، فدخل عسكر معاويه ، فوفّى له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلّىَ بهم ؛ فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدُوه ، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة ، ثم خطبهم فثبّتهم[3] ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنّهوض إلى العدوّ ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له : انهض بنا إلى عدوّنا على اسم الله ، فنزل فنهض بهم .

وخرج إليه بُسْر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق : ويحكم ! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح ، فعلامَ تقتلون أنفسكم !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « سعد » .

(٢) ب : « الحيوضة » .

(٣) فى مقاتل الطالبيين : « أيها الناس ، لا يهولنّكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع « أى الجبان » . إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ؛ إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتل ببدر ، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه على أمير المؤمنين على البصرة ، فسرق مال الله ومال المسلمين ، فاشترى به الجوارى ؛ وزعم أن ذلك له حلال ؛ وأن هذا ولاه على اليمن. فهرب من بسر ابن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذى صنع . قال : فتنادى الناس : الحمد لله الذى أخرجه من بيننا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فنهض بهم » .

فقال لهم قيس بن سعد : اختاروا إحدى اثنتين ؛ إمّا القتـال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا : بل نقاتل بلا إمام ، فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردّوهم إلى مصافّهم .

فـكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنّيه ، فـكتب إليه قيس : لا والله لا تلقانى أبداً إلا بينى وبينك الرُّمح . فـكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه :

أما بعد ؛ فإنك يهودىّ ابن يهودىّ ، تُشْقِى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ؛ فإن ظهر أحبّ الفريقين إليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نـكّل بك وقتلك ؛ وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضِه ؛ فأكثر الحزّ وأخطأ المِفصـل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، فمات بحُوران طريدا غريبا . والسلام .

فـكتب إليه قيس بن سعد :

أما بعد ؛ فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت فى الإسلام كرْها ، وأقمت فيه فَرَقا ، وخرجت منه طوعا ؛ ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ؛ ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزباً من أحزاب المشركين ، وعدوًّا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده ـ وذكرتَ أبى ، فلعمرى ما أوتر إلا قوسَه ، ولا رمى إلّا غرضه ، فشغب عليه من لا يُشقّ غباره ، ولا يُبلغ كعبه ؛ وزعمت أنى يهودىّ ابن يهودى ، وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدّين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه ، وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدّ من هذا ؛ وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس . فأمسك عنه .

قال : وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة إلى الحسن للصلح ، فدعواه

إليه ، فزهّداه فى الأمر ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وألا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة علىّ بمكروه ، ولا يذكر علىٌّ إلا بخير ، وأشياء شَرَطها الحسن . فأجاب إلى ذلك ، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة ، وانصرف الحسن أيضا إليها ، وأقبل معاوية قاصدا نحو الكوفة ، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوهُ الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه ، ويبكون إليه جزعا مما فعله[1] .

قال أبو الفرج : فحدّثنى محمد بن أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا الفضل بن الحسن البصرىّ قال : حدّثنا ابن عمرو ، قال : حدثنا مكّى بن إبراهيم ، قال : حدثنا السرىّ ابن إسماعيل ، عن الشعبىّ ، عن سفيان بن أبى ليلى . قال أبو الفرج : وحدثنى به أيضا محمد بن الحسين الأشنانداني ، وعلىّ بن العباس المقانعى[2] ، عن عباد بن يعقوب ، عن عمرو بن ثابت ، عن الحسن بن الحكم ، عن عدىّ بن ثابت ، عن سفيان بن أبى ليلى ، قال : أتيتُ الحسن بن علىّ حين بايع معاوية ، فوجدته بفناء داره ، وعنده رهط ، فقلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ؛ قال : وعليك السلام يا سفيان ، ونزلت فعقلت راحلتى ، ثم أتيته فجلست إليه ، فقال : كيف قلت يا سفيان ؟ قلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ! فقال : لِمَ جرى هذا منك إلينا ؟ قلت : أنت والله بأبى وأمى أذللتَ رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلّهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس . فقال : يا سفيان ، إنّا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإنى سمعتُ عليا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا تذهب الليالى والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمّة على رجل واسع السَّرْم[3] ،

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤ ــ ٦٧ .
(٢) ب : « المقانعى » تحريف .
(٣) فى ب « السر » .

ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له فى السماء عاذر ، ولا فى الأرض ناصر » ، وإنه لمعاوية ، وإنى عرفت أن الله بالغ أمره .

ثم أذّن المؤذّن ، فقمنا على حالب يحلب ناقته ، فتناول الإناء ، فشرب قائماً ، ثم سقانى ، وخرجنا نمشى إلى المسجد ، فقال لى : ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت : حبُّكم والذى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ! قال : فأبشر يا سفيان ، فإنى سمعتُ علياً يقول ؟ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يرد علىّ الحوضَ أهلُ بيتى ومَنْ أحبّهم من أمتى كهاتين ـ يعنى السبّابتين ، أو كهاتين يعنى السبّابة والوسطى ـ إحداهما تفضل على الأخرى ، أبشر يا سفيان ؛ فإنّ الدنيا تسع البرّ والفاجر ؛ حتى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمد صلى الله عليه وآله[1] .

***

قلت : قوله : « ولا فى الأرض ناصر » ، أى ناصر دينى ؛ أى لا يمكن أحداً أن ينتصر له بتأويل دينى يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة .

فإن قلت : قوله: « وإنه لمعاوية » من الحديث المرفوع ، أو من كلام علىّ عليه السلام ، أو من كلام الحسن عليه السلام ؟ قلت : الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام ، فإنه قد غلب على ظنّه أنّ معاوية صاحب هذه الصفات ، وإن كان القسمان الأولان غير ممتنعين .

فإن قلت : فمن هو إمام الحقّ من آل محمد ؟ قلت : أمّا الإمامية فتزعم أنه صاحبهم الذى يعتقدون أنه الآن حىّ فى الأرض ؛ وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىّ يخلقه الله فى آخر الزمان .

***

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٧ ـ ٦٨ .

قال أبو الفرج : وسار معاوية حتى نزل النُّخَيلة ، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة ، وجاءت منقطعة فى الحديث ، وسنذكر ما انتهى إلينا منها[١] .

فأما الشعبىّ فإنه روى أنه قال فى الخطبة : ما اختلف[٢] أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ثم انتبه فندم فقال : إلا هذه الأمة فإنها وإنها . . .

وأما أبو إسحاق السَّبيعىّ فقال : إنّ معاوية قال فى خطبته بالنُّخَيلة : ألا إنّ كلّ شىء أعطيته الحسن بن علىّ تحت قدمىّ هاتين لا أفى به .

قال أبو إسحاق : وكان والله غدّارا .

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة ، عن سعيد بن سويد ، قال : صلّى بنا معاوية بالنُّخيلة الجمعة ، ثم خطبنا ، فقال : والله إنى ما قاتلتكم لتصلّوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون .

قال : وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك ، يقول : هذا والله هو التهتّك .

* * *

قال أبو الفرج : وحدّثنى أبو عبيد محمّد بن أحمد ، قال : حدثنى الفضل بن الحسن البصرى ، قال : حدثنى يحيى بن معين قال : حدّثنى أبو حفص اللّبان[٣] ، عن عبد الرحمن ابن شريك ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : خطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر ، فذكر عليا عليه

---

(١) مقاتل الطالبيين : « من ذلك » .   (٢) مقاتل الطالبيين : « مااختلفت أمه » .

(٣) فى د « الأبار » .

السلام فنال منه ، ثم نال من الحسن ، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : أيها الذاكر عليًّا ؛ أنا الحسن ، وأبى علىّ ، وأنت معاوية وأبوك صَخْر ، وأمى فاطمة وأمّك هند ، وجدّى رسول الله وجدّك عُتْبة بن ربيعة ، وجدّتى خديجة وجدّتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكرا ، وألأمنا حسبا ، وشرّنا قديما وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا ! فقال طوائف من أهل المسجد : آمين .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : وأنا أقول : آمين .

قال أبو الفرج : قال أبو عبيد : قال الفضل : وأنا أقول : « آمين » ، ويقول علىّ بن الحسين الأصفهانى [1] : آمين .

قلت : ويقول عبد الحميد بن أبى الحديد مصنف هذا الكتاب : آمين .

***

قال أبو الفرج : ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنُّخيلة بين يديه خالد ابن عُرفطة ، ومعه حبيب بن حمّاد يحمل رايته . فلمّا صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل ، واجتمع الناس إليه .

قال أبو الفرج : فحدثنى أبو عبيد الصيرفىّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن محمد بن علىّ بن خلف ، عن محمد بن عمرو الرازىّ ، عن مالك بن سعيد ، عن محمد بن عبد الله الليثى ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : بينا علىّ بن أبى طالب عليه السلام على منبر الكوفة ، إذ دخل رجل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، مات خالد بن عرفطة ، فقال : لا والله [ما] [2] مات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد ، وأشار إلى باب الفيل ، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد .

قال : فوثب رجل فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حمّاد ، وأنا لك شيعة ، فقال :

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٠ . (٢) تكملة من « د » .

فإنه كما أقول : فو الله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدّمة معاوية يحمل رايته حبيب ابن حماد [١] .

قال أبو الفرج : وقال مالك بن سعيد ، وحدّثنى الأعمش بهـــذا الحديث ، قال : حدّثنى صاحب هـــذه الدار ـ وأشار إلى دار السّائب أبى عطاء ـ أنّه سمع عليا عليه السلام يقول هذا [٢] .

* * *

قال أبو الفرج : فلما تمّ الصّلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة ، فجاءه ـ وكان رجلا طُوالًا يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطّان فى الأرض ، وما فى وجهه طاقة شعر ، وكان يسمّى خصىّ الأنصار . فلمّا أرادوا إدخاله إليه قال : إنّى حلفت ألّا ألقاه إلّا وبينى وبينه الرّمح أو السيف ، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه [٣] .

قال أبو الفرج : وقد روِىَ أنّ الحسنَ لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد فى أربعة آلاف فارس فأبى [٤] أن يبايع ، فلمــا بايع الحسن أدخِل قيسٌ ليبايع ؛ فأقبل على الحسن ، فقال : أفى حلٍّ أنا من بيعتك ؟ فقال : نعم ، فأُلقى له كرسىّ ، وجلس معاوية عَلَى سرير والحسن معه ، فقال له معاوية : أتبايع ياقيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده عَلَى فخذه ، ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره [٥] ، وأكبّ عَلَى قيس حتى مسح يده ، على يده وما رفع إليه قيس يده [٦] .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « حبيب بن عمار » .
(٢) مقاتل الطالبيين ٧٠ ، ٧١ ، وهناك : « يقول هذه المقالة » .
(٣) ابن أبى الحديد ٧١ ، ٧٢ .   (٤) د : « وأبى » .
(٤) فى « د » : « فجثا معاوية على سريره » ، وكذا فى مقاتل الطالبيين .
(٦) مقاتل الطالبيين ٧٢ .

قال أبو الفرج : ثم إنّ معاوية أمر الحسن أن يخطب ، فظنّ أنه سيُحصَر ، فقام فخطب ، فقال فى خطبته[1] : إنّما الخليفةُ من سار بكتاب الله وسنّة نبيه ؛ وليس الخليفةُ من سار بالجوْر ؛ ذاك رجل ملَك مُلْكاً تمتّع به قليلا ؛ ثم تنخّمه ، تنقطع لذّته ، وتبقى تَبِعتُه ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2] . قال : وانصرف الحسن إلى المدينة ، فأقام بها ، وأراد معاوية البَيْعة لابنه يزيد ؛ فلم يكن عليه شىء أثقل من أمْرِ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص ، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه .

قال أبو الفرج : حدّثنى أحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن عيسى بن مِهْران ، عن عبيد بن الصبّاح الخرّاز ، عن جرير ، عن مغيرة ، قال : أرسل معاوية إلى بنت الأشعث ابن قيس ـ وهى تحت الحسن ـ فقال لها : إنّى مزوِّجك يزيد ابنى عَلَى أن تَسُمّى الحسن[3] ، وبعث إليها بمائة ألف درهم . ففعلت ، وسمّت الحسن ، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه ، فخلف عليها رجل من آل طلحة ، فأولدها ؛ فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم ، وقالوا : يابنى مُسِمّة الأزواج[4] .

قال : حدّثنى أحمد ، قال : حدّثنى يحيى بن بُكير ، عن شعبة ، عن أبى بكر بن حَفْص ، قال : تُوُفِّىَ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص فى أيّام متقاربة ؛ وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين ؛ وكانوا يروون أنه سقاها السمّ[5] .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بن عَوْن ، عن عمران بن إسحاق ، قال : كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام فى الدّار ، فدخل الحسن المخرج ، ثمّ خرج ، فقال : لقد سُقيت السمّ مرارا ، ما سقيت مثل هذه المرّة ؛ لقد لفظت قطعة من كبدى فجعلت

(١) ب : « الخطبة » ، وأثبت ما فى ا ، د . (٢) سورة الأنبياء ١١١ .
(٣) مقاتل الطالبيين « ابن على » . (٤) مقاتل الطالبيين ٧٣ .
(٥) مقاتل الطالبيين ٧٣ : « سقاهما سما » .

أقلبها بعود معي . فقال الحسين : ومَن سقاك ؟ قال : وما تريد منه ؟ أتريد أن تقتله ! إن يكن هو هو ، فالله أشدّ نقمة منك ، وإن لم يكن هو فما أحبّ أن يؤخذ بي برىء[1] .

قال أبو الفرج : دفن الحسن عليه السلام في قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في البقيع ، وقد كان أوصى أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وآله ، فمنع مروان بن الحكم من ذلك ، وركبت بنو أميّة في السلاح ، وجعل مروان يقول :

* يارب هَيْجا هي خيرٌ من دَعَه[2] *

يدفن عثمان في البقيع ، ويدفن الحسن في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ! والله لا يكون ذلك أبدا وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة تقع ، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال له عبد الله بن جعفر : عزمت عليك يا أبا عبد الله بحق ألّا تكلّم بكلمة ! فمضوا به إلى البقيع ، وانصرف مروان[3] .

قال أبو الفرج : وقد روى الزّبير بن بكّار أنّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة أنْ تأذن له أن يُدفَن مع النبي صلى الله عليه وآله ، فقالت : نعم ، فلما سمعت بنو أميّة بذلك استلأموا في السلاح ، وتنادوا هم وبنو هاشم في القتال ؛ فبلغ ذلك الحسن ، فأرسل إلى بني هاشم : أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه ؛ ادفنوني إلى جنب أمي ، فدفن إلى جنب فاطمة عليها السلام[4] .

* * *

قال أبو الفرج : فأمّا يحيى بن الحسن صاحب كتاب "النسب" ، فإنه روى أن عائشة

---

(١) مقاتل الطالبين ٧٤ (٢) مطلع أرجوزة للبيد ، الأغاني ١٦ : ٢٢ ـ ساسى .
(٣) مقاتل الطالبين ٧٤ . (٤) مقاتل الطالبين ٧٥ .

ركبت ذلك اليوم بغلاً واستنفرت بنو أميّة مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمهم وهو قول القائل :

* فيوماً على بغلٍ ويوماً على جَمَل[1] *

***

قلت : وليس فى رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة ، لأنه لم يرو أنها استنفرت الناس لما ركبت البغل ، وإنما المستنفرون هم بنو أميّة ؛ ويجوز أن تكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة ، لا سيما وقد روى عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت : نعم ، فهذه الحال والقصّة منقبة من مناقب عائشة .

***

قال أبو الفرج : وقال جُويرية بن أسماء : لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحته فحَمَل سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : أتحمِل اليومَ سريره وبالأمس كنت تجرّعه الغيظ ! قال مروان : كنت أفعل ذلك بمَنْ يوازِن[2] حلمُه الجبال[3] .

قال : وقدّم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيدَ بن العاص ، وهو يومئذ أمير المدينة، وقال : تقدّم فلولا أنها سنّة لما قدمتك[3] .

قال : قيــل لأبى إسحاق السَّبيعىّ : متى ذلّ الناس ؟ فقال : حين مات الحسن ؛ وادّعى زياد ، وقُتل حُجْر بن عدىّ[3] .

قال : اختلف الناس فى سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاته ، فقيل : ابن ثمان وأربعين ـ وهو المروىّ عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية هشام بن سالم ـ وقيل : ابن ستّ وأربعين ، وهو المروىّ أيضا عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية أبى بصير .

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٤ .
(٢) د : « يوازى » ؛ وهو وجه أيضا .
(٣) مقاتل الطالبيين ٧٦ .

قال : وفى الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتة يرثيه ، وكان محبًّا له :

يا كذَّبَ اللهُ مَنْ نَعَى حَسَنًا ليس لتكذيبِ نَعْيِه ثَمَنْ[1]

كنتَ خليلى وكنتَ خالصتى لكلِّ حىٍّ من أهله سَكَنُ

أجول فى الدّار لا أراك وفى الدّار أناسٌ جوارُهمْ غَبَنُ

بُدِّلتهم منك ليت أنَّهمُ أضحَوْا وبينى وبينهمْ عَدَنُ

* * *

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل .

أما قوله: « كتبها إليه بحاضرين » ؛ فالذى كُنّا نقرؤه قديمًا ؛ « كتبها إليه بالحاضرَيْن » على صيغة التثنية ؛ يعنى حاضر حلب وحاضر قِنّسرِين ، وهى الأرباض والضواحى المحيطة بهذه البلاد ؛ ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ؛ ولم يفسّروه ؛ ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول بخناصرين ، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها ، وقد طلبتُ هذه الكلمة فى الكتب المصنفة ، سيّما فى البلاد [والأرضين[2]] فلم أجدها ، ولعلّى أظفر بها فيما بعد فألحقها فى هذا الموضع .

قوله : « من الوالد الفان » ، حذف الياء هاهنا للازدواج بين « الفان » و « الزمان » ، ولأنه وقف ، وفى الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها ، والإثبات هو الوجه ، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه .

قوله : « المقرّ للزمان » أى المقرّ له بالغلبة ، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصمًا للزمان بالقهر .

قوله : « المدبر العمر » ، لأنه كان قد جاوز الستين ، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلا إدبار العمر ، لأنها نصف العمر الطبيعى الذى قلّ أن يبلغه أحدٌ ، فعلى تقدير أنه

(١) مقاتل الطالبيين ٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٤٤ . (٢) من ا .

يبلغه ، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى ، فلا جرم يكون العمر قد أدبر .

قوله : « المستسلم للدّهر » ؛ هذا آكد من قوله : «المقرّ للزّمان» لأنه قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم .

قوله : « الذام للدّنيا » هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر ، بل لم يزل عليه ، ولكن يجوز أن يريد ذمّه لها ، لأنّ الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعا ، ولا يزال يتأفّف من الدنيا .

قوله: «الساكن مساكن الموتى»،إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (١) .

قوله : « الظاعن عنها غداً » ، لا يريد الغدَ بعينه ، بل يريد قُرْب الرّحيل والظَّعْن .

وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام مَنْ قد أيقن بالفراق ، ولا ريب في ظهور الاستكانة والخضوع عليه ، ويدلّ أيضا على كرب وضيق عَطَن ، لكونه لم يبلغ أربه من حرْب أهل الشام ، وانعكس ما قدّره بتخاذل أصحابه عنه ، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحمق أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضا .

قوله : « إلى المولود » هذه اللفظة بإزاء « الوالد » .

قوله : « المؤمّل ما لا يدرك » ، لو قال قائل : إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤمّلا لها لم يُبعد ، ويكون ذلك إخبارا عن غيب ، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك ، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن ، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه ، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله بعدها : « السالك سبيل من قد هلك » ، فإن كل واحد من الناس يؤمّل أمورًا لا يدركها ، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله

---

(١) سورة ابراهيم : ٤٥ .

قوله عليه السلام : « غرض الأسقام » لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأعراضها .

قوله عليه السلام : « ورهينة الأيام » الرهينة هاهنا : المهزول يقال : إنه لرهن وإنه لرهينة ؛ إذا كان مهزولا بالياء قال الراجز :

إمّا ترَىْ جِسمي خلاءً قد رَهَنْ هزلاً وما مجدُ الرّجال في السِّمَنْ(١)

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن ؛ يقال للأسير أو للزمِن أو للعاجز عند الرحيل: إنّه لرهينة ؛ وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها .

قوله : « ورميّة المصائب » ، الرميّة ما يرمَى .

قوله: « وعبْد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا » ؛ لأنّ الإنسان طوع شهواته ، فهو عبْد الدنيا ، وحركاته فيها مبنيّة على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة؛ ولمّا كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريما له يقتضيه ما لا بدّ له من أدائه .

قوله : « وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وسريع الشهوات » ، لما كان الإنسان مع الموت ، كما قال طرفة :

لَعَمْرُكَ إنّ المَوْتَ ما أخطأ الفتَى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياه باليَدِ(٢)

كان أسيرا له لا محالة ؛ ولمّا كان لابدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم ؛ وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحزن ، فكان قريناً له ، ولما كان معرّضاً للآفات كان نصبا لها ، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها(٣) .

قوله : « وخليفة الأموات » قد أخذه مَنْ قال : إنّ امرأً ليس بينه وبين آدم إلا أب ميّت ، لمُعرقٌ في الموت .

واعلم أنه عدّ من صفات نفسه سبعاً ، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة ، فجعل

(١) الصحاح ٢١٢٨ من غير نسبة .
(٢) من المعلقة بشرح التبريزى ٨٦ . الطول : الحبل ، وثنياه : ماثنى منه .
(٣) ا : « صريعها » .

بإزاء كلّ واحدة مما له اثنتين ، فليلمح ذلك .

* * *

[بعض ما قيل من الشعر فى الدهر وفعله بالإنسان]

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه ، ووصف ما نقص الدهر من قُواه ، قول عوف بن محلّم الشيبانىّ فى عبد الله بن طاهر أمير خراسان :

يابْنَ الّذى دَانَ له المشرقَانْ ... وألبس الأمنَ به المغربانْ(١)
إنّ الثمانينَ ، وبُلِّغْتَهَا ... قد أحوجتْ سمعى إلى تَرْجُمَانْ
وبدّلتنى بالشّطاط انحِنَا ... وكنتُ كالصّعْدة تحتَ السّنانْ(٢)
وقاربتْ مِنّى خُطًا لم تكنْ ... مقارِبَاتٍ وثَنَتْ مِنْ عَنَانْ
وعوّضتنى من زماعِ الفتى ... وهمّه همّ الجبان الهِدَانْ(٣)
وأنشأت بينى وبَيْنَ الورَى ... عنانةً من غير نَسْج العَنَانْ(٤)
ولم تدعْ فىّ لمستمتِـعٍ ... إلا لسانى وكفانى لسانْ(٥)
أدعو به الله وأثنى به ... علَى الأمير المصعبىّ الهِجانْ(٦)

---

(١) أمالى القالى ١ : ٥٠ ، وروايته :

* طرًّا وقد دان له المغربانْ *

(٢) الشطاط: حسن القوام والاعتدال . والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف.
(٣) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه . والهدان : الأحمق الجافى .
(٤) العنان هنا : السحاب: يشير بهذا إلى ضعف بصره . وأنه لا يرى الورى إلا من وراء سحابة .
(٥) الأمالى : « وبحسبى لسان » .
(٦) الهجان . الكريم ؛ وبعده فى الأمالى :

فقرّبانى بأبى أنتُمَا ... من وطنى قَبْلَ اصفرار البنانْ
وقَبْل منعاى إلى نسوةٍ ... أوطانُها حَرّانُ والرّقتان

ومن الشعر القديم الجيّد فى هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبيّ :

لا يبعدَنَّ عَصْرُ الشباب ولا لذّاته ونبساته النَّضْرِ
والمشرفاتُ من الخدور كإيـ ماض الغمام يَجُودُ بالقطرِ
وطراد خيل مثلها التقتا لحفيظةٍ ومقاعد الخمرِ
لَوْلا أولئك ما حفلت متى عوليتُ فى حَرَجٍ إلى قبرى
هربت زبيبة أنْ رأت ثَرَمِى(١) وأن انحنى لتقادمٍ ظهرى
من بعد ما عهدت فأدلفنى يومٌ يمرّ وليلة تسرى
حتّى كأنّىَ خاتلٌ قنصًا(٢) والمرء بعد تمامه يحرى
لا تهزئى منّى زبيب فما فى ذاك من عَجَبٍ ولا سخرِ
أوَ لم ترَىْ لقمان أهلكَهُ ما اقتات من سنة ومن شَهْرِ
وبقاء نَسْرٍ كلّما انقرضتْ أيامُه عادتْ إلى نَسْرِ
ما طال من أمدٍ على لُبَدٍ رجعت محارته إلى قَصْرِ
ولقد حَلَبْتُ الدّهْرَ أَشْطُرَهُ وعلمت ما آتِى من الأمْرِ

أنا أستفصح قوله : « ما اقتات من سنة ومن شهر » جعل الزمان كالقوت له ، ومن اقتات الشيء فقد أكله ، والأكل سبب المرض ، والمرض سبب الهلاك .

***

(١) الثرم : انكسار السن .

(٢) الخاتلة : مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

(٣) فى اللسان : « تزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسقى لها ؛ فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر ، من أظب عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبدا ؛ وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عَلَيْها الذى أخنى على لُبَدِ

الأصـــلُ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي ، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي ـ فَصَدَّقَنِي رَأْيِي ، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ـ وَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ .

* * *



الشّــرحُ :

يزعنى : يكفّنى ويصدّنى ، وزعتُ فلاناً ، ولا بدّ للناس من وَزَعة .

وسِوى ، لفظة تُقصر إذا كسرت سينها ، وتمدّ إذا فتحتها ؛ وهى هاهنا بمعنى غير ، ومَنْ قبلها بمعنى شىء منكّر ، كقوله :

* ربَّ مَنْ أنضجتُ غيظاً قلبه[١] *

والتقدير : غير ذكر إنسان سواى ، ويجوز أن تكون « مَنْ » موصولة ، وقد حذف أحد جزأي الصلة ، والتقدير عن ذكر الذى هو غيرى ، كما قالوا فى : ﴿ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ ، أى هو أشدّ . يقول عليه السلام : إن فيما قد بان لى من تنكّر الوقت وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لى عن الاهتمام بأحد غيرى ، والاهتمام والفكر فى أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورائى .

---

(١) بقيته : * تمنّى لِيَ موتاً لم يُطَعْ *

والبيت لسويد بن أبى كاهل اليشكرى . المفضليات ١٩٨ .

ثم عاد فقال : إلّا أنّ همّى بنفسى يقتضى اهتمامى بك ، لأنك بعضى بل كلّى ، فإن كان اهتمامى بنفسى يصرفنى عن غيرى لم تـكن أنت داخلا فى جملة مَنْ يصرفنى همّى بنفسى عنهم ؛ لأنك لست غيرى .

فإن قلت : أفهذا الهمّ حدث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن ، أو من قبل لم يكن عالما بأن الدنيا مدبرة ، والآخرة مقبلة ؟

قلت : كلّا بل لم يزل عالما عارفا بذلك ، ولـكنه الآن تأكد وقوى ، بطريق علوّ السنّ وضعف القُوَى ، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب ، لابدّ من حصوله لـكلّ أحد ، وإن كان عالما بالحال من قبل ؛ ولـكن ليس العِيان كالخبر .

ومن مستحسَن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى إسحاق الصابى :

أقيكَ الرَّدَى إنى تنبهتُ من كَرَى … وسهوٍ عَلَى طول المدَى أعترياني
فأثبتُّ شخصا دانياً كانَ خافياً … على البعـد حتى صار نُصْب عياني
هو الأجلُ المحتـوم لى جَدَّ جِدُّهُ … وكانَ يريني غفلة المتـواني
له نُذُرٌ قد آذنتنِى بهجمَـةٍ … له لست منهـا آخـذاً بأمانِ
ولا بدّ منـه ممهلًا أو معـاجلًا … سيأتى فلا يثنيـه عنّى ثانِ

وأوّل هذه القصيدة وهو داخل له فى هذا المعنى أيضا :

إذا ما تعدّت بِى وسارت محفّةٌ … لها أرجلٌ يسعى بهـا رجلانِ
وما كنت من فرسانِها غير أنّها … وفت لىَ لمّا خانت القدمانِ
نزلتُ إليهـا عن سراة حصانِى … بحكم مشيبٍ أو فراش حَصانِ[1]
فقد حملت منّى ابنَ سبعين سالـكاً … سبيلا عليهـا يسلك الثقلانِ

---

(١) د : «بعلم» .

كما حملَ المهدَ الصبيُّ وقبلَها ... ذعرتُ أسودَ الغيلِ بالنّزوانِ (١)

ولي بعدها أخرى تسمّى جِنازةً (٢) ... جنيبةَ يومٍ للمنيّةِ دانِ

تسيرُ على أقدامِ أربعةٍ إلى ... ديارِ البلى معدودهنّ ثمانِ

وإنّي على عَيْثِ الرّدى في جوارحي ... وما كفَّ من خَطْوي وبطشِ بناني

وإن لم يَدَعْ إلّا فؤادا مُرَوّعاً ... به غِيَرٌ باقٍ من الحدثانِ (٣)

تلوّمَ تحتَ الحُجْبِ ينفثُ حُكْمَه ... إلى أذنٍ تُصغي لنطقِ لسانِ (٤)

لأعلمُ أنّي ميتٌ عاقَ دفنَه ... ذَماءٌ قليلٌ في غدٍ هو فانِ

وإنّ فماً للأرضِ غرثانَ حائماً ... يراصِدُ من أكلي حضورَ أوانِ

به شَرَهٌ عمّ الورى بفجائعٍ ... تركنَ فلاناً ثاكلاً لفلانِ

غدا فاغراً يشكو الطوى وهو راتعٌ ... فما تلتقي يوماً له الشّفتانِ

إذا عاضنا بالنّسلِ ممّن نعولُه ... تلا أوّلا منه بمهلكِ ثانِ

إلى ذاتِ يومٍ لا ترى الأرضُ وارثاً ... سوى اللهِ من إنسٍ تراه وجانِ

قوله : « تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسي » أي دون الهموم التي قد كانت تعتريني لأجل أحوال الناس .

فصدّقني رأيي ؛ يقال : صدقته كذا أي عن كذا ، وفي المثل : « صدقني سنّ بكره » لأنه لما نفر قال له : هِدَعْ (٥) ، وهي كلمة تسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت ؛ والمعنى أنّ هذا الهمّ صدقني عن الصفة التي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصفة هي ألّا يفكر في

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف . (٢) الجنازة بالكسر : ما يحمل عليه الميت .

(٣) الحدثان : غير الدهر ونوائبه . (٤) تلوّم : أي انتظر .

(٥) في اللسان : « هدع هدع ، بكسر الهاء وفتح الدال وتسكين العين : كلمة يسكّن بها صغار الإبل عند النفار ؛ ولا يقال ذلك لجلّتها ولا مسانّها ؛ وزعموا أن رجلا أتى السوق ببكر له يبيعه ، فساومه رجل فقال : بكم البكر ؟ فقال : إنه جمل ؛ فقال : هو بكر ؛ فبينا هو يعاريه إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : هِدَعْ هدع ، ليسكّن نفاره ، فقال المشتري : صدقني سنّ بكره ؛ وإنما يقال : هدع للبكر ليسكن » .

أمر شيء من الموجودات أصلا إلا الله تعالى ونفسه ؛ وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى جدا وهي ألاّ تفكر في شيء قطّ إلا في الله وحده ، وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير ، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ ، وقد ذكرها هو فيما سبق ، وهو ألاّ يفكر في شيء أصلا ، لا في المخلوق ولا في الخـالق ؛ لأنه قد قارب أن يتّحد بالخالق ، ويستغنى عن الفكر فيه .

قوله : « وصرفني عن هواي » أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة .

قوله عليه السلام : « وصرّح لي محض أمري » يروى بنصب محض « ورفعه » ؛ فمن نصب فتقديره : عن محض أمري ؛ فلمّا حذف الجار نصب ، ومن رفع جعله فاعلا . وصرّح : كشف أو انكشف .

قوله : « فأفضى بي إلى كذا » ، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب ؛ بل المعنى أنّ همومه الأولى قـد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولا يقول إلا حقا ، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلا ، ومدار الفرق بين الحالتين ـ أعنى الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله : « أفضى لك بي هذا الهم » إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قـد كان يمازجها اللعب ؛ ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكانا محضا على أنّ اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلا ، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن دَعِب لَعِب » ، وكذلك القول في قوله: « وصدق لا يشوبه كذب » أي لا يمكن أن يشوبه كذب ؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين ؛ بل هو من قولهم : صدَقونا اللقاء ، ومن قولهم : حمل عليهم فما كذب ! قال زهير :

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد اللّيوثَ إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صدَقا[1]

أى أفضى بى هذا الهمّ إلى أن صدقتنى الدنيا حربها ، كأنّه جعل نفسه محارباً للدنيا ، أى صدقتنى الدنيا حربها ولم تكذب ، أى لم تجبن ولم تَخُنْ .

أخبر عن شدّة اتحاد ولده به ، فقال وجدتك بعضى ، قال الشاعر :

وإنّمـــا أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرض

لو هبّت الرّيح على بعضهمْ لامتنعتْ عينى من الغَمْض

وغضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره ، فاستعطفه له الأحنف ، قال له : ياأمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليـــلة ، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطِهم ، فلا تكن عليهم قفلا فيملُّوا حياتك ، ويتمنّوا موتك .

وقيل لابنة الخُس[2] : أىّ ولديك أحبّ إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

غضب الطرمّاح على امرأته فشفع فيهـا ولده منها صمصام ، وهو غلام لم يبلغ عشرا ، فقال الطّرمّاح :

أصَمْصامُ إن تشفع لأمّك تَلْقها لها شافعٌ فى الصّدْر لم يتزحزحِ[3]

هَـلِ الحبّ إلاّ أنّها لو تعرّضت لذبحك ياصمصامُ قُلتَ لها : اذبحِى

أحاذر يا صَمْصامُ إن متّ أنْ يَلِى تُراثى وإيّاك امرؤٌ غـير مصلحِ

إذا صكّ وسط القوم رأسك صَكّةً يقول له النّاهى:ملكت فأسْجِحِ

وفى الحديث المرفوع : « إنّ ريح الولد من ريح الجنّة » .

---

(١) ديوانه ٥٤ : وكذبه ، أى لم يصدق الحملة . وعثر : قبل تبالة .

(٢) ب : « الحسن » تحريف ، صوابه من ا ، د .

(٣) ديوانه ١٣٦ ، وفيه : « لم يتبرج » .

وفى الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام : « إنّكم لتجبّنون ، وإنّكم لتبخّلون ، وإنكم لمن ريحان الله » .

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها :

يا حبّذا ريحُ الولَدْ ريحُ الخزامى فى البلدْ
أهكذا كلّ ولَدْ أم لم يلدْ قبلى أحَدْ !

وفى الحديث المرفوع : « من كان له صبىّ فليستصب له » .

وأنشد الرياشىّ :

مَنْ سرّه الدّهر أن يرى الكبدا يمشى على الأرض فليَرَ الولدا

***

الأصلُ :

فإنّى أوصيكَ بتقوى اللهِ ـ أىْ بُنَىَّ ـ ولزومِ أمْرِهِ ؛ وَعِمارَةِ قلبِكَ بِذِكْرِهِ ، وَالاعتِصامِ بِحَبْلِهِ ، وَأىُّ سَبَبٍ أوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ ؛ إنْ أنْتَ أخَذْتَ بِهِ !

أحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَأمِتْهُ بِالزَّهادَةِ ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ؛ وَقَرِّرْهُ بِالْفَناءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجائِعَ الدُّنْيا ؛ وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيالِي وَالْأيّامِ ؛ وَأعْرِضْ عَلَيْهِ أخْبارَ الْماضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِما أصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأوَّلِينَ .

وَسِرْ فِي دِيارِهِمْ وَآثارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيما فَعَلُوا ، وَعَمّا انْتَقَلُوا ، وَأيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ! فإنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأحِبَّةِ ، وَحَلُّوا دارَ الْغُرْبَةِ ؛ وَكأنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كأحَدِهِمْ .

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ .

***

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « وأيّ سبب أوثق » ؛ إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١) .

ثم أتى بلفظتين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : « أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزّهادة » ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه .

قوله عليه السلام : « واعرض عليه أخبار الماضين » معنى قد تداوله النـاس ، قال الشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت ... عنهم الأجداث والتُّرَكُ
أيّ دار للبـلى نزلوا ... وسبيل للردى سَلَكُوا

قوله عليه السلام : « ودع القول فيا لا تعرف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت فى حُثالة من النـاس ، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا ! » ـ وشبّك بين أصابعه ـ ؛ قال عبد الله : فقلت : مُرْنى يا رسولَ الله ، فقال : « خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخُوَيْصّة نفسك » .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

قوله : « والخطاب فيما لم تـكلّف » من قول رسول الله صلى الله عليـه وآله : « منْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقال معاوية في عبـد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام : إنّ لهذا الغلام لهمّة ، وإنّه مع ذلك تارك لثلاث آخذ بثلاث : تارك مساءة الصّديق جدًّا وهزلًا ، تارك ما لا يعنيه ، تارك ما لا يعتذر منه ، آخذ بأحسن الحديث إذا حدّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدّث ، وبأهون الأمرين إذا خُولف .

قوله عليه السلام : « وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته » ، مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله : « دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك » ، وفي خبر آخر : « إذا رابك أمْرٌ فدعه » .

***

الأصْـلُ :

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَـكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ .

وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى الحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي ٱلدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ ٱلصَّبْرَ عَلَى الْـمَكْرُوهِ ؛ وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي ٱلْحَقِّ !

وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلٰهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ .

وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ؛ فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ ، وَأَكْثِرِ الْاسْتِخَارَةَ ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا ، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ .

***

الشَّرْحُ :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما واجبان عندنا ، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين .

ومعنى قوله : « تكن من أهله » ؛ لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون ، ويجب إنكار المنكر باللسان ، فإن لم ينجع فباليد ، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتبي الكلامية .

قوله : « وخُضِ الغمرات إلى الحق » ، لا شبهة أنّ الحسن عليه السلام لو تمكّنَ لخاضها إلّا أنّ مَنْ فقد الأنصار لا حِيلَةَ له .

* وهلْ ينهضُ البازِي بغيرِ جَنَاحِ *

والّذى خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام ، ولهذا عظُم عند الناس قدرُه ، فقدّمه قوم كثير على الحسن عليه السلام .

فإن قلتَ : فما قول أصحابكم في ذلك ؟

قلت : هما عندنا في الفضيلة سيّان ، أما الحسن فلوقوفه مع قوله تعالى : ﴿ إلا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ ، وأما الحسين فلإعزاز الدين .

قوله : « فنعم التصبّر » قد تقدّم منّا كلام شافٍ في الصبر .

وقوله : « وأكثر الاستخارة » : ليس يعنى بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطْر رقاع وجعلها في بنادق ، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيَرة من الله فيما يأتى ويذر .

قوله : « لا خير في علم لا ينفع » قول حقّ ، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً .

قوله : « ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه »، أى لا يجب ولا يندب إليه ؛ وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة ، فما لم يكن من العلوم مرغبا فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به فى الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقى ونحوهما .

* * *

الأصلُ :

أىْ بُنَىَّ ، إنِّى لَمَّا رَأَيْتُنِى قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا ، وَرَأَيْتُنِى أَزْدَادُ وَهْنًا ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِى إِلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِى أَجَلِى دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِى نَفْسِى ، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِى رَأْيِى كَمَا نُقِصْتُ فِى جِسْمِى ، أَوْ يَسْبِقَنِى إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِىَ فِيهَا مِنْ شَىْءٍ قَبِلَتْهُ ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

* * *

الشّرحُ :

هذه الوصيّة كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين ، وروى أنه ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستّين والسبعين ، فقال : « معترك المنايا » .

قوله عليه السلام : « أو أن أنقص فى رأيى » هذا يدلّ على بطلان قول من قال : إنّه لا يجوز أن ينقص فى رأيه ، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك ، وكذلك قوله

للمحسن : « أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا » يدلّ على أنّ الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ؛ ولا عن فتن الدنيا .

قوله : « فتكون كالصّعب النّفور » ؛ أي كالبعير الصعب الذي لا يُمكِن راكبا ، وهو مع ذلك نفور عن الأنس .

ثم ذكر أنّ التعلم إنما هو فى الصِّبَا ، وفى المثل : « الغـلام كالطّين يقبـل الختم ما دام رطبا » .

وقال الشاعر :

اختمْ وطينُكَ رَطْبٌ إنْ قدرتَ فكَمْ قـد أَمكنَ الختمُ أقواماً فما ختَمُوا

ومثّل هو عليه السلام قلْب الحدَث بالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ، وكان يقال : التعلّم[1] فى الصغر كالنقش فى الحجر ، والتعلم[1] فى الكبر كالخطّ على الماء .

قوله : « فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه » أى الّذى كنّا نحن نتجشم المشقة فى اكتسابه ، ونتكلّف طلبه ؛ يأتيك أنت الآن صَفواً عفواً .

* * *

الأصْلُ :

أَىْ بُنَىَّ ، إِنِّى وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِى ، فَقَدْ نَظَرْتُ فِى أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِى أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِى آثَارِهِمْ ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ ؛ بَلْ كَأَنِّى بِمَا انْتَهَى إِلَىَّ مِنْ أُمُورِهِمْ ؛ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ[2] أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ؛ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ؛ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ

---

(١) د : « العلم » . (٢) د « من » .

جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ[1] الْهَلَكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ .

* * *

الشَّرْح :

هــذا الفصل وما بعده يشعر بالنهى عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه ، ألا تراه قال له : كنت عازما على أن أعلّمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة ، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم خفت أنْ تدخل عليك شبهة فى أصول الدين فيلتبس عليك فى عقيدتك الأصلية ما التبس على غيرك من الناس ، فعدلتُ عن العزم الأوّل إلى أن أوصيّك بوصايا تتعلّق بأصول الدين .

ومعنى قوله عليه السلام : « وكان[2] إحكام ذلك » إلى قوله : « لا آمن عليك به الهلكة »، أى فكان إحكامى الأمورَ الأصليّة عندك وتقرير الوصية التى أوصيك بها فى ذهنك فيما رجع إلى النظر فى العلوم[3] الإلهية ؛ وإن كنت كارها للخوض [معك][4]

(١) د « فيه من » . (٢) ا : « فكان» .
(٣) د « الأمور » . (٤) من ا .

فيه وتنبيهك عليه أحبّ إلىّ من أن أتركك سدًى مهملا ، تتلاعب بك الشُّبَه ، وتعتورك الشكوك فى أصول دينك ، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلَكة .

فإن قلتَ : فلماذا كان كارها تنبيه ولده على ذلك ، وأنتم تقولون إنّ معرفة الله واجبة على المكلّفين ؛ وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى !

قلت : لعلّه علم إمّا من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفا لولده ومعرفته ، بما يكون مفسدة له ، لكثرة التجربة له ، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أنّ الأصلح له ألّا يخوض فى علم الكلام الخوض الكلّىّ وأن يقتنع بالمبادئ والجمل ، فمصالح البشر تختلف ؛ فربّ إنسانٍ مصلحته فى أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره ، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلّا الأمور المجملة ، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة ، فلا تجب إلّا عند ورود الشبهة ، فإذا لم تقع الشبهة فى نفس المكلّف لم يجب عليه الخوض فى التفصيلات .

قوله عليه السلام : « قد عَمِرتُ مع أولهم إلى آخرهم » العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة ، تقول : عمر الرجل يعمر عَمراً وعُمرا على غير قياس ؛ لأن قياس مصدره التحريك أى عاش زمانا طويلا ، واستعمل فى القسم أحدهما فقط ، وهو المفتوح .

قوله عليه السلام : « حيث عنانى من أمرك » أى أهمنى ، قال :

﴿ عَنَانِى مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَا ﴾

قوله : « وأجمت عليه » أى عَزَمت .

ومقتبل الدهر ، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتبَل بالفتح وهو من الشواذّ ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصَن ، وإذا عفّ فحصَن أيضا ، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهَب ، وألفج إذا افتقر فهو ملفَج ؛ وينبغى أن يكون له من قوله : « تنبيهك له » بمعنى

« عليه » ، أو تسكون على أصلها ، أى ما كرهت تنبيهك لأجله .

فإن قلت : إلى الآن ما فسّرتَ ، لما ذا كره تنبيهه على هذا الفنّ ؟

قلت : بلى قد أشرت إليه ؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض فى الأمور الأصولية فنبّهه على أمور يجرّه النظر وتأمّل الأدلة والشُّبهات إليها دقيقة يُخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته ، إلا أنه لم يجد به بدًّا من تنبيهه على أصول الديانة ، وإن كان كارها لتعريضه لخطر الشبهة ، فنبّهه على أمور جلية غير مفصلة ، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه ، وسيأتى ذكر ذلك .

***

الأصلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ ما أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَىَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصارُ على ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأَخْذُ بِما مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ ، والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فإنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأنْفُسِهِمْ كَما أَنْتَ ناظِرٌ ، وفَكَّرُوا كَما أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِما عَرَفُوا ، والإمْساكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فإنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَما عَلِمُوا ؛ فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهاتِ ، وعُلَقِ الخُصُوماتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعانَةِ بِإِلٰهِكَ ، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فى تَوْفِيقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فاجْتَمَعَ ، وكانَ هَمُّكَ فى ذَلِكَ هَمًّا واحِداً ، فانْظُرْ فِيما فَسَّرْتُ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وفَراغِ نَظَرِكَ وفِكْرِكَ ،

فاعْلَمْ أنكَ إنَّما تَخْبِطُ الْعَشْوَاء ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْماء ، وَلَيْسَ طالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالإِمْساكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ .

* * *

الشرح

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض ، وأن يأخذ بسنّة السّلف الصّالح من آبائه وأهل بيته ؛ فإنّهم لم يقتصروا على التقليد ؛ بل نظروا لأنفسهم ، وتأمّلوا الأدلة ، ثمّ رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلّفوا .

فإن قلتَ : مَنْ سَلَفه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت : المهاجرون الأوّلون من بنى هاشم وبنى المطّلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة ابن الحارث ، وكأبى طالب فى قول الشّيعة وكثير من أصحابنا ، وكعبد المطّلب فى قول الشيعة خاصّة .

فإن قلت : فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودا من جملة هؤلاء !

قلت : لا ، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجمل المقتصر بهم فى تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة ، بل كان سيّد أهل النظر كافّة وإمامهم .

فإن قلت : ما معنى قوله : لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت : لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر فى الخلاص منها ؛ وهذا هو الوجه فى وجوب النظر فى طريق معرفة الله ، والخوف من إهمال النظر .

فإن قلت : ما معنى قوله : « إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلّفوا » ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلة[1] حدوث الأجسام وتوحيد البارئ وعدله، والإمساك عمّا لم يكلّفوا، مثل النّظر فى إثبات الجزء الّذى لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام فى الخلا والملا؛ والكلام فى أنّ هل بين كلّ حركتين مستقيمتين سكون أم لا؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقّف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لايلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا فى ذلك؛ لأنهم لم يكلّفوا الخوض فيه؛ وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله عليه السلام: « فإن أبتْ نفسُك أن تقبلَ ذلك دون أن تعلم كما علموا »، هذا الموضع فيه نظر؛ لأنا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها؟ ويقول: « أن تعلم كما علموا » وينبغى أن يقال إنّ الكاف وما عملت فيه فى موضع نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف؛ وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علما كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة؛ وجاز انتصاب «علما» والعامل فيه « تقبل» لأنّ القبول من جنس العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد؛ وليس لقائل أن يقول: فإذن يكون قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيرا، قال الشاعر:

جَزَى اللهُ كَفًّا مِلْئُها من سعادةٍ سَرَتْ فى هلاكِ المالِ والمالُ نائمُ

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم؛ فإنّهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتبه علمه على النّاس فى الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أنّ الّذى يدعو إلى تكلّف هذه التأويلات أنّ ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبى صلى الله عليه وآله والأخذ بما فى القرآن وترك النظر العقلىّ؛ هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل

---

(١) ا: « الأدلة » تحريف.

بيتك وسلفك ؛ فإنّهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات ، وتركوا العقليات ؛ لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه ؛ ولا هو من تكليفهم .

ثم قال له : فإن كرهت التقليد المحض ، وأحببت أن تسلك مسلكهم فى النّظر ، وإن أفضى بك الأمر بآخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وما ورد به الكتاب والسنّة ، فينبغى أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة ، وتكون طالبا للحقّ ، غير قاصد إلى الجدل والمراء ؛ فلمّا وجدنا ظاهر اللفظ يقتضى هذه المعانى ، ولم يجز عندنا أنْ يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده[1] مع حكمته وأهلية ولده بالتّقليد وترك النظر ، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأمر به .

* * *

واعلم أنّه قد أوصاه إذا همّ بالشروع فى النظر بمحض ما ذكره المتكلمون ، وذلك أمور :

منها أن يرغب إلى الله فى توفيقه وتسديده .

ومنها أنْ يطلب المطلوب النظرى بتفهّم وتعلّم ؛ لا بجدال ومغالبة ومِراء ومخاصمة .

ومنها اطّراح العصبية لمذهب بعينه ، والتورّط فى الشبهات التى يحاول بها نصرة ذلك المذهب .

ومنها ترك الإلْف والعادة ، ونصرة أمر يطلب به الرياسة ؛ وهو المعنىّ بالشوائب التى تولج فى الضلال .

ومنها أنْ يكون صافى القلب ، مجتمعَ الفكر ، غيرَ مشغول السرّ بأمرٍ من جوع

---

(١) ساقطة من ا

[أو شِبع](١) أو شبَق أو غضب ؛ ولا يكون ذا هموم كثيرة ، وأفكار موزّعة مقسّمة ؛ بل يكون فكره وهمّه همّا واحداً .

قال : فإذا اجتمع لك كلّ ذلك فانظر ، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالنّاقة العشواء الخابطة لا تهتدى ، وكمَن يتورّط فى الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه ! وليس طالب الدين مَنْ كان خابطا أو خالطا ، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل .

* * *

الأصْـلُ :

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِى ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِىَ هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِىَ هُوَ الْمُعَافِى ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِى الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَىْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

* * *

الشّـرْحُ :

قد تعلّق بهذه اللفظة وهو قوله : « أو ماشاء ممّا لا تعلم » ، قوم من التناسخيّة ؛ وقالوا: المعنىّ بها الجزاء فى الهياكل التى تنتقل النفوس إليها . وليس ماقالوه بظاهر ، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازى المذنب فى الدّنيا بنوع من العقوبة ، كالأسقام والفقر وغيرهما، والعقاب وإن كان [مفعولا](٢) على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو البارى

(١) من « د » . (٢) من د .

أن يقتصر منه على الإيلام فقط ، لأنّ الجميع حقّه ، فله أن يستوفى البعض ويسقط البعض ، وقد روى « أو بما شاء » بالباء الزائدة ، « ورويما لا يعلم » . وأما[1] الثواب فلا يجوزأن يجازى به المحسن فى الدّنيا ، لأنه على صفة لا يمكن أن تجامع[2] التكليف ، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة .

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى ، فقال : وإن أشكل عليك شىء من أمر القضاء والقدَر ، وهو كون الكافر مخصوصا بالنعماء والمؤمن مخصوصا بضرب من الابتلاء ، وكون الجزاء قد يكون فى المعاد ، وقد يكون فى غير المعاد ، فلا تقدحنّ جهالتك به فى سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته ، وهو أنّ الله تعالى هو المحيي المميت ، المفنى المعيد ، المبتلى المعافى ، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام ، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بعلمها ، وأنه يجازى عباده إما فى الآخرة أوغير الآخرة ، على حسب ما يريده ويختاره .

ثم قال له : إنّما خلقت فى مبدأ خلقتك جاهلا ، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها ، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة ، ومتاعب شديد ، فمَنْ خلق جاهلا حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحابا للأصل .

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه ، فقال له : وعساك إذا جهلت شيئا من ذلك أن تعلمه فيما بعد ، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحيّر فيه ، ثم تبصره وتعرفه ! وهذا من الطبّ[3] اللطيف ، والرُّقَى الناجعة ، والسِّحْر الحلال .

* * *

(١) ا : « فأما » . (٢) ب : « يجتمع » ، وما أثبته من ا .

(٣) الطب : المعالجة .

الأصْـلُ :

فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّنا صلى اللهُ عليهِ وسلّم؛ فَارْضَ بِهِ رَائِدًا ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ، وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

عاد إلى أمره باتّباع الرسول صلى الله عليه وآله ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب ، وقال له : إنّ أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله ؛ وصدق عليه السلام ! فإنّ التوراة والإنجيل وغيرها من كتب أنبياء بنى إسرائيل لم تتضمّن من الأمور الإلهية ماتضمنه القرآن ، وخصوصا فى أمر المعاد؛ فإنه فى أحد الكتابين مسكوت عنه ، وفى الآخر مذكور ذكرا مضطربا ، والذى كشف هذا القناع فى هذا المعنى ، وصرّح بالأمر هو القرآن . ثم ذكر له أنه أنصحُ له من كلّ أحد ؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد فى النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له ، لشدة حبّه لهوإيثاره مصلحته . وقوله : «لم آلك نصحا » لم أقصّر فى نصحك، ألى الرجل فى كذايألو، أى قصّر فهو آلٍ والفعل لازم ، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه ، وكان أصله : لا آلو لك نصحا ونصحا ، منصوب على التمييز ، وليس كما قاله الراوندى إنّ انتصابه على أنه مفعول ثان ، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدّى ، فكيف إلى اثنين !

ويقول هذه امرأة آليَة أى مقصّرة وجمعها أوالٍ ، وفى المثل : « إلّا حظيّة فلا أليّة » ، أصله فى المرأة تصلف عنـــد بعلها ، فتوصى حيث فاتها الحظوة ألّا تألوه فى التودّد إليه والتحبّب إلى قلبه .

قوله : « ومنه شفقتك » ، أى خوفك .

ورائد : أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم المرعى .

***

الأصـل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ ، أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ ، عَظُمَ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ .

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ .

***

الشـرح :

يمكن أن يستدلّ بهذا الكلام على نفى الثانى من وجهين :

أحدها أنّه لو كان فى الوجود ثانٍ للبارئ تعالى لما كان القول بالوحدانيّة حقًّا ، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية ، ومحال ألا يكون ذلك الثانى حكيما ، ولو كان الحقّ هو

إثبات ثانٍ حكيم لوجب أن يبعث رسولا يدعو المكلّفين إلى التثنية ، لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ ، فيجب على الثانى الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثانى ، وإلا كان منسوبا فى إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلّفين ، وذلك لا يجوز ؛ ولكنا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ فى الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً ، وإذا لم يكن ضلالا كان حقا ؛ فنقيضه وهو القول بإثبات الثانى باطل .

الوجه الثانى : أنه لو كان فى الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته ، إمّا من مجرد أفعاله ، أو من صفات أفعاله ، أو من صفات نفسه ، أولا من هذا ولا من هذا ، فمن التوقيف .

وهذه هى الأقسام التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّ قوله : «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله : « ولرأيت آثار ملكه وسلطانه » ، هى صفات أفعاله ، وقوله : « ولعرفت أفعاله وصفاته » هما القسمان الآخران .

أما إثبات الثانى من مجرّد الفعل فباطل ؛ لأن الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات أفعاله وهى كون أفعاله محكمة متقنة ، فإن الإحكام الذى نشاهده إنّما يدل على عالم ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات ذات البارئ فالعلم بها فرع على العلم بذاته ، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور .

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثانى ؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها ، وقد ثبت أن مالا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثانى .

ثم قال : « لا يضادّه فى مُلكه أحد » ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلّمون من نفى ذات هى معاكسة لذات البارئ تعالى فى صفاتها ، كمضادّة السواد للبياض ، بل مراده نفى الثانى لا غير ، فإنّ نفى الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام .

ثم ذكر له أنّ البارئ تعالى قديم سابق للأشياء ، لا سبقاً له حدّ محدود ، وأول معيّن ، بل لا أوّل له مطلقا .

ثم قال : وهو مع هذا آخر الأشياء ، آخرية مطلقة ليس تنتهي إلى غاية معينة .

ثم ذكر أنّ له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول .

وقد سبق منّا خوض فى هذا المعنى ، وذكرنا من نظمنا فى هذا النّمط أشياء لطيفة ، ونحن نذكر ها هنا من نظمنا أيضا فى هذا المعنى ، وفى فنّنا الّذى اشتهرنا به ، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك ، فمن ذاك قولى :

فَلا واللهِ ما وَصَلَ ابنُ سينا ... ولا أغنَى ذكاهُ أبي الحُسَيْنِ
ولا رَجَعا بشيء بعد بحثٍ ... وتدقيقٍ سوَى خُفَّيْ حُنَيْنِ
لقدْ طوّفتُ أطلبكمْ ولكنْ ... يحولُ الوقت بينكمُ وبيني
فهل بعد انقضاء الوقت أحظَى ... بوصلكمُ غداً وتقرّ عيني !
مُنًى عشناً بها زمناً وكانتْ ... تسوّفنا بصدقٍ أو بمَيْنِ
فإنْ أكْدَتْ فذاكَ ضياعُ دِيني ... وإن أجْدَتْ فذاكَ حلولُ دَيْني (١)

ومنها :

أمولايَ قدْ أحرقتَ قلبي فلا تكنْ ... غداً محرقاً بالنّار مَنْ كانَ يهواكا
أتجمع لى نارينِ : نارَ محبّةٍ ... ونارَ عذابٍ أنتَ أرحم من ذاكا !

ومنها :

قوم موسى تاهوا سنينَ كما قدْ ... جاء فى النصّ قدرها أربعونا (٢)
ولِيَ اليومَ تائهاً فى جَوَى من ... لا أسمّى وحُبّه خمسونا
قل لأحبابنا إلامَ تَرُومُ الْـ ... وَصْلَ منكمْ وأنتمُ تمنعونا

---

(١) ا : « أجدب » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » (الأعراف : ١٤٢)

كم نناجيكمُ فلا ترشدُونا ونناديكمُ فلا تسمعونا !
حسبنا علمكم بأنّا مواليـكمْ وإن كنتمُ لنا كارهينا
فعسى تدركُ السعادة أرباب الـ معاصي فيصبحوا فائزينا !

ومنها :

والله ما آسَى من الدُّنيا عَلَى مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانِ
بل فى صميم القلب منّى حسرة تبقَى معي وتُلَفّ فى أكفانى
إنّى أراكَ بباطنِي لا ظاهرِي فالحسنُ مَشغَلَةٌ عَنِ العرفانِ
يا مَنْ سهرتَ مفكّرا فى أمره خمسينَ حولًا دائمَ الجوَلانِ
فوجدت أحمقَ من نعامة بَيْهسٍ وأضلَّ سعيا من أبي غُبْشان

ومنها :

وحقّك إن أدخلتنى النّار قلتُ للـ ـذين بها قد كنت ممن أحبّهُ
وأفنيت عمرِى فى علومٍ دقيقة وما بغيتى إلا رضاه وقربُه
هبونى مسيئا أُوتَغَ الحلم جهله وأوبقه بين البريّة ذنبُه[1]
أما يقتضى شرع التكرّم عتقَه أيحسن أن يُنسى هواه وحبّهُ !
أما كان ينوى الحقّ فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبُهُ !
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكّه وإلحاده إذ جلّ فى الدين خطبُهُ !
أما قلتمُ مَنْ كان فينا مجاهدا سيُكرم مثواهُ ويُعذب شربُهُ !
ونهديه سُبْلا من هدانا جهاده ويدخلهُ خيرَ المداخل كسبُهُ
فأىّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً وقدأحرقت زرقَ الشياطين شهبُهُ !
وما نال قلبُ الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبُهُ

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى د : « أرتع » .

فإن تصفحوا يغنم وإن تتجرّموا فتعذيبكم حُلْوُ المذاقةِ عَذْبُهُ
وآية صدق الصبِّ أن يعذُبَ الأذى إذ كان مَنْ يهوَى عليه يَصُبُّهُ

ومنها :

إذا فكرت فيك يحارُ عقلى وألحق بالمجانين الكبارِ
وأصحو تارةً فيشوب ذهنى ويقدح خاطرى كَشُواظِ نارِ
فيا مَنْ تاهت العقلاء فيهِ فأمسوْا كلّهم صَرْعَى عُقارِ
ويامَنْ كاعت الأفكار عنهُ فآبت بالمتاعب والخسارِ
ويامَنْ ليس يعلمه نبيٌّ ولا مَلَكٌ ولا يدريه دارِ
ويا مَنْ ليس قُدّاماً وخَلْفاً ولا جهةَ اليمينِ ولا اليسارِ
ولا فوقَ السماء ولا تدلَّى من الأرضينَ فى لُجَجِ البحارِ
ويامَنْ أمره من ذاك أجلَى من ابنِ ذُكاء أو صبح النهارِ
سألتك باسمك المكتوم إلّا فككتَ النفسَ من رقِّ الإسارِ
وجُدْت لها بما تهوى فأنت العليمُ بباطنِ اللُغَزِ الضمارِ

ومنها :

يارب إنك عالمٌ بتحبّبى لك واجتهادى
وتجرُّدى للذبّ عنك على مُراغمة الأعادى
بالعدل والتوحيد أصدع معلناً فى كلّ نادى
وكشفتُ زيغَ ابن الخطيب ولبسه بين العبادِ
ونقضت سائرَ مابناه من الضلالة والفسادِ

وأبنت عن إغوائه في دين أحمد ذي الرشاد
وجعلت أوجه ناصريه محممات بالسواد
وكففت من غلوائهم بعد التمرد والعناد
فكأنما نحل الرما د عليهم بعد الرماد
وقصدت وجهك أبتغى حسن المثوبة في المعاد
فأفض على العبد الفقـ ـير إليكم نور السداد
وارزقه قبل الموت معـ ـرفة المصائر والمبادى
وافكك أسير الحرص بالـ أضداد من أسر الضداد
واغسل بصفو القرب من أبوابكم كدر البعاد
وأعضه من حر الغليـ ـل بوصلكم برد الفؤاد
وارحم عيونا فيك ها مية وقلبا فيك صاد
يا ساطح الأرض المها د وممسك السبع الشداد

***

الأصل :

يا بني ، إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها ، وزوالها وانتقالها ، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد لأهلها ، وضربت لك فيهما الأمثال ، لتعتبر بها ، وتحذو عليها . إنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر ، نبا بهم منزل جديب ، فأموا منزلا خصيبا ، وجنابا مريعا ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ؛ ليأتوا سعة دارهم ، ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألما ، ولا يرون نفقة فيه مغرما . ولا شيء أحب إليهم مما قربهم من منزلهم

وأَدْنَاهُمْ إِلَى مَحَلَّتِهِمْ .

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ ؛ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

حذا عليه يحذو ، واحتذى مثاله ، يحتذى ، أى اقتدى به . وقوم سَفْر ، بالتسكين ، أى مسافرون .

وأمُّوا : قصدوا . والمنزل الجديب : ضدّ المنزل الخصيب .

والجناب المَريع بفتح الميم : ذو الكلأ والعشب ، وقد مَرُع الوادى ، بالضمّ .

والجناب : الفناء . ووعْثاء الطريق : مشقّتها .

وجُشوبة المطعَم : غِلَظه ، طعام جَشِيب ومَجْشوب ، ويقال إنّه الذى لا أُدْمَ (١) معه .

يقول : مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة، كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب ، فلقى فى طريقه مشقّة ؛ فإنه لا يكترث بذلك فى جنب ما يطلب ؛ وبالعكس مَن عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة ، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضَنْك ويهجر منزلا رحيبا طيبا ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجْن المؤمن وجنة الكافر » .

* * *

(١) الأدم : ما يؤتدم به .

الأصل :

يا بُنَيَّ ، اجْعَلْ نَفْسَكَ ميزاناً فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، واكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَهَا ، ولا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِما تَرْضاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، ولا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ وإِنْ قَلَّ ما تَعْلَمُ ، ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أَنْ يُقالَ لَكَ .

واعْلَمْ أَنَّ الإِعْجابَ ضِدُّ الصَّوابِ ، وآفَةُ الأَلْبابِ ؛ فاسْعَ في كَدْحِكَ ، ولا تَكُنْ خازِناً لِغَيْرِكَ ، وإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ ، فَكُنْ أَخْشَعَ ما تَكُونُ لِرَبِّكَ .



الشرح :

جاء في الحديث المرفوع : « لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » . وقال بعض الأسارى لبعض الملوك : افعل معى ما تحبّ أن يفعل الله معك ؛ فأطلقه ؛ وهـذا هو معنى قوله عليه السلام : « ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم » .

وقوله : « وأحسن » من قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١) .

وقوله : « واستقبح من نفسك » ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقال : أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك . وروى : « وارض من الناس لك » وهى أحسن .

وأما العُجْب وما ورد فى ذمه فقد قدمنا فيه قولا مقنعا .

---

(١) سورة القصص ٧٧ .

قوله عليه السلام : « واسْعَ فى كدحك » أى أذهب ما اكتسبت بالإنفاق ؛ والكدح هاهنا : هو المال الّذى كدح فى حصوله ، والسعى فيه إنفاقه ؛ ، وهذه كلمة فصيحة، وقد تقدّم نظائر قوله : « ولا تكن خازنا لغيرك » .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هَدَاه لرشده ، وذلك لأنّ هدايته إياه إلى رشده نعمة عظيمة منه ، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

***

الأَصْـلُ :

وَاعْلَمْ أنَّ أمامَكَ طَرِيقاً ذا مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بكَ فِيه عَنْ حُسْنِ الارْتِيادِ ، وقَدْرِ بلاغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهرِ ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبالًا عَلَيْكَ ، وإذا وجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ إِيَّاهُ ، وأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فلا تَجِدُهُ .

واغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فى حالِ غِناكَ ، لِيَجْعَلَ قَضاءَهُ لَكَ فى يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

واعْلَمْ أنَّ أمامَكَ عَقَبَةً كَئُودًا ، الْمُخِفُّ فيها أحْسَنُ حالًا مِنَ الْمُثْقِلِ ، والْمُبطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ أمْرًا مِنَ الْمُسْرِعِ ، وأنَّ مَهْبِطَهَا بِكَ لَا مَحالَةَ ؛ إمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نارٍ ، فارْتَدْ لِنفسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، ولَا إِلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ .

***

الشرح :

أمره فى هـــذا الفصل بإنفـاق المال والصَّـــدَقة والمعروف . فقال : إنّ بين يديك طريقا بعيد المسافة ، شديد المشقّة ، ومَنْ سلك طريقا فلا غنًى له عن أن يرتادلنفسه، ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلّغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر فى سفره ذلك ؛ فإياك أن تحمـــل من المال ما يثقِلُك ؛ ويكون وبالًا عليك ؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثّقل عنك فيوافيك به غدًا وقت الحاجة فحمّله إياه ، فلعلك تطلب مالك فلا تجده . جاء فى الحديث المرفوع : « خَمْسٌ مَنْ أتى اللهَ بهنّ أو بواحدة منهنّ أوجب له الجنّة: مَنْ سقى هامةً صادِية ، أو أطعم كبداً هافية ، أو كسا جلدة عارية ، أو حمل قدما حافية ، أو أعتق رقبة عانية » .

قيل لحاتم الأصمّ : لو قرأتَ لنا شيئا من القرآن ! قال : نعم ؛ فاندفع فقرأ : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يكنزون(١) ، فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أُنْزِلَ ! قال: صدقتم؛ ولـكن هكذا أنتم !

* * *

الأصل:

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى بِيَـــدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِى الدُّعَاءِ ، وَتَـكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَـــكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ،

---

(١) سورة البقرة ١ ــ ٣ ، والقراءة : « ومما رزقناهم ينفقون » .

وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا . وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ . فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ .

***

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ؛ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُعْطَاهُ ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدم القولُ فى الدُّعاء .

قوله : « بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة » ، هذا متَّفق عليه بين أصحابنا ، وهو أنّ تارك القبيح لأنّه قبيح يستحقّ الثواب .

قوله : « حسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشرا » ؛ هـــذا إشارة إلى قوله تعـالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾(١) .

قوله : « وأبثثته ذات نفسك »، أى حاجتك .

ثم ذكر له وجوها فى سبب إبطاء الإجابة :

منها أنّ ذلك أمر عائد إلى النيّة ، فلعلّها لم تـكن خالصة .

ومنها أنه ربما أخرت ليـكون أعظم لأجر السائل ؛ لأنّ الثواب على قدر المشقة .

ومنها أنّـه ربمـا أخّرت ليعطى السائل خيراً مما سأل ، إمّا عاجلا أو آجلا ؛ أو فى الحالين .

ومنها أنه ربّما صرف ذلك عن السائل ، لأنّ فى إعطائه إيّاه مفسدة فى الدين .

قوله : « فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له » ، لفظ شريف فصيح ، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة ؛ وقال أبو الطيب :

أَيْنَ الجبـابِرَةُ الأَكاسِرَةُ الأُلَى ... كَنَزُوا الكُنوزَ فما بَقِينَ وَلَا بَقُوا(٢)

وروى : « من يحجبه عنك » .

وروى : « حيث الفضيحة » أى حيث الفضيحة موجودة منك .

* * *

واعلم أنّ فى قوله : « قد أذن لك فى الدعاء ، وتـكفّل لك بالإجابة » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(٣) .

وفى قوله : « وأمر أن تسأله ليعطيك » إشارة إلى قوله : ﴿ واسْأَلُوا اللّهَ مِنْ فضله ﴾(٤) .

---

(١) سورة الأنعام ١٦٠ .
(٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ .
(٣) سورة غافر ٦٠ .
(٤) سورة النساء ٣٢ .

وفى قوله : « وتسترحمه ليرحمك » إشارة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١) .

وفى قوله : « ولم يمنعك إن أسأت من التوبة » إشارة إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(٢) .

* * *

الأصـل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ؛ وَأَنَّكَ فِى مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِى لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِى بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ .

* * *

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا ، وَنَعَتَتْ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا .

---

(١) سورة الأنفال ٣٣ . (٢) سورة الفرقان ٧٠ .

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا .

سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ !

***

الشَّرْح :

يقول : هذا منزل قُلْعة ؛ بضم القاف وسكون اللام ؛ أى ليس بمستوطَن ؛ ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . ويقال أيضا : هم على قُلْعة ، أى على رِحْلة ، والقُلْعة أيضا : هو المال العارية ، وفى الحديث : « بئس المال القُلْعة » ؛ وكلّه يرجع إلى معنًى واحد .

قوله : « ودار بلْغة » ، والبلغة : ما يتبلّغ به من العيش .

قوله : « سروح عاهة » ، والسُّروح : جمع سَرْح ؛ وهو المال السارح . والعاهة : الآفة ؛ أعاه القومُ أصابت ماشيتَهم العاهة .

وواد وَعْث : لا يثبت الحافرُ والخفّ فيه ؛ بل يغيب فيه ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه .

وأوعث القوم : وقعوا فى الوعْث .

ومسِيم يُسيمها : راعٍ يرعاها .

قوله : « رويدا يسفر الظلام . . . » إلى آخر الفصل ، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده

استعداد . واستقرأنى أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حدَث هذه الوصيّة فقرأتها عليه من حِفظى ، فلمّا وصلتُ إلى هـذا الموضع صاح صيحة شديدة ، وسقط ـ وكان جبّاراً قاسىَ القلب .

* * *

[أقوال حكيمة فى وصف الدنيا وفناء الخلق]

واعلم أنّا قدّمنا فى وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء ، ونذكر الآن أشياء أُخر .

فمن كلام الحسن البصرىّ : يابنَ آدم ، إنّمـا أنت أيام مجموعـة ، فإذا مضى يوم مضى بعضك .

عن بعض الحكماء : رحم الله أمرأً لا يغرّه ما يرَى من كثرة الناس، فإنه يموت وحده، ويقبَر وحده ، ويحاسَب وحده .

وقال بعضهم : لا وجهَ لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشىء من متاعها ، ولا التخلّى منها ، أمّا ترك الاهتمام لها، فمن جهة أنّه لاسبيل إلى دفع الكائن من مقدورها ؛ وأمّا ترك الاعتداد بها ؛ فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها ، وأمّا ترك التخلّى عنها فإنّ الآخرة لا تدرَك إلّا بها .

ومن كلام بعض الحكماء : أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدنيا ؛ وقد تقدّمت الحجة وأذِنّا بالرحيل ، ولنا من الدنيا على الدّنيا دليل ؛ وإنّما أحدنا فى مدّة بقائه صريع لمرض ، أو مكتئب بهمّ ، أو مطروق بمصيبـة ، أو مترقّب لخوف ، لا يأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه ، ولا يأمن مملوكه

وجاريته أن يقتلاه بحديد أو سمّ ؛ وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال ، وسمعه من صَمَم ، وبصره من عمًى ، ولسانه من خَرَس ، وسائر جوارحه من زَمانة ، ونفسه من تَلَف ، وماله من بوارٍ ، وحبيبه من فراق ؛ وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعيّة أنه فقير إلى ربّه ، ذليل فى قبضته ، محتاج إليه . لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه ، وعمر آخرته بتخريب دنياه ؛ وإذا اعترضته بحار المكاره ، جعل معابرها الصبر والتأسّى ، ولم يغترّ بتتابع النّعم ، وإبطاء حلول النقم ، وأدام صحبة التقى ؛ وفطَم النفس عن الهوى ؛ فإنما حياته كبضاعة ينفق من رأس المال منها ؛ ولا يمكنه أن يزيد فيها ؛ ومثْل ذلك يوشِك فناؤه وسرعة زواله .

وقال أبو العتاهية فى ذكْرِ الموت :

ستُباشر التُّرباء خـــدّكْ ... وسيضحكُ الباكون بعدكْ[1]
ولينزلنّ بك البِــلى ... وليخلفنّ الموتُ عهدكْ
وليفنينّك مثـل ما[2] ... أفنى أباك بِلًى وجـدّكْ[3]
لو قــد رحلتَ عن القصو ... رِوطيبِها وسكَنْتَ لحدكْ[4]
لم تنتفــع إلّا بفعــ ... ـلٍ صالحٍ قد كان عنـدكْ

---

(١) ديوانه ٨٦ ، ٨٧ ، والترباء : التراب ، ورواية الديوان :

* لَتباشرُ الأجداثُ وَحْدَكْ *

(٢) الديوان : « بالذى » .

(٣) الديوان : « به وجدّك » .

(٤) الديوان :

لوْ قدْ ظَعَنْتَ عن البيـو ... تِ ودَوْحِها وسكَنْتَ لَحْدَكْ

وترى الذين قسمت ما ... لك بينهم حصصا وكدك[1]
يتلذذون بما جمعـ ... ـت لهم ولا يجدون فقدك

* * *

الأصـلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً .

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ .

فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ .

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً . وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً . وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ[2] إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ . وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ .

---

(١) الديوان :

وكأنّ جمعك قد غدا ... ما بينهم حصصاً وكدّكْ

(٢) د : « لا يوجد » .

الشَّرْحُ :

مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء ـ وقد نسب أيضا إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أهل الدنيا كركبٍ يُسار بهم وهم نيام .

قوله : « تخفضنّ فى الطلب » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ روح القدس نفث فى رُوعى أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فأجملوا فى الطلب » .

وقال الشاعر :

ما اعتاضَ باذلُ وجهِهِ بسؤاله عِوَضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال إلى السؤال قَرنْتَه[1] رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ

وقال آخر :

رددتُ رونق وجهى عن صحيفتِهِ ردَّ الصِّقال بهاءَ الصّارِمِ الخذِمِ[2]
وما أبالى وخيرُ القول أصدقه حقنت لى ماء وجهى أم حَقَنْتَ دمى

وقال آخر :

وإنى لأختار الزهيد على الغِنَى وأجزأ بالمال القَراح عن المحضِ
وأدّرِع الإملاق صبرا وقد أرى مكان الغِنَى كى لا أُهينَ له عِرْضى

وقال أبو محمد اليزيدى فى المأمون :

أبْقَى لنا الله الإمامَ وزادَهُ شَرَفاً إلى الشَّرَفِ الذى أعطاهُ
والله أكرمَنا بأنّا معشر عُتقاء من نِعَم العباد سِوَاهُ

وقال آخر :

كيفَ النهوضُ بما أوْلَيْتَ من حَسَنٍ أم كيف أشكر ما طوقْتَ من نِعَمٍ !

---

(١) د : « وزنته » . (٢) الخذم : القاطع .

ملكتني ماء وجهٍ كاد يسكبه ... ذلّ السؤال ولم تنجع به هِممي

وقال آخر :

لا تحرِصنّ على الحطام فإنّما ... يأتيك رزقُك حين يؤذَنُ فيه
سَبَقَ القضاءُ بقدره وزمانه ... وبأنّه يأتيك أو يأتيهِ

وكان يقال : ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه .

وقال رجل فى مجلس فيه قوم من أهل العلم : لا أدرِى ما يحمل من يوقن بالقدر على الحرص على طلب الرزق ! فقال له أحد الحاضرين : يحمله القَدَر ، فسكت .

أقول : لو كنت حاضرا لقلت : لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص ، ولما مدحوه على العفّة والقناعة فإن عاد وقال : وأولئك ألجأهم القدر إلى المدح والذّم والأمر والنهى ؛ فقد جعل نفسه وغيره من الناس ؛ بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التى يحرّكها غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم

وقال الشاعر :

أراكَ تزيدكَ الأيام حِرصاً ... على الدّنيا كأنّكَ لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلتَ حسبي قد رضيتُ !

أبو العتاهية :

أىّ عيش يكون أطيبَ من عيّـ ... ـش كفافٍ قوت بقدر البلاغ(١)
قرّنتنيَ الأيام عقلى ومالى ... وشبابى وصحّتي وفراغى(٢)

وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه :

---

(١) ديوانه ١٦٤ ، والأغانى ٤ : ٤٠ والبلاغ : الكفاية .

(٢) الديوان والأغانى : « غبنتنى الأيام » .

كُنْ حَسَنَ الظنِّ بِرَبٍّ خَلَقَكْ ... بِيَ واحمــدْهُ على ما رَزَقَـكْ
واعلم بأنّ الحرص يطفي رونقكْ ... فجانب الحرْص وحَسِّن خلقكْ
واصدق وصادق أبدا مَنْ صدقكْ ... دارِ مُعاديك ومُقْ من وَمَقَكْ
واجعـل لأعدائك حزماً مَلقكْ ... وجنّبَنْ حَشْوَ الكلام منطقكْ
هذى وَصاة والد قد عَشقكَ ... وصاة مَنْ يقلقه ما أقلقَكْ

* أرشدكَ الله لها ووفّقك *

أبو العتاهية :

أجَلُ الفتى مِمّا يؤمّل أسرعُ ... وأراك تجمعُ دائماً لا تشبعُ[1]
قل لى لمن أصبحتَ تجمع دائباً[2] ... ألِبَعْل عِرْسِك لا أبا لكَ تجمعُ !

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته ، فقال : لا تدنّسنّ عرضك ، ولا تبذلنّ وجهك ، ولا تخلقن جدّتك بالطلب إلى مَنْ إن ردك كان ردّه عليك عيبا ، وإن قضى حاجتك جعلها عليك مَنّاً ، واحتمِل الفقر بالتنزّه عمّا فى أيدى الناس[3] ، والزم القناعة بما قُسِم لك ، فإن سوء حمل الفقير يضع الشريف ، ويخمل الذِّكْر ، ويوجب الحرمان .

* * *

الأصْـلُ :

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ ، وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ !

---

(١) ديوانه ١٤٤ . (٢) الديوان : « تجمع ما » .
(٣) د « عما فى يدى غيرك » .

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ .

قارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ .

بِئْسَ الطَّعامُ الحَرامُ ! وظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ !

إذا كانَ الرِّفْقُ خُرْقاً ، كانَ الخُرْقُ رِفْقاً .

رُبَّما كانَ الدَّواءُ داءً ، والدَّاءُ دَواءً . ورُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ ، وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ .

وَإِيَّاكَ وَالاتِّكالَ على المُنَى فإنَّها بَضائِعُ النَّوْكَى . والعقلُ حِفْظُ التَّجارِبِ ، وَخَيْرُ ما جرَّبْتَ ما وعَظَكَ . بادِرِ الفُرْصَةَ ، قَبْلَ أنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصِيبُ ، ولا كُلُّ غائِبٍ يئوب ، وَمِنَ الفَسادِ إضاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ المَعادِ . ولِكُلِّ أَمْرٍ عاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ ما قُدِّرَ لَكَ .

التَّاجِرُ مُخاطِرٌ ، ورُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ !

* * *

الشّرح :

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكميّة .

أوّلها قوله : « تَلافيك ما فَرَط من صمتك أيسرُ من إدراكِك ما فات من منطقك »، وهذا مثل قولهم : أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ، ولستَ بقادر على أن تجعل كلامك صمتا ؛ وهذا حقّ ؛ لأن الكلام يُسْمع وينقل ؛ فلا يستطاع إعادته صمتاً ، والصمت عدم الكلام ، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدّله بالكلام ، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعذَّر استدراكه .

وثانيها قوله : « حفظ ما في يَدَيْك أحبّ إليّ من طلب ما في أيدي غيرك » ، هذا مثل قولهم في المثل : البخل خير من سؤال البخيل ، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام وصايته بالإمساك والبخل ، بل نهيه عن التفريط والتبذير ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾[1]؛ وأحمق الناس مَنْ أضاع ماله اتكالا على مال الناس ، وظنًّا أنه يقدر على الاستخلاف ، قال الشاعر :

إذا حَدَّثَتْك النفسُ أنّك قادرٌ على ما حوتْ أيدي الرجال فكذِّبِ

وثالثها قوله : « مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس » ، من هذا أخذ الشاعر قوله :

وإن كان طعم اليأس مُرًّا فإنّهُ ألذّ وأحلَى من سؤال الأراذِلِ

وقال البُحتري :

واليأس إحدى الراحتين ولنْ ترى تَعَبًا كظنّ الخائبِ المغرور[2]

ورابعها قوله : « الحِرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور»، والحِرْفة بالكسر مثل الحُرف بالضم ، وهو نقصان الحظ وعدم المال . ومنه قوله « رجل محارَف » ، بفتح الراء ، يقول : لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرْج واليد ، خير من الغنى مع الفجور ؛ وذلك لأن ألم الحِرفة مع العفة ومشقّتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر ، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور ، في مثل تلك الأيام يكون ؛ ولكن يستعقب عذابا طويلا ، فالحال الأولى خيرٌ لا محالة . وأيضا في الدنيا خير أيضا للذكر الجميل فيها ، والذكر القبيح في الثانية ، وللمحافظة على المروءة في الأولى وسقوط المروءة في الثانية .

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ . (٢) ديوانه .

وخامسها قوله : « المرء أحفظ لسرّه » أى الأوْلى ألّا تبوح بسرّك إلى أحد ، فأنت أحفظ له من غيرك ؛ فإن أذعته فانتشر فلا تَلُمْ إلّا نفسك ، لأنك كنت عاجزا عن حفظ سرّ نفسك ، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيٌّ أعجز ، قال الشاعر :

إذا ضاقَ صَدْرُ المرء عن حفظِ سِرِّهِ فصَدْرُ الذى يُستودعُ السِّرّ أضيَقُ

وسادسها قوله : « رُبَّ ساعٍ فيما يضرّه » ، قال عبد الحميد الكاتب فى كتابه إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالنملة صلاحًا ، لما أنبت لها جَناحا .

وسابعها قوله : « من أكثر أهجر » يقال : أهجر الرجل ؛ إذا أفحش فى المنطق السوء والخنا ، قال الشماخ :

كماجدةِ الأعراق قال ابنُ ضرَّةٍ عليها كلاما جار فيه وأهْجَرا (١)

وهذا مثل قولهم : مَنْ كثر كلامه كثر سَقَطه . وقالوا أيضا : قلّما سَلِم مكثار ، أو أمن من عِثار .

وثامنها قوله : « مَنْ تفكّر أبصرَ » ؛ قالت الحكماء : الفكر تحديق العقل نحو المعقول ، كما أنّ النظر البصرىّ تحديق البصر نحو المحسوس ، وكما أنّ من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لابدّ أن يبصره ؛ كذلك من نظر بعين عقله ، وأفكر فكرا صحيحا ، لابدّ أن يدرك الأمر الذى فكّر فيه ويناله .

وتاسعها قوله : « قارن أهلَ الخير تكن منهم ، وباين أهل الشرّ تبن عنهم » ، كان يقال : حاجبك وجهك ، وكاتبك لسانك ، وجليسك كلّك . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارِن مُقتَدِ

---

(١) ديوانه ٢٨ ، وروايته : « كماجدة الأعراق . وابن ضرتها : ابن زوجها .

وعاشرها قوله : « بئس الطعام الحرام » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1] .

وحادي عشرها قوله : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » . رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً ، فقال : يا بنىّ ، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك ! وأمر المأمون بإشخاص الخطّابىّ القاصّ[2] من البصرة ، فلما مثل بين يديه ، قال له : يا سليمان ، أنت القائل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمِرْبد عين البصرة ، ومسجدى عين المِرْبد ، وأنا عين مسجدى ، وأنت أعور ، فإنّ عين الدنيا عوراء ! قال : يا أمير المؤمنين ، لم أقل ذاك ، ولا أظنّ أمير المؤمنين أحضرنى لذلك ، قال : بلغنى أنك أصبحت فوجدت على سارية من سوارى مسجدك :

رحم الله عليًا * إنه كان تقيًا

فأمرت بمحوه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، كان « ولقد كان نبيا » فأمرت بإزالته ، فقال : كذبت كانت القاف أصحّ من عينك الصحيحة ، ثم قال : والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقًا لأحسنت تأديبك ، قال : يا أمير المؤمنين ، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزّمانة والهرَم وقلة البصر ؛ فإن عاقبتني مظلوما فاذكر قولَ ابن عمّك علىّ عليه السلام : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » ، وإن عاقبتنى بحقّ ، فاذكر أيضا قوله : « لكل شىء رأس ، والحلم رأس السؤدد » . فنهض المأمون من مجلسه وأمر بردّه إلى البصرة ، ولم يصله بشىء ، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلّا وصله عدا الخطّابى ؛ وليس هذا هو المحدّث الحافظ المشهور ؛ ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستىّ ، كان فى أيام المطيع والطائع ، وهذا قاصّ بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصرىّ .

وثانى عاشرها قوله: «إذا كان الرفق خرقا ، كان الخرق رفقا» ، يقول: إذا كان استعمال

---

(١) سورة النساء ١٠ . (٢) كذا فى ا ، وفى ب : « القاضى » .

الرفق مفسدة وزيادة في الشرّ فلا تستعمله ؛ فإنه حينئذ ليس برِفْق بل هو خرق ، ولكن استعمل الخرق؛ فإنه يكون رفقاً والحالة هذه ؛ لأنّ الشرّ لا يلق إلّا بشر مثله ، قال عمرو ابن كلثوم :

أَلا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا　　　فنجهلَ فَوْقَ جهل الجاهلينا(١)

وفي المثل : إن الحديد بالحديد يُفْلَح .

وقال زهير :

وَمَنْ لا يذُدْ عن حوضِهِ بسلاحه　　　يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِم النَّاس يُظْلَم(٢)

وقال أبو الطيّب :

ووضعُ النّدى في موضع السيف بالعُلَا　　　مُضِرٌ كوضع السيفِ في موضع النّدى(٣)

وثالث عشرها قوله : « وربما كان الدواء داء ، والداء دواء » ؛ هـذا مثل قول أبي الطيّب :

* ربّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلل(٤) *

ومثله قول أبي نواس :

* وداوني بالّتي كانَتْ هي الداء(٥) *

ومثل قول الشاعر :

تَداويتُ من ليلَى بليلَى فلم يكن　　　دواءٌ ولكن كان سُقْماً مخالفا

ورابع عشرها قوله : « ربما نصح غير الناصح ، وغشّ المستنصَح » . كان المغيرة بن شعبة يبغض عليًا عليه السلام منذ أيام رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وتأكّدت

(١) من المعلقة ـ بشرح التبريزي ٢٣٨ .　　(٢) ديوانه ٣٠ .
(٣) ديوانه ١ : ٢٨٨ .　　(٤) ديوانه ٣ : ٨٦ ، وصدره :

* لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ *

(٥) ديوانه ٢٣٤ ، وصدره :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فإنَّ اللَّوْمَ إغْراءُ *

بِنُصْحِه إلى أيام أبى بكر وعثمان وعمر ، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشام مدة يسيرة ، فإذا خُطِب له بالشام وتوطّأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما ، وصرفه فلم يقبل ؛ وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح .

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزبير وهما بمكة فى الخروج عنها ، وقصد العراق ظانًّا أنه ينصحه فغشّه ، وقال له : لا تقم بمكة ، فليس بها مَنْ يبايعك ؛ ولكن دونك العراق ، فإنهم متى رأوك لم يعدلوا بك أحداً ، فخرج إلى العراق ؛ حتى كان من أمره ما كان .

وخامس عشرها قوله : « إياك والاتكال على المُنى ، فإنها بضائع النَّوْكَى » ، جمع أنوك وهو الأحمق ، من هذا أخذ أبو تمام قوله :

مَنْ كانَ مَرْعى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ ... رَوْضُ الأمانى لم يزلْ مهزولا[1]

ومن كلامهم : ثلاثة تُخْلِق العقل ، وهو أوضح دليل على الضعف : طول التمنّى ، وسرعة الجواب ، والاستغراب[2] فى الضحك . وكان يقال : التمنّى والحلم سيّان . وقال آخر : شرف الفتى ترك المنى .

وسادس عشرها قوله : « العقل حفظ التجارِب » من هذا أخذ المتكلّمون قولهم : العقل نوعان : غريزىّ ، ومكتسب ، فالغريزىّ العلوم البديهية ، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس .

وسابع عشرها قوله : « خير ما جرّبت ما وعظك » ، مثل هذا قول أفلاطون : إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب ، بل أنت ساذج كما كنت .

وثامن عشرها قوله : : بادر الفرصة ، قبل أن تكون غُصّة » ، حضر عُبيد الله بن زياد عند هانئ بن عروة عائدا ، وقد كمن له مسلم بن عَقِيل ، وأمره أن يقتله إذا جلس

---

(١) ديوانه . (٢) الاستغراب فى الضحك : المبالغة فيه .

واستقرّ ، فلما جلس جعل مسلم يؤامِرُ نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطِعْه ، وجعل هانئ ينشد كأنه يترنّم بالشعر :

* ما الانتظار بسلمى لا تحيّيها *

ويكرر ذلك ، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض ، فعاد إلى قصر الإمارة ، وفات مسلماً منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة ، حتى صار أمره إلى ما صار .

وتاسع عشرها قوله : « ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يئوب » ، الأولى كقول القائل :

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرء ما طلبا ... ولا يسوّغه المقدار ما وَهَبا

والثانية كقول عَبِيد :

وكلّ ذي غيبة يئوبُ ... وغائب الموت لا يئوبُ [1]

العشرون قوله : « من الفساد ، إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد » ، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده ، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق ، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته .

الحادي والعشرون قوله : ولكل أمر عاقبة » هذا مثل المثل المشهور «لكل سائله قرار».

الثاني والعشرون قوله : « سوف يأتيك ما قدّر لك » ، هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « وإنْ يقدّر لأحدكم رزق في قبّة جبل أو حضيض بِقاعٍ [2] يأتِهِ » .

الثالث والعشرون قوله : « التاجر مخاطر » هذا حقّ ، لأنه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم : هل يعود أم لا ! وهذا الكلام ليس على ظاهره ، بل له باطن ، وهو أنّ من مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، مثل قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [3]

---

(١) ديوانه ١٣ .

(٢) ب : « بقاء » تصحف ، صوابه من ا .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ .

فإنه مخاطر لأنه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيّئات تحبط أعماله الصالحة ، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفّر تلك السيئات ، والمراد أنه لا يجوز للمكلّف أن يعمل إلا الطاعة أو المباح .

الرابع والعشرون قوله : « ربّ يسير ، أنمى من كثير » ، قد جاء فى الأثر : قد يجعل الله من القليل الكثير ، ويجعل من الكثير البركة . وقال الفرزدق :

فإنّ تميماً قبــلَ أن يَلِدَ الحصا أقامَ زمانا وهو فى النّاسِ واحــدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ : رأينا بالبصرة أخوين ، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر ، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله ـ وكان أكثر من مائتى ألف درهم ـ ولم يعطِ الآخر شيئا ، وكان يتّجر فى الزيت ، ويكتسب منه ما يصرفه فى نفقة عيـاله ، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعـد موتِ الأخوين من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم .

***

الأصـلُ :

لَا خَيْرَ فِى مُعِينٍ مَهِينٍ ، وَلَا فِى صَدِيقٍ ظَنِينٍ .

سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَىْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ .

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ؛ وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ .

* * *

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ؛ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً ؛ وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً . وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ . وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ . وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية .

فأولها قوله : « لا خير في معين مهين ، ولا في صديق ظنين » ، مثل الكلمة الأولى قولهم :

إذا تكفّيتَ بغير كافِ وجدتَه للهمّ غيرَ شافِ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله :

فإنّ من الإخوان مَن شَحَط النّوى به وهو راعٍ للوصال أمينُ

ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه فحُلْوٌ وأمّا غيبُه فظنينُ

وثانيها قوله : « ساهل الدهر ما ذلّ لك قَعُوده » ؛ هـذا استعارة ، والقَعُود البَكْر حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثنى ، ومثل هذا المعنى قولهم فى المثل : مَنْ ناطح الدّهر أصبح أجمّ .

ومثله :

* ودُرْ مع الدّهر كيفما دارا *

ومثله :

ومَنْ قاس الأيّام عن ثمراتها ... فأخْرِ بها أنْ تنجلى ولها القَمَر(١)

ومثله :

إذا الدهر أعطاك العِنان فسِرْ بِهِ ... رُويداً ولا تَعنُفْ فيصبح شامِسا

وثالثها قوله : « لا تخاطر بشىء رجاء أكثر منه » ، هـذا مثل قولهم : مَن طلب الفضل ، حُرِم الأصل .

ورابعها قوله : « إياك وأن تجمحَ بك مطيّة اللجاج » ، هذا استعارة ، وفى المثل : ألجّ من خنفساء ، وألجّ من زُنبور . وكان يقال : اللّجاج من القِحة ، والقِحة من قلّة الحياء ، وقلّة الحياء من قلّة المروءة ، وفى المثل : لجّ صاحبك فحُجّ .

وخامسها قوله : « احمل نفسك من أخيك » ، إلى قوله : « أو تفعله بغـير أهله » اللّطَف ، بفتح اللام والطاء ، الاسم من ألطفه بكذا أى برّه به ، وجاءتنا لُطفة من فلان أى هديّة ، والملاطفة المبارّة . وروى « عن اللّطْف » وهو الرفق للأمر ؛ والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يصله ، وإذا جفاه أن يبرّه ، وإذا بخل عليه أن يجود عليه ، إلى آخر الوصاة .

ثم قال له : « لا تفعل ذلك مع غير أهله » ، قال الشاعر :

---

(١) القمر : الغلبة فى القمار .

وإنّ الَّذِي بيني وبَيْنَ بني أبي ... وَبَيْنَ بنِي أمّي لمختلفٌ جِـدّا[1]
فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومَهمْ ... وإن هَدَموا مَجْدِي بنيتُ لهم مَجْدا
وإن زجروا طيرا بنحسٍ تمرّ بي ... زجرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سَعْدا
ولا أحمل الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مَنْ يحملُ الحقدا

وقال الشاعر :

إنّي وإن كان ابن عمّيَ كاشحاً ... لمقاذفٌ من خَلْفِه ووَرائه[2]
ومفيدُه نصري وإن كان امرأ ... متزحزحاً في أرضـه وسمائه
وأكونُ واليَ سرّه وأصونُه ... حتّى يحقّ عليّ وقتَ أدائه
وإذا الحوادث أجحفتْ بسَوَامه ... قرنت صحيحتَنا إلى جَرْبائه
وإذا دعا باسمي ليركبَ مركباً ... صَعْبا قعدت له على سِيسائه[3]
وإذا أجنّ فَليقةً في خِدْره ... لم أطّلع ممّا وراء خِبائه[4]
وإذا ارتدى ثوباً جميلا لم أقلْ ... ياليت أنّ عليّ فضلَ ردائه !

وسادسها قوله : « لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقا فتعادي صديقك » ، قد قال الناس في هذا المعنى فأكثروا ، قال بعضهم :

إذا صافى صديقُك مَنْ تعادِي ... فقد عاداك وانقطعَ الكلامُ

وقال آخر :

صديقُ صديقِي داخلٌ في صداقتي ... وخصمُ صديقي ليس لي بصديقِ

وقال آخر :

تودّ عـدوّي ثم تزعم أنّني ... صديقك إنّ الرأي عنك لعازبُ

---

(١) للمقنع الكندي ، ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقي ٣ : ١١٧٩ .

(٢) لعروة المدني ، الأغاني ٢٠ — ١٦٨ ، وطبقات الزبيدي ٥٧ .

(٣) السيساء في الأصل : منتظم فقار الظهر .

(٤) الفليقة : القليل : من الشعر . والخدر : الستر .

وسابعها قوله : « وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » ؛ ليس يعنى عليه السلام بقبيحة هاهنا القبيح الذى يستحق به الذم والعقاب ؛ وإنّما يريد نافعة له فى العاجل كانت أو ضارة له فى الآجل ، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(١) .

وقد فسّره قوم فقالوا : أراد : كانت نافعة لك أو ضارة لك . ويحتمل تفسير آخر وهو وصيّته إيّاه أن يمحض أخاه النصيحة سـواء كانت ممّا لا يستحيا من ذكرها وشياعها ، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس ، كمن ينصح صديقه فى أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطّلع عليه منهم ؛ فإنّ النّاس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحا .

وثامنها قوله : « تجرّع الغيظ فإنى لم أر جرعـة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبّة » هذا مثل قولهم : الحـلم مرارة ساعة ، وحلاوة الدهر كلّه . وكان يقال : التذلّل للناس مصايد الشرف .

قال المبرّد فى ''الـكامل'' : أوصى علىّ بن الحسين ابنه محمد بن علىّ عليهم السـلام ، فقال : يا بنىّ ، عليك بتجرّع الغيظ من الرّجال ؛ فإنّ أباك لا يسرّه بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرّجال حُمرُ النّعم ؛ والحلم أعزّ ناصراً ، وأكثر عددا(٢) .

وتاسعها قوله : « لِنْ لمن غالظك ، فإنّـه يوشك أن يلين لك » ، هذا مثل المثـل المشهور : « إذا عزّ أخوك فهُنْ » ، والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(٣) .

وعاشرها قوله : « خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظّفَرين » هذا معنى مليح ، ومنه قول ابن هانئ فى المعزّ(٤) :

---

(١) سورة الروم ٣٦ .
(٢) الكامل .
(٣) سورة فصلت ٣٤ .
(٤) ب : « المعتز » ، تصحيف ، صوابه فى ا .

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقماً وفى أعناقهم من جُودِه أعباءُ
لولا انبعاثُ السّيفِ وهو مسلّطٌ فى قتلهم قتلتْهمُ النّعماءُ

وكنت كاتبا بديوان الخلافة ، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد رحمه الله ، فوصل إلى حضرة الديوان فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة محمد بن محمد أمير البحرين على البرّ ، ثم وصل بعده الهرمزىّ صاحب هرمز فى دجْله بالمراكب البحرية ـ وهرمز هذه فُرْضة فى البحر نحو عُمان ـ وامتلأت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب الهرمزىّ ـ وكانت تلك الأيام أياما غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه ، والوفود تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه ـ فكتبت يوم دخول الهرمزىّ إلى الوزير أبياتا سنحتْ على البديهة ، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة ، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها :

يا أحْمَد بنَ محمّدٍ أنتَ الّذى عَلِقتْ يداه بأنفَسِ الأعلاقِ
ما أمّلتْ بغدادُ قبلك أنْ ترى أبداً ملوكَ البحرِ فى الأسواقِ
وَلهوا عليها غَيْرَةً وتنافسوا شَغَفاً بها كتنافُسِ العُشّاقِ
وغدتْ صِلاتك فى رقابِ سَراتِهمْ ونداكَ كالأطواقِ فى الأعناقِ
بسديدِ رأيِك أصْلِحَتْ جحاتُهمْ وتألّفوا من بعد طول شِقاقِ
لله همّةُ ماجدٍ لم تعتلِقْ بسَحِيل آراهِ ولا أحذاقِ(٢)
جلب السّلاهِبِ من أراكَ وبعدها جَلَبَ المراكبَ من جزيرة واقِ
هذا المَداء هو المداء فمدّ عَنْ قول ابن حُجْر فى لأْى وعناقِ
وأظنّه والظنُّ علمٌ أنّه سيجيئنا بممالكِ الآفاقِ
إما أسيرُ صَنيعةٍ فى جِيدِهِ بالجود غُلٌّ أو أسيرُ وَثاقِ

(١) ديوانه ٥ (المطبعة الأميرية) ١٢٧٤) .
(٢) السحيل والأحذاق : الحبال الضعيفة .

لا زال فى ظلّ الخليفة مآله   فانٍ وسودَدُه المعظّم باقِ

وحادى عشرها قوله : « إنْ أردت قطيعـة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجـع إليها إن بدَا ذلك له يوما » ، هذا مثْل قولهم: « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغِض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ، وما كانَ يُقال : إذا هويت فلا تـكن غاليا ، وإذا تركت فلا تـكن قاليا .

وثانى عشرها قوله : « مَنْ ظنّ خيرا فصدّق ظنّه » كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا ، يقال لمن قد شدَا طرفاً من العلم : هذا عالم ، هذا فاضل ، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه ، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالما فاضلا حقيقة ، وكذلك يقول الناس : هذا كثير العبادة ، هذا كثير الزهد ؛ لمن قد شرع فى شيء من ذلك، فتحمله أقوال النّاس على الالتزام بالزهد والعبادة .

وثالث عشرها قوله : « ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتّـكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقّه » ، من هذا النحو قول الشاعر :

إذا خنتمُ بالغيب عهدى فما لـكم   تُدِلّون إدلالَ المقيم على العهدِ
صِلُوا وافعلوا فعلَ المدِلّ بوصِله   وإلّا فصُدّوا وافعلوا فعلَ ذى الصّدِ

وكان يقال : إضاعة الحقوق ، داعية العقوق .

ورابع عشرها قوله : « لا ترغبنّ فيمن زهد فيك » الرغبة فى الزاهد هى الداء العياء؛ قال العباس بن الأحنف :

ما زِلْتُ أزْهَدُ فى مودّةِ راغبٍ   حتى اُبتليت برغبةٍ فى زاهـدِ
هذا هو الدّاء الّذى ضاقت به   حِيَلُ الطبيب وطال يأس العائدِ

وقد قال الشعراء المتقدمون والمتأخرون فأكثروا ، نحو قولهم :

وَفِى النَّـــاسِ إنْ رَثَّتْ حبالُكَ واصلٌ ... وفى الأرض عَنْ دارِ القِلَى مُتَحَوَّلُ[1]

وقول تأبّط شرا[2] :

إنِّى إذا خُلَّة ضَنَّتْ بنائِلِهـا ... وأمسكتْ بضعيفِ الحبلِ أحذاقِ[3]

نجوتُ منها نجـائى من بَجيلَة إذْ ... ألقيتُ ليله خَبْتِ الرَّهْطِ أرواقى[4]

وخامس عشرها قوله : لا يـكونَنّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تـكونَنّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان » . هـذا أمر له بأن يصل مَنْ قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه .

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الـكَرْخ وغيرهم من أعمال أصفهان يدعوهم فيها إلى نفسه ، فأحضرها بين يديه ، ودفعها إليه ، وقال له : أتعرف هـذه ؟ فأطرق خجلا ، فقال له : أنت آمن ، وقد وهبت هذا الذنب لعلىٍّ وفاطمة عليهما السلام ، فقمْ إلى منزلك ، وتخيّر ما شئت من الذنوب ، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو .

وسادس عشرها قوله : « لا يكبرنّ عليك ظُلم مَنْ ظلمك ، فإنّه يسعى فى مضرته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، جاء فى الخبر المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله سمع عائشة تدعُو على مَنْ سرق عقدا لها ، فقال لها : « لا تُسبِّحى عنه بدعائك ، أى لا تُخفِّفى عذابه » . وقوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، يقول : لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك فى الآخرة بظلمه لك ، وليس جزاء مَنْ ينفع إنسانا أن يسىء إليه . وهذا مقام جليل

---

(١) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ .   (٢) المفضليات ٨ .

(٣) الخلة : الصداقة ، وتقال للصديق ، وتطلق على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ؛ وأنث الضمائر من أجل اللفظ . والأحذاق : القطع من الحبال .

(٤) الخبت : اللين من الأرض . الرهط : موضع . ألقيت أرواقى : استفرغت جهدى وعدوت عدوا أشد .

لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار . وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين ، فحبسهم وقيّدهم ، فلمّا طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة ، ودعا على ذلك الجبّار ، فقال له بعض أولاده ـ وكان أفضل أهل زمانه فى العبادة . وكان مستجاب الدعوة : لا تدعُ عليه فتخفّف من عذابه ، قالوا : يا فلان ، ألا ترى ما بنا وبك ! لا يأنف ربك لنا ! قال : إن لفلان مهبطاً فى النار لم يكن ليبلغه إلا بما ترون ، وإن لكم لمصعدا فى الجنّة لم تكونوا لتبلغوه إلّا بما ترون . قالوا : فقد نال منا العذاب والحديد ، فادع الله لنا أن يخلّصنا وينقذنا ممّا نحن فيه ، قال : إنّى لأظنّ أنى لو فعلت لفعل ، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا ، فألقى الله فأقول له : أى ربّ سلْ فلانا لِمَ فعل بى هذا ؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، كلمة مفردة مستقلّة بنفسها ، ليست من تمام الكلام الأول ، والصحيح ما ذكرناه .

وسابع عشرها ـ ومن حقه أن يقدم ذكره قوله : « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك » ، هذا كما يقال فى المثل : من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها ، والمراد من هذه الكلمة النّهى عن قطيعة الرّحِم وإقصاء الأهل وحرمانهم ، وفى الخبر المرفوع : « صلوا أرحامكم ولَوْ بالسلام » .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَىَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ .

مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى !

إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ .

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ .

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ .

مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ . وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ .

* * *

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ .

قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً .

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ .

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ .

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ .

إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ .

سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .

* * *

الشرح :

فى بعض الروايات: « اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء » ، قد مضى لنا كلام شافٍ فى الرزق .

وروى أبو حيّان ، قال : رفع الواقدىّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدَّيْن عليه ، وكثرة العيال ، وقلّة الصبر، فوقّع المأمون عليها : أنت رجل فيك خلّتان ؛ السخاء والحياء فأمّا السخاء فهو الذى أطلق ما فى يديك ، وأمّا الحياء فهو الذى بلغ بك إلى ما ذكرت ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ؛ فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد فى بسط يدك ، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك ؛ وأنت كنت حدثتنى وأنت على قضاء الرشيد عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهرىّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير : « يا زبير ، إنّ مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ؛ فمن كثّر كُثّر له ، ومن قلّل قُلّل له » .

قال الواقدىّ : وكنت أُنسيتُ هذا الحديث ، وكانت مذاكرته إيّاى به أحبّ من صلته .

***

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية :

منها قوله « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف ، فتارةً يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلّف حركة ، ولا تجشّم سَعْى ، وتارة يكون الأمر بالعكس .

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها ، وهو فقير

لا مال له ، فساخت إحدى قوائم فرسه فى الصّحراء فى الأرض ، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها ، فظهر لهم فى ذلك الموضع نقب وسيع ، فأمرهم بحفره ، فوجدوا[1] فيه أموالا عظيمة ، وذخائر لابن ياقوت ، ثم استلق يوما آخر على ظهره فى داره بشيراز التى كان ابن ياقوت يسكنها ، فرأى حيّة فى السقف ، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها ، فهربت منهم ، ودخلت فى خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل ؛ فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت .

واحتاج أن يفصل ويخيط ثيابا له ولأهله فقيل : هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت ، وهو رجل منسوب إلى الدّين والخير ، إلا أنه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلا ، فأمر بإحضاره ، فأُحضر وعنده رعب وهلع ، فلما أدخله إليه كلّمه ؛ وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب ، فارتعد الخياط واضطرب كلامه ، وقال : والله يا مولانا ماله عندى إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلاتسمع قول الأعداء فى . فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق ، فوجدها كلّها ذهبا وحليّاً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت .

وأمّا الرّزق الذى يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جدا لا يحصى .

ومنها قوله : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى » ! هذا من قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[2] .

ومن الشعر الحكمىّ فى هذا الباب قول الشاعر :

خُلُقانِ لا أرْضَاهُمَا لِفَتًى : تيهُ الغِنى ومَذَلَّةُ الفقرِ

---

(١) ا : « فوجد » .

(٢) سورة يونس ٢٢ ، ٢٣ .

فإذا غَنِيت فلا تكن بَطِراً وإذا افتقرت فتِهْ على الدّهرِ

ومنها قوله : « إنّما لك من دنياك ، ما أصلحت به مثواك » ، هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا بن آدم ، ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت » .

وقال أبو العتاهية :

ليس للمتعب المُكادح من دنـ ـياهُ إلّا الرّغيف والطِّمْرانِ[1]

ومنها قوله : « وإن كنت جازعا على ما تفلّت من يديك ، فاجْزَع على كلّ ما لم يصل إليك » ، يقول : لا ينبغى أنْ تجزَعَ على ما ذهب من مالك ، كما لا ينبغى أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب ؛ فإنّه لا فرق بينهما ، إلّا أنّ هذا حصل ، وذاك لم يحصل بعد ؛ وهذا فرق غير مؤثّر ، لأنّ الذى تظنّ أنه حاصل لك غير حاصل فى الحقيقة ، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته ، وأما القنيات والمدخرات فلعلّها ليست لك ، كما قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يَسْقِى ويحسِبها له أخِى تعبٍ فى رَعْيِها ودُءوبِ

غدتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها وَبُدِّلَ أحجارا وجالَ قَلِيبِ

ومنها قوله : « استدلّ على ما لم يكن بما كان ، فإن للأمور أشباها » يقال : إذا شئت أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

وقال أبو الطيّب فى سيف الدولة :

ذكىٌّ تَظنّيه ، طليعةُ عَيْنِهِ يرى قَلْبُه فى يومه ما يَرَى غَدَا[2]

ومنها قوله : « ولا تكونَنّ ممّن لا تنفعه العظة . . . » إلى قوله : « إلا بالضرب » ، هو قول الشاعر :

---

(١) الطمران : تثنية طمر ، وهو الثوب الخلق البالى .

(٢) ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظنى : التظنن ، والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو .

العبـــد يُقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامه[1]

وكان يقال : اللئيم كالعبد ، والعبد كالبهيمة عَتْبها ضربُها .

ومنها قوله : « اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء »[2]. هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة ، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال فى خطبته لمّا ورد عليه الخبر بقتل مُصْعب أخيه : « لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزَننا وسرّنا ، جاءنا خبرُ قتل مُصْعب ؛ فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا إن شاء الله خيرة ؛ وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه ، ثم يرعوى بعدهـا ذو الرأى إلى حسن الصبر وكرم العزاء » .

ومنها قوله : « مَنْ ترك القصد جار » القصد الطريق المعتـدل ، يعنى أنّ خير الأمور أوسطها ، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيرا وقع فى هذه .

ومنها قوله : « الصاحب مناسب » ، كان يقال : الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب البدن ، قال أبو الطيّب :

ما الخلّ إلّا مَنْ أودّ بقلبـــه وأرَى بطَرْفٍ لا يَرَى بسوائه[3]

ومنها قوله : « الصديق مَنْ صدق غيبه » ، من هاهنا أخــذ أبو نواس قوله فى المنهوكة[4] :

هـل لك والْهلّ خَيَرْ فيمن إذا غبتَ حضرْ
أو مالكَ اليـــوم أثرْ فإن رأى خيرا شَكَرْ
* أو كان تقصير عَذَرْ *

ومنها قوله : «الهوى شريك العمى» ، هذا مثلُ قولهم : «حبُّك الشىء يُعمِى ويُصِمّ» قال الشاعر :

---

(١) لابن مفرغ ، الشعر والشعراء ٣١٥ . (٢) بلفظ الرواية الثانية . (٣) ديوانه ١ : ٤ .
(٤) المنهوك من الرجز والمنسرح : ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، كقوله فى الرجز :
* ياليتنى فيها جذع * وقوله فى المنسرح : * ويل أم سعد سعدا * .

وَعَيْنُ الرّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدِى المَسَاوِيَا (١)

ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد »، هذا معنى مطروق، قال الشاعر :

لعمركَ ما يضرّ البُعْدُ يوماً إذَا دَنَت القلوبُ من القلوبِ

وقال الأحوص :

إنّى لأمنحكِ الصُّـدودَ وإنّنى قسماً إليكِ مع الصُّدود لأميَلُ (٢)

وقال البحترىّ :

ونازحةٍ والدّار منهـا قريبةٌ وما قرب ثاوٍ فى التّراب مغيّبُ !

ومنها قوله « والغريب من لم يكن له حبيب » يريد بالحبيب ها هنـا المحبّ لا المحبوب ، قال الشاعر :

أسْرَةَ المرء والداه وفيما بين جَنْبيهما الحيـاةُ تطيبُ
وإذا ولّـيا عن المرء يوماً فهو فى النّاس أجنبيٌّ غريبُ

ومنها قوله : « مَنْ تعدّى الحقّ ضاق بمذهبه » ، يريد بمذهبه ها هنا طريقته ، وهـذه استعارة، ومعناه أنّ طريق الحق لامشقّة فيها لسالـكها، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، وكأن سالـكها سالك طريقة ضيّقة يتعثّر فيها ، ويتخبّط فى سلوكها .

ومنها قوله : « مَنْ اقتصر على قدره كانَ أبقى له » ، هذا مثل قوله : « رحم الله امرأً عرف قدره ، ولم يتعدّ طوره » وقال : مَن جهل قدره قتل نفسه . وقال أبو الطيّب :

وَمَنْ جهلت نفسهُ قـدرَهُ رأى غيرُه منـه ما لا يَرَى

---

(١) لعبد الله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ . (٢) الأغانى .

ومنها قوله : « أوثق سبب أخذتَ به، سببٌ بينــك وبين الله سبحــانه ، هذا من قول الله تعــالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّـاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾(١) .

ومنها قوله : « فمن لم يبالِكَ فهو عدوّك » ، أى لم يكترث بك ، وهذه الوصاة خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا ، وليست عامّة للسُّوقة من أفنــاء الناس ، وذلك لأنّ الوالىَ إذا أنس من بعض رعيّته أنه لا يبــاليه ولا يكترث به ، فقــد أبدى صفحته ، ومن أبدى لك صَفحته فهو عدوّك ، وأما غــير الوالى من أفناء النــاس ، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدوّ له .

ومنهــا قوله : « قد يكونُ اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا » ؛ هذا مثــل قول القائل :

مَنْ عاشَ لاقَى ما يسو ءُ من الأمور وما يسُرّْ
وَلَرُبَّ حتفٍ فَوْقَهُ ذهبٌ وياقوتٌ ودرّْ

والمعنى : ربّما كان بلوغ الأمل فى الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها ؛ وإذا كان كذلك ، كان الحرمان خيرا من الظفر .

ومنها قوله : « ليس كلّ عورة تظهر ، ولا كلّ فرصة تصاب » يقول : قد تكون عورة العدوّ مستترةً عنك فلا تظهر ، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها .

وقال بعض الحكماء : الفرصة نوعان : فرصة من عدوّك ، وفرصة فى غير عدوّك ، فالفرصة من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك ، وإن فاتتك ضرّتك ، وفى غير عدوّك ما إذا أخطأك نفعه لم يصلْ إليك ضرُّه .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦

ومنها قوله : « فربما أخطأ البصير قصدَه ، وأصاب الأعمى رشده » من هـذا النحو قولهم فى المثل : « مع الخواطئ سهم صائب »، وقولهم : « رميةمن غير رام». وقالوا فىمثل اللفظةالأولى: « الجواد يكبُو ، والحسام قد ينبو ». وقالوا: «قديهفو الحليم، ويجهل العليم».

ومنها قوله : « أخِّر الشرّ فإنك إذا شئت تعجّلته » مثل هذا : قولهم فى الأمثال الطفيليّة : « كلْ إذا وجدت ، فإنك على الجوع قادر » . ومن الأمثال الحكمية : « ابدأ بالحسنة قبل السيئة ، فلست بمستطيع للحسنة فى كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر » .

ومنها قوله : « قطيعة الجاهل تعدل صِلة العاقل »؛ هذا حق ، لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك ؛ وهذا كما يقول المتكلّمون : عدم المضرّة كوجود المنفعة ، ويكاد أن يبتنىَ على هذا قولهم : كما أن فعل المفسدة قبيح من البارئ ، فالإخلال باللطف منه أيضا يجب أن يكون قبيحا .

ومنها قوله : « منْ أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه » ، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر :

وَمَنْ يأمَن الدّنيا يكن مثل قابِض ... على الماء خَانَتْهُ فروج الأنامِـلِ

وقالوا : احذر الدنيا ما استقامتْ لك . ومن الأمثال الحكمية : « من أمن الزمان ضيّع ثغراً مَخُوفا » . ومثل الكلمة الثانية قولهم : « الدنيا كالأمة اللئيمة المشوقة ، كلما ازددت لها عشقا وعليها تهالُكا ازدادت لك إذلالا ، وعليك شطاطا » .

وقال أبو الطيب :

وهى معشوقة على الغَدْرِ لا تَحـ ... ـفَظُ عهـداً ولا تتمم وَصْـلَا

شِيَمُ الغانيات فيها فلا أدْ رِى لذا أنّث اسمها الناسُ أم لا(١) !

ومنها قوله : « ليس كلّ مَنْ رَمى أصاب » هذا معنى مشهور ، قال أبو الطيّب :

ما كلّ مَنْ طلب المعالى نافذاً فيها ، ولا كلّ الرجال فُحُولا

ومنها قوله : « إذا تغيّر السلطان ، تغيّر الزمان » . فى كتب الفرس أنّ أنو شروان جمع عمّال السّواد وبيده دُرّة يقلّبها ، فقال : أىّ شىء أضرّ بارتفاع السواد وأدْعى إلى محقه ؟ أيّكم قال ما فى نفسى جعلت هذه الدرّة فى فيه ؟ فقال بعضهم : انقطاع الشرب ، وقال بعضهم : احتباس المطر ، وقال بعضهم : استيلاء الجنوب وعدم الشمال ، فقال لوزيره : قل أنت فإنّى أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها ، قال : تغيّرُ رأى السلطان فى رعيّته ، وإضمار الحيْف لهم ، والجوْر عليهم ، فقال : لله أبوك ! بهذا العقل أهّلك آبائى وأجدادى لما أهّلوك له . ودفع إليه الدُّرّة فجعلها فى فيه .

ومنها قوله : « سل عن الرفيق ، قبل الطريق ؛ وعن الجار ، قبل الدار » وقد روى هذا الكلام مرفوعا ، وفى المثل : « جار السوء كلب هارش ، وأفعى ناهش » .

وفى المثل : الرفيق إمّا رحيق أو حريق .

***

الأصْلُ :

إيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣٠ .

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاء فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ .

وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ . وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا .

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ .

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ .

وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . والسلام .

* * *

الشَّرْحُ :

نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكا ، لأن ذلك مِنْ شغل أرباب الهزل والبَطالة ، وقلّ أنْ يخلوَ ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؟ وذلك كلام فصيح، ألا ترى أنه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها . وقال عمر لما نهاه

رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلف بالله : فما حلفت به ذاكرا ، ولا آثرا ، ولاحاكيا .

وكان يقال : مَنْ مازح استخُفَّ به ، ومن كثر ضحكه قلّت هيبته .

فأما مشاورة النساء فإنّه من فعل عَجَزَة الرجال ، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين الأمين والمأمون فى كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز : ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباهةَ الذئبِ ، همّه بطنه ، ولذّته فَرْجه ، لا يفكّر فى زوال نعمة ، ولا يروّى فى إمضاء رأىٍ ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله عن ساقه ، وفوّق له أشدّ سهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ؛ قد عبّى له المنايا على مُتُون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح ، وشِفار السيوف ، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به نفسه وأخاه :

يُقارِع أتراكَ ابنِ خاقَانَ ليلَه ... إلى أنْ يرى الإصباح لا يتلعثمُ
فيصبح من طول الطِّراد وجسمُه ... نحيلٌ ، وأضحِى فى النّعيم أصمِّمُ
وهمِّىَ كأس من عُقار وقَيْنَةٍ ... وهمّته درع ورُمح ومخذمُ
فشتّان مابينى وبين ابن خالدٍ ... أميّة فى الرزق الذى اللهُ يَقسِم

ونحن معه نجرى إلى غاية إن قصّرنا عنها ذُممنا ، وإن اجتهدنا فى بلوغِها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن ضعف ضعفنا ؛ إنّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو من سمعه ، فهم يمنّونه الظّفر ، ويعِدُونه عُقَبَ الأيام ، والهلاكُ أسرع إليه من السّيل إلى قِيعان الرمل .

* * *

قوله عليه السلام : « فإنّ رأيهنّ إلى أفْن » الأفْن بالسكون : النقص ، والمتأفّن :

التنقّص ، يقال : فلان يتأفّن فلانا ، أي يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه « إلى أفَنٍ » بالتحريك فهو ضعف الرأى ، أفِن الرجـل يأفَن أفَنًا أى ضعف رأيه ؛ وفى المثل : « إنّ الرّقين تُغَطّى أفَن الأفين »(١) والوهن : الضعف .

قوله : « وا كفُفْ عليهنّ من أبصارهنّ » من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبى الحسن الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه ، فيعنى به : فا كفف عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهـاه أن يُدخِلَ عليهنّ من لا يُوثق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهونُ من ذلك ، وذلك لأنّ مَنْ تلك صفتُه يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه مَنْ يراهنّ فى الطرقات .

ثم قال : « إن استطعت ألّا يعرفنَ غيركَ فافعل » . كان لبعضهم بنت حسناء ، فحجّ بها ، وكان يعصبُ عينيها ، ويكشف للناس وجهها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنمـا الحذر من رؤيتها الناس ، لا من رؤية الناس لها .

قال : « ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها » ؛ أى لا تدخلهـا معك فى تدبير ولا مشورة ، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها .

فإن المرأة ريحانةٌ ، وليست بقهرمانة ؛ أى إنما تصلح للمتعة واللذّة ، وليست وكيلا فى مال ، ولا وزيرا فى رأى .

ثم أكّد الوصيّة الأولى ، فقال : لا تَعْدُ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : « ولا تملّكها من أمرها ما جاوز نفسها » .

ثم نهاه أن يطمِعها فى الشفاعات .

---

(١) اللسان (أفن ، رقن) والرقين : الدرهم ؛ سمى بذلك للترقين الذى فيه ؛ يعنون الخط .

وروى الزُّبير بن بكّار ، قال : كانت الخيزُران كثيراً ما تكلّم موسى ابنها ـ لما استخلف ـ في الحوائج ؛ وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكلّمته يوما في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، واحتجّ عليها بحجّة فقالت : لابدّ من إجابتي ، فقال : لا أفعل ، قالت : إني قد ضمنت هـذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لاقضيتُها لك ولا له ! قالت : والله لا أسألك حاجة أبدا ، قال : إذَنْ والله لا أبالي ؛ فقامت مغضَبة ، فقال : مكانك تستوعي كلامي ؛ وأنا والله برىء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لئن بلغني أنه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخـدمي وكتّابي على بابك لأضربنّ عنقه ، ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ؛ ما هذه المواكب التي تغـدو إلى بابك كل يوم ! أما لك مِغْزَل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ! إيّاك ثم إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لمليّ أو ذمّيّ . فانصرفت وماتعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحُلوة ولا مرّة بعدها حتى هلك .

* * *

وأخذ هذه اللفظة منه وهي قوله : «إن المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة» الحجّاج فقالها للوليد بن عبد الملك؛ روى ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» قال : دخل الحجّاج على الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة ؛ وذلك في أوّل قدْمة قدمها عليه من العراق ؛ فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه: مَنْ هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك وأنت في غِلالة ! فأرسل إليها : هـذا الحجّاج ؛ فأعادت إليه الرسول : [فقال : تقول لك :] والله لأن يخـلو بك ملك الموت في اليوم أحيانا أحبّ

إلىّ من أن يخلو بك الحجّاج : فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجّاج، فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتى أن تأمره غداً أن يأتيني مسلِّما ؛ ففعل ذلك، فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائما ، ثم أذنت له ، فقالت : يا حجّاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله علم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ولا بقتل ابن ذات النّطاقين ، أول مولود فى دار هجرة الإسلام ! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره ، فإن كنّ ينفرجْنَ عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك! وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله فهو غير قابل لقولك ؛ أما والله لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطّيب من غدائرهنّ فبعنه فى أعطية أهل الشام حين كنتَ فى أضيق من قرن ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كِفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ، قاتل الله القائل حين ينظر إليك ؛ وسِنان غزالة بين كتفيك :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامة ربْداء تنفرُ من صفير الصافر (١)

هلاّ برزتَ إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر

قم فاخرج ، فقام فخرج (٢) .

* * *

(١) ذكر صاحب الأغانى أن غزالة الحرورية لما دخلت على الحجاج هى وشبيب بالكوفة تحصن منها ، وأغلق عليه قصره ؛ فكتب إليه عمران بن حطان — وقد كان الحجاج لج فى طلبه :

أسدٌ علَىَّ وفى الحروبِ نَعَامةٌ رَبْداءُ تَجفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَـلاّ برزتَ إلى غَزالةَ فى الوَغَى بلْ كانَ قلبُكَ فى جَنَاحَىْ طـائرِ

صَدَعَتْ غزالةُ قلبـه بِفَوارِسٍ تَرَكَتْ مـدابِرهُ كأمسِ الدَّابِرِ

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٧٠ ، ١٧١ .

[بعض ما قيل فى الغَيْرة من الشعر]

فأما قوله عليه السلام : « إياك والتغاير فى غير موضع غَيْرة » فقد قيل هـذا المعنى ، قال بعض المحدثين :

يأيها الغائر مَهْ لا تغرْ   إلّا لِمَا تُدرِكه بالبَصرْ
ما أنت فى ذلك إلّا كمَنْ   بيّته الدبّ لرمْى الحجرْ

وكان مسكين الدارىّ أحد مَنْ يستهجن الغيرة ، ويستقبح وقوعَها فى غير محلّها ، فمن شعره فى هذا المعنى :

ما أحسنَ الغيرةَ فى حِينها   وأقبحَ الغَيْرة فى غير حينْ !(١)
مَنْ لم يزل متهماً عِرسَه   مناصباً فيها لرجْم الظنونْ(٢)
يُوشك أن يُغريَها بالذى   يخاف ، أو ينصبها للعيونْ
حسبُك من تحصينها ضمُّها   منك إلى خِيم كريم ودينْ
لا تَظْهرَنْ يوما على عورة   فيتبع المقرون حَبلَ القرينْ(٣)

وقال أيضاً :

ألا أيّها الغائر المستشيطُ   علامَ تغارُ إذ لم تُغَرْ !(٤)
فما خيرُ عِرْس إذا خِفتَها   وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرْ !
تغارُ من الناس أن ينظروا   وهل يفتنُ الصالحاتِ النظرْ !
فإنّى سأُخلِى لها بيتَها   فتحفظَ لى نفسَها أو تَذَرْ

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ .   (٢) الأمالى : « لرجم الظنون » .

(٣) أى إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ، فإنها أيضاً تزنى ، أو تفعل كما فعلت .

(٤) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

إذا الله لم يعطـه وُدّها فلن يعطىَ الوُدّ سوطٌ مُمَرّ
وَمن ذا يُراعِى له عِرْسَهُ إذا ضمّه والرّكاب السّفَرْ !(١)

وقال أيضا :

ولستُ أمرأً لا أبرحُ الدّهرقاعداً إلى جنب عِرْسى لا أفارقها شِبْرا(٢)
ولا مقسماً لا أبرحُ الدّهر بيتهـا لأجعله قبل الممات لهـا قـبْرا
ولا حاملاً ظنّى ولا قولَ قائلٍ على غَيرةٍ حتى أحيط به خُبْرَا
وهبنى امرأً راعيتُ مادمت شاهداً فـكيف إذاماسرتُ من بيتها شهرا !
إذا هى لم تُحصِنْ لـما فى فنائها فليس بمنجيها بنائى لها قصرا

فأما قوله : « واجعل لـكلّ إنسان من خَدَمك عملا تأخذه به » ، فقد قالت الحـكماء هذا المعنى ، قال أبرويز فى وصيّته لولده شيرويه : وانظر إلى كُتّابك ، فمَن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج ، ومَنْ كان منهم ذا عَبيد قد أحسن سياستهم وتثقيفهم فولّه الجند ، ومن كان منهم ذا سرارىّ وضرائر قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع فى خَدَم دارك ، ولا تجعل أمرك فوضَى بين خدمك فيفسد عليك ملـكك .

وأمّا قوله : « فأكرِم عشيرتك فإنّهم جناحك » فقد تقدّم منّا كلام فى وجوب الاعتضاد بالمشائر .

***

[اعتزاز الفرزدق بقومه]

روى أبو عبيدة قال : كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلّا قاعداً ،

(١) الأمالى : « المطى » .
(٢) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ ، وروايته : « وإنى امرؤ » .

فدخل على سليمان بن عبد الملك يوما ، فأنشده شعرا فخَر فيه بآبائه ، وقال من جملته :

تالله ما حَمَلتْ من ناقة رجُلا مثلى إذا الريح لفّتنِي على الكُورِ[1]

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك ! قال : لى ولك يا أميرَ المؤمنين ، فغضب سليمان وقال : قم فأتم ، ولا تنشد بعده إلا قائما ، فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثرى شعرا . فقال سليمان : ويلى على الأحمق ابن الفاعلة ! لا يكنى ، وارتفع صوتُه ، فسمع الضوضاء بالباب ، فقال سليمان : ما هذا ؟ قيل : بنو تميم على الباب ، قالوا : لا ينشد الفرزدق قائما وأيدينا فى مقابض سيوفنا ، قال : فلينشد قاعدا .

* * *

[وفود الوليد بن جابر على معاوية]

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزبانىّ ، قال : كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائىّ ممّن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأسلم ، ثمّ صحب عليا عليه السلام ، وشهد معه صِفين ، وكان من رجاله المشهورين ، ثمّ وفد على معاوية فى الاستقامة[2] ، وكان معاوية لا يثبتُه[3] ؛ معرفةً بعينه ؛ فدخل عليه فى جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت صاحب ليلة الهرير ؟ قال : نعم، قال : والله ما تخلو مسامعى من رجَزك تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

شُدّوا فداء لكم أمّى وأبْ فإنّما الأمرُ غداً لمن غلبْ

هذا ابنُ عم المصطفى والمنتجَبْ تَنْمِيه للعَلْياء سادات العرَبْ

ليس بموصوم إذا نصّ النَّسَبْ أوّل مَنْ صلّى وصام واقترَبْ

قال : نعم ، أنا قائلها . قال : فلماذا قلتَها ؟ قال : لأنا كنا مع رجل لا نعلم خصلة

---

(١) من قصيدة فى ديوانه ١ : ٢٦٢ ـ ٢٦٧ ؛ وذكر فيه أنه مدح بها يزيد بن عبد الملك .

(٢) كذا فى الأصول .

(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، وفى ب : « لا ينسبه » .

توجب الخلافة ، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة ، إلّا وهى مجموعة له ؛ كان أوّلَ الناس سِلْما ، وأكثرَهم علماً ، وأرجحَهم حلما ، فات الجياد فلا يشق غباره ، يستولى على الأَمد فلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره ، فلمّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحوّل الأمر إلى من يشاء من عباده ، دخلنا فى جملة المسلمين فلم ننزع يدا عن طاعة ، ولم نصدع صفاة جماعة ؛ على أن لك منّا ما ظهر ، وقلوبنا بيد الله ، وهو أملَك بها منك ، فاقبل صفوَنا ، وأعرِض عن كدرنا ، ولا تُثِرْ كوامنَ الأحقاد ، فإنّ النار تقدَح بالزِّناد . قال معاوية : وإنّك لتهددنى يا أخا طيّئ بأوباش العراق أهل النفاق ، ومَعدن الشقاق ! فقال : يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوك فى المضيق ، وذادوك عن سَنَن الطريق ؛ حتى لذت منهم بالمصاحف ؛ ودعوت إليها من صدّق بها وكذبت ، وآمن بمنزلها وكفرت ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فغضب معاوية وأدار طرْفه فيمَنْ حوله فإذا جلُّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن ، فقال : أيها الشقىّ الخائن ؛ إنّى لإخال أنّ هذا آخر كلام تفوّهُ به ــ وكان عُفَيْر[١] بن سيف بن ذى يزن بباب معاوية حينئذ ــ فعرف موقف الطائىّ ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانيّة ، فقال : شاهت الوجوه ذلاًّ وقُلاًّ ، وجَدْعا وفَلاًّ ، كَشَمَ الله هذه الأنف كَشْما[٢] مرعبا . ثم التفت إلى معاوية ، فقال : إنّى والله يا معاوية ما أقول قولى هذا حبًّا لأهل العراق ، ولا جنوحا إليهم ؛ ولكن الحفيظة تذهب الغضب ، لقد رأيتك بالأمس ، خاطبت أخا ربيعة ــ يعنى صعصعة بن صُوحان . وهو أعظم جُرماً عندك من هذا ، وأنكا[٣] لقلبك ، وأقدح فى صَفاتك ، وأجدّ فى عداوتك ، وأشد انتصارا فى حربك ، ثم أثبته وسرّحته ؛ وأنت الآن مجمع على قتل هذا ــ زعمت ــ استصغارا لجماعتنا ! فإنّا لا نمرّ ولا نحلى ؛ ولعمرى لو وكاتك أبناء قحطان إلى قومك لكان جَدُّك العاثر ، وذِكرك الداثر ،

(١) ا : « عفيرة » . (٢) ب : « كثم » تحريف صوابه من ا ، وكشم الأنف : استأصله قطعاً .
(٣) كذا فى ا . وفى ب : « وإذكاء » .

وحدّك المفلول ، وعرشك المثلول ، فاربع على ظلْعِك[1] ، واطونا على بُلالتنا[2] ، ليسهل لك حَزْننا ، ويتطامن لك شاردنا ، فإنا لا نرأمُ بوَقع الضيم ، ولا نتلمّظ جُرع الخسف ، ولا نغمز بغماز الفِتن ، ولا نذر على الغضب . فقال معاوية : الغضب شيطان ، فاربَعْ نفسك أيّها الإنسان ، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم نرتكب منه مغضبا ، ولم ننتهك منه محرّما ، فدونكه فإنّه لم يضقْ عنه حلْمنا ويسع غيره . فأخذ عُفَير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتؤوبنّ بأكثر ممّا آب به معديّ من معاوية . وجمع مَنْ بدمشق من اليمانية ، وفرض على كلّ رجل دينارين فى عطائه ، فبلغت أربعين ألفا ، فتعجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .



(١) اربع على ظلعك ، أى توقف .

(٢) اطونا على بلالتنا ؛ أى احتملنا على مافينا من إساءة .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا ؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ . فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، والسلام .

* * *

الشرح :

أرديتهم : أهلكتهم . وجيلا من الناس ، أي صِنفاً من الناس . والغيّ : الضلال . وجاروا : عدلوا عن القصد . ووِجهتهم ؛ بكسر الواو ، يقال : هذا وجه الرأى ، أى هو الرأى بنفسه ، والاسم الوِجه بالكسر ويجوز بالضم .

قوله : « وعوّلوا عَلَى أحسابهم » ؛ أى لم يعتمدوا على الدّين ؛ وإنما أردتهم الحميّة ونخوة الجاهلية، فأخلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بنى أميّة وخلفائهم الّذين اتّهموه عليه السلام بدم عثمان ، فحاموا عن الحسب ، ولم يأخذوا بموجب الشرع فى تلك الواقعة

ثم استثنى قوما فاءوا ، أى رجعوا عن نُصرة معاوية ؛ وقد ذكرنا فى أخبار صِفّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله : « حملتهم على الصعب » أى على الأمر الشاق ؛ والأصل فى ذلك البعير المستصعب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه .

* * *

[ذكر بعض ما دار بين علىّ ومعاوية من الكتب]

وأول هذا الكتاب :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبى سفيان ، أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خُسرها الآخرة ؛ فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومَنْ رأى الدنيا بعينها ، وقدّرها بقدرها ! وإنى لأعِظك مع علمى بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نفاذه ؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوىّ والرشيد ، فاتّق الله؛ ولا تكن ممن لا يرجو لله وقارا ، ومَنْ حقّت عليه كلمة العذاب ؛ فإنّ الله بالمرصاد . وإنّ دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرةً عليك ؛ فأقلع عمّا أنت عليه من الغىّ والضلال ، على كبر سنّك ، وفناء عمرك ؛ فإن حالك اليوم كحال الثوب المَهيل الذى لا يصلح من جانب إلّا فسد من آخر ، وقد أرديتَ جيلا من الناس كثيرا ، خدعتهم بغيّك . . . إلى آخر الكتاب .

قال أبو الحسن على بن محمد المدائنىّ : فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، أمّا بعد ؛ فقد وقفتُ على كتابك ، وقد أبيتَ على الفتن إلّا تماديا ، وإنّى لعالم أنّ الذى يدعوك إلى ذلك مصرعُك الذى

لا بدّ لك منه ؛ وإنْ كنت موائلا ، فازدد غيّاً إلى غيّـك ، فطالما خفّ عقلُك ، ومنّيت نفسك ماليس لك ، والتويت على مَنْ هو خير منك ؛ ثم كانت العاقبة لغيرك ، واحتملت الوِزْر بما أحاط بك من خطيئتك . والسلام .

فـكتب علىّ عليه السلام إليه :

أما بعـد ، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشَّبَه مما أتى به أهلُك وقومك الذين حملهم الـكفرُ وتمنّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسـلم حتى صُرعوا مصارعَهم حيث علمت ؛ لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيما ، وأنا صاحبهم فى تلك المواطن ، الصـالى بحرْبهم ، والفالّ لحـدّهم ، والقاتل لرءوسهم ورءوس الضلالة ، والمتْبِـع إن شـاء الله خلفَهم بسلَفهم ؛ فبئس الخلَف خلَفٌ أتبع سلفاً محله ومحطه النار . والسلام .

قال : فـكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فقـــد طال فى الغىّ ما استمررت أدراجك ، كما طالما تمـادى عن الحرب نـكوصُك وإبطاؤك ، فتوعد وعيد الأسد ، وترُوغ روَغان الثعلب ، فحتامَ تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعى القاتلة ، ولا تستبعدنّها ، فـكلّ ما هـو آت قريب إن شاء الله . والسلام .

قال : فـكتب إليه علىٌّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فما أعجب ما يأتينى منك ، وما أعلمنى بما أنت إليه صائر ! وليس إبطائى عنك إلّا ترقّبا لمـا أنت له مكذّب ؛ وأنا به مصدّق ! وكأنّى بك غـداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيجَ الجمـال من الأثقال ، وستدعونى أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتـكم ، وتجحدونه بقلوبكم . والسلام .

قال : فـكتب إليه معاوية :

أمّا بعد ، فدعنى من أساطيرك ، واكفُفْ عنّى من أحاديثك ، واقصر عن تقوّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغرور مَنْ معك والخداع لهم ؛ فقد استغويتَهم ، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أنّ ما جئت به باطل مضمحلّ . والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمابعد ؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرّجيم الحقّ[1] أساطير الأولين ، ونبذتموه وراء ظهوركم ، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ولعمرى ليتمنّ النّور على كرهك ، ولينفذنّ العلم بصَغارك ، ولتجازنّ بعملك ، فعِثْ فى دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ؛ فكأنك بباطلك وقد انقضى ، وبعملك وقد هوى ؛ ثم تصير إلى لظًى ؛ لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربك بظلام للعبيد !

قال : فكتب إليه معاوية :

أمّابعد ؛ فما أعظم الرّيْن على قلبك ، والغطاء على بصرك ! الشَّرَهُ من شيمتك ، والحسدُ من خليقتك ، فشمر للحرب ، واصبر للضّرْب ، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ماعلمت ، والعاقبة للمتقين . هيهات هيهات ! أخطأك ماتمنّى ، وهوى قلبك مع من هوى ؛ فاربَعْ على ظَلْعك ، وقِسْ شبرك بفِتْرِك ؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه ، ويفصل بين أهل الشك علمه . والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ مَساوِئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك ، وأن يرعوىَ قلبك ، يابن الصّخْر اللّعين ! زعمت أن يزن الجبالَ حلمُك ، ويفصل بين أهل الشك علمك ، وأنت الجِلْف المنافق ، الأغلف القلب ، القليل العقل ، الجبان الرّذْل ، فإن كنت صادقاً فيما تسطّر ، ويعينك عليه أخو بنى سَهْم ، فدع الناس جانباً ، وتيسر لما دعوتنى إليه من الحرْب ، والصبر على

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « للحق » .

الضرب ، واعفُ الفريقين من القتال ، ليعلم أيّنا المرِين على قلبه ، المغطَّى على بصره ، فأنا أبو الحسن ، قاتل جدّك وأخيك وخالك ، وما أنت منهم ببعيد ؛ والسلام !

***

قلت : وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر ـ وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة ـ أن يُفضيَ أمر علىٍّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية نِدًّا له ونظيرا مماثلا، يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه ، ولا يقول له علىّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها ، وأخشن مسًّا منها ، فليت محمدا صلى الله عليه وآله كان شاهدَ ذلك ؛ ليرى عِيانا لا خبرًا أنّ الدعوة التي قام بها، وقاسى أعظم المشاقّ فى تحمّلها ، وكابد الأهوال فى الذبّ عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتِها ؛ وشيّد أركانها ، وملأ الآفاق بها ، خلَصت صفوا عفوا لأعدائه الّذين كذبوه ؛ لما دعا إليها ، وأخرجوه عن أوطانه لما حضّ عليها ، وأدموْا وجهه ، وقتلوا عمّه وأهله ، فكأنّه كان يسعى لهم ، ويدأب لراحتهم ؛ كما قال أبو سفيان فى أيام عثمان ، وقد مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال : يا أبا عُمارة ! إنّ الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف أمسى فى يد غِلماننا اليوم يتلعّبون به ! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويةُ عليًّا، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء . . .

إذا عيّر الطائىَّ بالبخلِ مادِرٌ ⠀⠀ وقرّع قُسًّا بالفهاهــة باقــلُ
وقال السُّها للشمسِ : أنت خفيّةٌ ⠀⠀ وقال الدُّجى : يا صبح لونُك حائلُ
وفاخرتِ الأرضُ السماء سفاهةً ⠀⠀ وكاثرتِ الشهبَ الحصا والجنادلُ
فياموت زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ ⠀⠀ ويانفس جِدّى إنّ دهرَكِ هازلُ!

ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين عليه السلام : ليت شعرى ؛ لماذا فتح باب الكتاب

(١) لأبى العلاء ، سقط الزند ٥٣٣ .

والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرّض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لابدّ منهما فهلّا اكتفى بهما من غير تعرّض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله ، وبأشدّ منه : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] وهلّا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفيه الأحمق ، هذا مع أنه القائل : مَنْ واجَهَ الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون ! أي افتروا عليه وقالوا فيه الباطل .

أيّها الشاتمي لِتحسَبَ مثلي ... إنّما أنت في الضلال تَهيم[2]

لا تَسُبَّنَّني فلستَ بسِبّي ... إن سِبّي من الرجال الكريم[3]

وهكذا جرى في القنوت واللعن ، قنت بالكوفة على معاوية ، ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة ، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلميّ وحبيب بن مسلمة ، فبلغ ذلك معاوية بالشام ، فقنت عليه ، ولعنه بالصلاة ، وخطبة الجمعة ، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي ؛ ولعلّه عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنّا الآن ، ولله أمر هو بالغه !

---

(١) سورة الأنعام ١٠٨ . (٢) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو مسكيناً الدارمي .

(٣) السب : بالكسر : الذي يسابك .

(٣٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عَيْنِى بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِى أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمْىِ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ .

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّبِيبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ .

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا . والسلامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة فى السرّ يدعون إلى طاعته ، ويثبّطون العرب عن نصرة أميرِ المؤمنين ، ويوقعون فى أنفسهم أنه إمّا قاتلٌ لعثمان أو خاذل ، وإنّ الخلافة

لا تصلح فيمن قتل أو خذل ، ويشرون عنـدهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته ، فكتب أميرُ المؤمنين عليه السلام هـذا الكتاب إلى عامله بمكّة ، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة ، ولم يصرح فى هـذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم .

قوله : « عينى بالمغرب » ، أى أصحاب أخباره عند معاوية ، وسمّى الشام مغربا لأنه من الأقاليم المغربية .

والموسم : الأيام التى يقام فيها الحج .

وقوله : « ويحتلبون الدنيا درّها بالدّين » دلالة على ما قلنا : إنّهم كانوا دُعاة يظهرون سمت الدين ، وناموس العبادة ؛ وفيـه إبطال قول مَنْ ظنّ أنّ المراد بذلك السّرايا التى كان معاوية يبعثها ، فتُغيرُ على أعمال علىّ عليه السلام . ودرّها منصوب بالبـدل « من الدنيا » وروى : « الذين يلتمسون الحق بالباطل » أى يطلبونه ؛ أى يتبعون معاوية وهو على الباطل التماسا وطلبا للحقّ ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا .

قوله : « وإيّاك وما يعتذَر منه » من الـكلمات الشريفة الجليلة الموقـع ، وقد رويت مرفوعة ، وكان يقـال : ما شىء أشدّ على الإنسان من حمْل المروءة ، والمروءة ألا يعمل الإنسان فى غيبة صاحبه ما يعتذَر منه عند حضوره .

قوله : « ولا تـكن عند النعماء بطرا ، ولا عنـد البأساء فشلا » معنًى مستعمل ، قال الشاعر :

فلستُ بمفراحٍ إذا الدّهر سرّنِى ... ولا جازعٌ من صَرْفه المتقلّبِ
ولا أتمنّى الشرّ والشرّ تاركى ... ولـكنْ مَتَى أُحمل على الشرّ أركبِ

* * *

[قُثَم بن عباس وبعض أخباره]

فأما قُثَم بن العباس ، فأمّه أم إخوته ، وروى ابن عبد البرّ فى كتاب « الاستيعاب » عن عبد الله بن جعفر ، قال : كنت أنا وعبيد الله وقُثم ابنا العباس نلعب ، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم راكبا ، فقال : « ارفعوا إلىّ هذا الفتى » يعنى قُثم ـ فرفع إليه ! فأردفه خلفه ، ثم جعلنى بين يديه ، ودعا لنا ، فاستشهد قُثَم بسَمَرْقند .

قال ابن عبد البرّ : وروى عبد الله بن عباس ، قال : كان قُثَم آخرَ الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم أى آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه . قال : وكان المغيرة ابن شعبة يدّعى ذلك لنفسه ، فأنكر علىّ بن أبى طالب عليه السلام ذلك ، وقال : بل آخر مَنْ خرج من القبر قُثَم بن العباس .

قال ابن عبد البرّ : وكان قُثم واليا لعلىّ عليه السلام على مكة ، عزل علىٌّ عليه السلام خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومىّ ـ وكان واليها لعثمان ـ وولاها أبا قتادة الأنصارىّ ، ثم عزله عنها وولى مكانه قُثَم بن العباس ، فلم يزل واليه عليها حتى قتل علىٌّ عليه السلام . قال : هذا قول خليفة [٢] ، وقال الزّبير بن بكار : استعمل علىّ عليه السلام قُثم ابن العباس على المدينة .

قال ابن عبد البرّ : واستشهد قُثم بسَمَرْقَند ، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقتل هناك [١] .

قال : وكان قُثَم يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه يقول داود بن مسلم [٣] :

---

(١) الاستيعاب ٥٥١ ـ ٥٥٢ .

(٢) هو خليفة بن خياط الشيبانى المعروف بشباب ؛ محدث نسابة . وانظر طبقات الحفاظ ٢ : ٢١ .

(٣) فى الاستيعاب : « سليم » .

عُتِقْتِ من حِلٍّ ومن رحلةٍ يا ناقُ إن أدنيتِنِي من قُثَمْ

إنّكِ إن أدنيْتِ منه غداً حالفنِي اليُسر ومات العَدَمْ

في كفّه بحرٌ وفي وجهه بَدْرٌ وفي العِرْنِين منه شَمَمْ

أصمّ عن قيل الخنا سمعه وما على الخير به من صَمَمْ

لم يدرِ ما «لا» و بـ«لا» قد درَى فعافَها واعتاض منها نَعَمْ



(٣٤)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام :

إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجّده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفّي الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ ، وَلَا ازْدِيَادًا لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا ، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا ، فَرَحِمَهُ اللهُ ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَاقَى حِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ؛ أَوْلَاهُ اللهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ !

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشرح :

[محمد بن أبي بكر وبعض أخباره]

أم محمد رحمه الله أسماء بنت عُميس الخثعمية : وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله

عليه وآله ، وأخت لبـابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب ؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ؛ وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلمّا قتِل جعفر يوم مؤتة تزوّجها أبو بكر ، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا ، ثم مات عنها فتزوّجها عليّ عليه السلام ، وولدت له يحيى بن عليّ ، لا خلاف في ذلك .

وقال ابن عبد البر في " الاستيعاب " : ذكر ابن الكلبيّ أنّ عون بن عليّ اسم أمّه أسماء بنت عميس ، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره .

وقد روى أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له بنتا تسمى أمـة الله — وقيل أمامة — ومحمد بن أبي بكر ممن ولد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال ابن عبدالبرّ في كتاب " الاستيعاب " : ولد عام حجة الوداع في عقب ذي القعدة بذي الحليفة ، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ ، فسمّته عائشة محمدا ، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم ؛ ولم تكن الصحابة ترى بذلك بأسا ؛ ثم كان في حجْر عليّ عليه السلام ، وقتل بمصر ، وكان عليّ عليه السلام يُثنى عليه ويقرّظه ويفضّله ؛ وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد ؛ وكان ممّن حضر عثمان ودخل عليه ، فقال له : لو رآك أبوك لم يسرّه هذا المقام منك ! فخرج وتركه ، ودخل عليه بعده مَنْ قتله . ويقال : إنه أشار إلى مَنْ كان معه فقتلوه(١) .

* * *

قوله : « وبلغني موجدتك » ، أي غضبك ، وجدت على فلان مَوْجدة ، ووِجدانا لغة قليلة ؛ وأنشدوا :

كِلانَا ردّ صاحبَــهُ بغيظٍ ... على حَنَقٍ ووِجدانٍ شديدِ(٢)

---

(١) الاستيعاب ٢٤٢ .

(٢) لصخر الغي ؛ اللسان ، الصحاح (وجد) .

فأما فى الحزن فلا يقال إلا وَجَدت أنا بالفتح لا غير .

والجهد : الطاقة ، أى لم استبطئك فى بذل طاقتك ووسعك ، ومن رواها الجَهد بالفتح فهو من قولهم : اجهد جَهدك فى كذا ، أى ابلغ الغاية ، ولا يقال هذا الحرف هاهنا إلا مفتوحا .

ثمّ طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له : لو تمّ الأمر الذى شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتك بما هو أخفّ عليك مئونة وثقلا ، وأقلّ نصبا من ولاية مصر ، لأنه كان فى مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه .

ثم أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله : « وأعجب إليك ولاية » .

فإن قلت : ما الذى بيده ممّا هو أخفّ على محمد مئونة وأعجب إليه من ولاية مصر ؟

قلت : مُلك الإسلام كلُّه كان بيد علىّ عليه السلام إلّا الشام ، فيجوز أن يكون قد كان فى عزمه أن يولّيَه اليمن أو خراسان أو أرمينيَة أو فارس .

ثم أخذ فى الثناء على الأشتر وكان علىّ عليه السلام شديد الاعتضاد به ، كما كان هو شديد التحقّق بولايته وطاعته .

وناقما ، من نقمت على فلان كذا ، إذا أنكرته عليه وكرهته منه .

ثم دعا له بالرضوان ؛ ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ، ويدخله الجنّة ، ولا فرق عندى بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وياطُوبَى لمن حصل له من على عليه السلام بعض هذا !

قوله : « وأَصْحِر لعدوّك » أى ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التى أنت فيها ، أصحر الأسدُ من خِيسه ، إذا خرج إلى الصحراء .

وشمّر فلان للحرب ، إذا أخذ لها أُهبتَها .

(٣٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَادِحًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَرُكْنًا دَافِعًا .

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدْءًا ، فَمِنْهُمُ الْآتِي كَارِهًا ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا ؛ وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا .

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا ؛ فَوَاللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

* * *

الشرح :

انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرّجل قيادها ، وتملّكه زمامها ؛ واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسة سهلة، تتدفق من غير تعسّف ولا تكلّف ؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال : « يوما واحدا ، ولا ألتقى بهم أبدا » ، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا فى كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل

تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثر بيّن ، وعلامة واضحة ، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال : انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما .

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية. ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ؛ كيف قال : « ولدا ناصحا » ، « وعاملا كادحا » ، و « سيفا قاطعا » ، و « ركنا دافعا ، لو قال : « ولدا كادحا » و « عاملا ناصحا » ، وكذلك ما بعده لما كان صوابا ، ولا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ؛ لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربّ بين الشجعان ؛ لأن أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ، ولم يكونوا ذوي حرب ؛ وخرج أشجعَ من كلّ بشر مشى على الأرض ؛ قيل لخلف الأحمر : أيّما أشجع عنبسة وبسطام أم عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ، فقيل له : فعلى كلّ حال . قال : والله لو صاح في وجوههما لماتا قبلَ أن يحمل عليهما . وخرج أفصحَ من سحبان وقسّ ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ، كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا : أفصح العرب جُرْهم وإن لم تكن لهم نباهة . وخرج أزهدَ الناس في الدنيا ، وأعفّهم ؛ مع أنّ قريشا ذوو حرص ومحبة للدنيا ، ولا غروَ فيمن كان

محمد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرجه ، والعناية الإلهية تمدّه وترفُدُه أن يكون منه ما كان !

***

يقال : احتسب ولده ، إذا مات كبيرا ، وافترط ولدَه ، إذا مات صغيرا .

قوله : « فنهم الآتى ... » ، قسّم جنده أقساما ، فنهم من أجابه وخرج كارها للخروج، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾(١) ، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(٢) ، ومنهم مَنْ تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾(٣) . والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبى صلى الله عليه وآله ، ومَنْ تذكر أحوالها وسيرتهما ، وما جرى لهما إلى أن قبضا ، علم تحقيق ذلك .

ثمّ أقسم أنه لولا طمَعُه فى الشهادة لَمَا أقام مع أهل العراق ولا صحبهم .

فإن قلتَ : فهلّا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة ؟

قلت : ذلك لا يجوز ، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة ، وللشهادة شروط متى فقدت؟ فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى .

---

(١) سورة الأنفال ٦ .   (٢) سورة الأحزاب ١٣ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٣٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء ، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً ، وَنَكَصَ نَادِماً ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاوَلا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً ، بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ؛ فَلأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا .

فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ — وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ — مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً ، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً ، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِىءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدم ذكر هذا الكتاب فى اقتصاصنا ذكر حال بُسْر بن أرطاة وغارته على اليمن فى أول الكتاب .

ويقال: طفّلت الشمس ـ بالتشديد ـ إذا مالت للغروب ، وطفّل الليل ، مشدّدا أيضاً ، إذا أقبل ظلامه ، والطَّفَل ، بالتحريك : بعد العصر حين تطفُل الشمس للغروب ؛ ويقال : أتيته طَفَلى ؛ أى فى ذلك الوقت .

وقوله عليه السلام : « للإياب » أى للرجوع ، أى ما كانت عليه فى الليلة التى قبلها ، يعنى غيبوبتها تحت الأرض . وهذا الخطاب إنّما هو على قدْر أفهام العرب ؛ كانوا يعتقدون أنّ الشمس منزلها ومقرّها تحت الأرض ، وأنها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم ، ثم تعود إلى منزلها ، فتأوى إليه كما يأوى الناس ليلا إلى منازلهم .

وقال الراونديّ : « عند الإياب » عند الزوال : وهذا غير صحيح ، لأن ذلك الوقت لا يسمّى طَفَلا ، ليقال : إنّ الشمس قد طفّلت فيه .

قوله عليه السلام : « فاقتتلوا شيئاً كلا ولا » ، أى شيئاً قليلا ، وموضع « كلا ولا » نصب ، لأنه صفة « شيئاً » وهى كلمة تقال لما يستقصر وقته جدا ؛ والمعروف عند أهل اللغة: « كلاوذا » ، قال ابن هانئ المغربىّ :

وأسرعُ فى العين من لحظةٍ   وأقصرُ فى السمع من لا ، وذا

وفى شعر الكميت « كلا وكذا تغميضة »(١) .

وقد رويت فى "نهج البلاغة" كذلك ، إلّا أن فى أكثر النسخ : « كلا ولا » ، ومن الناس من يرويها : « كلا ولات » ، وهى حرف أُجرِىَ مجرى « ليس » ؛ ولا تجئ

---

(١) البيت بتمامه :

كَلَا وكذا تغميضةً ثمّ هِجتُمُ   لدى حين أن كانوا إلى النوم أفقرا

« حين » إلا أن تحذف فى شعر ، ومن الرواة من يرويها : « كلا ولأى » ، ولأى فِعْل ، معناه أبطأ .

قوله عليه السلام : « نجا جريضا » ، أى قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب ، يقال : جَرَض بريقه يجرِض بالكسر ، مثال كسر يكسِر ، ورجل جريض مثل قدَر يقدر فهو قدير ، ويجوز أن يريد بقوله : « فنجا جريضا » ، أى ذا جريض ، والجريض : الغصّة نفسها ، وفى المثل : « حال الجريض دون القريض » قال الشاعر :

كأنّ الفتى لم يغنَ فى الناس ليلةً إذا اختلف اللّحيان عند الجريضِ [١]

قال الأصمعىّ : ويقال : هو يجرَض بنفسه ، أى يكاد يموت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وأفلتهنّ علباء جَرِيضاً ولو أدركنه صَفِرَ الوطابُ [٢]

وأجرضه الله بريقه : أغصه .

قوله عليه السلام : « بعد ما أخذ منه بالمخنّق » ، هو موضع الخنق من الحيوان ، وكذلك الُخناق ، بالضمّ ؛ يقال أخذ بخُناقه ، فأما الِخناق بالكسر ؛ فالحبل تخنَق به الشاة . والرمَق : بقية الروح .

قوله عليه السلام : « فلأيًا بلأى ما نجا » ، أى بعد بطء وشدة ، وما زائدة أو مصدرية ، وانتصب « لأيا » على المصدر القائم مقام الحال ، أى نجا مبطئا ، والعامل فى المصدر محذوف أى أبطأ بطئا ؛ والفائدة فى تكرير اللفظة المبالغة فى وصف البطء الذى نجا موصوفه به ، أى لأيا مقرونا بلأى .

---

(١) لامرئ القيس ، ديوانه ٧٧ . (٢) ديوانه ١٣٨ .

وقال الراوندىّ : هذه القصة وهذا الهارب جريضا وبعد لأى ما نجا ، هو معاوية، قال: وقد قيل : إن معاوية بعث أمويًّا فهرب على هذه الحال ؛ والأوّل أصحّ ، وهذا عجيب مضحك وددت له ألا يكون شرح هذا الكتاب !

قوله : « فدع عنك قريشاً » إلى قوله : « على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله » ، هذا الكلام حقّ ، فإنّ قريشا اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه ، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحَرْبه ، كما كانت حالهم فى ابتداء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلّا أن ذاك عصمه الله من القتل ، فمات موتا طبيعيا ، وهذا اغتاله إنسان فقتله .

قوله : «فجزت قريشا عنّى الجوازى ، فقد قطعوا رحمى ، وسلبونى سلطانَ ابن أمّى» ، هذه كلمة تجرى مجرى المثل ، تقول لمن يسىء إليك وتدعو عليه : جزتك عنى الجوازى ! يقال جزاه الله بما صنع ، وجازاه الله بما صنع ! ومصدر الأول جزاء ، والثانى مجازاة ، وأصل الكلمة أن الجوازى جمع جازية كالجوارى جمع جارية ، فكأنه يقول : جَزَتْ قريشا عنّى بما صنعت لى كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة ، أى جعل الله هذه الدواهى كلّها جزاء قريش بما صنعت بى . وسلطان ابن أمّى ، يعنى به الخلافة ، وابن أمّه هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم ، أمّ عبد الله وأبى طالب ، ولم يقل سلطان ابن أبى ؛ لأنّ غير أبى طالب من الأعمام يشركه فى النسب إلى عبد المطلب .

قال الراوندىّ : الجوازى : جمعُ جازية ، وهى النفس التى تجزى ، أى جزاهم وفعل بهم ما يستحقون عساكر لأجلى وفى نيابتى ، وكافأهم سريّة تنهض إليهم ؛ وهذا إشارة إلى بنى أميّة يهلكون من بعده . وهذا تفسير غريب طريف .

وقال أيضا : قوله : « سلطان ابن أمّ » يعنى نفســه ، أى سلطانه ، لأنه ابنُ أمّ نفسه ، قال : وهذا من أحسن الكلام . ولا شبهة أنه على تفسير الراونديّ لو قال: وسلبونى سلطان ابن أخت خالتى ، أو ابن أخت عمتى ، لكان أحسن وأحسن ، وهـذا الرجـل قد كان يجب أن يُحجر عليه ، ولا يمكّن من تفسير هذا الكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألّا يتعرّض له

قوله : « فإن رأيى قتال المحِلّين » ، أى الخارجين من الميثاق والبيعة ، يعنى البُغاة ومخالفى الإمام ، ويقال : لكلّ من خرج من إســـلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحُرُم : مُحِلّ ، وعلى هذا فسر قول زُهَير :

* وكم بالقَنانِ من مُحِلّ ومُحرِم [١] *

أى من لا ذمة له ومن له ذمة ، وكذلك قولُ خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رَملة بنت الزبير بن العوّام :

ألا مَن لقلب معنًى غَزِلْ   يحبّ المحِلّة أختَ المحِـــلّ

أى ناقضة العهد أخت المحارِب فى الحَرَم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية .

وروى « متخضّماً متضرّعا » بالضاد .

ومقرّا للضيم وبالضيم ، أي هو راضٍ به ، صابرٌ عليه . وواهناً ، أى ضعيفا .

السلس : السهل : ومقتعِد البعير : راكبه .

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مِرْداس السُّلَمىّ ، ولم أجده فى ديوانه ، ومعناه ظاهر ، وفى الأمثال الحكمية : لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك ، فإنه إن كان صديقا أحزنْته ، وإن كان عدوّا أشمتّه ، ولا خير فى واحد من الأمرين .

---

(١) ديوانه ١١ وصدره :

* جَعَلْنَا القَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ *

(٣٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى طِلْبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ .

فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ . والسلام .

* * *

الشرح :

أوّل هذا الكتاب قوله :

أمّا بعد ، فإنّ الدنيا حُلوة خَضِرة ذات زينة وبَهجة ، لم يَصْبُ إليها أحدٌ إلّا وشغلته بزينتها عمّا هو أنفع له منها ، وبالآخرة أُمِرنا ، وعليها حُثِثنا ، فدعْ يا معاوية ما يَفنَى ، واعمل لما يَبقى ، واحذر الموتَ الّذى إليه مصيرُك ، والحسابَ الّذى إليه عاقبتك .

واعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا حالَ بينه وبين ما يَكرَه ، ووفّقه لطاعته ، وإذا أراد الله بعبد سوءا أغراه بالدنيا ، وأنساه الآخرة ، وبسَطَ له أمَلَه ، وعاقه عمّا فيه صلاحُه ، وقد وصلنى كتابُك فوجدتُك ترمى غيرَ غرضك ، وتَنشُد غيرَ ضالّتك ، وتخبط فى عَماية .

وتتيه في ضلالة ، وتعتصم بغير حجّة ، وتلوذ بأضعف شُبهة .

فأمّا سؤالك المتاركة والإقرار لك على الشام ، فلو كنتُ فاعلا ذلك اليوم لفعلتُه أمس .

وأما قولك : إن عُمرَ ولّاكه فقد عزل مَنْ كان ولّاه صاحبه ، وعزل عثمانُ من كان عمرُ ولّاه ولم ينصّب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمّة إماما قد كان ظهر لمن قبله ، أو أخفي عنهم عيبَه ، والأمر يحدُث بعده الأمرُ ، ولكلّ والٍ رأى واجتهاد . فسبحان الله ! ما أشدّ لزومَك للأهواء المتبدعة ، والحيرة المتّبعة . . . إلى آخر الفصل .

وأما قوله عليه السلام : « إنما نصرتَ عثمانَ حيث كان النصرُ لك . . . » إلى آخره ، فقد روَى البلاذريّ قال : لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه ، بعث يزيد بن أسد القَسْريّ ، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له : إذا أتيتَ ذا خُشُب فأقِم بها ، ولا تتجاوَزْها ، ولا تقل : الشاهدُ يرَى ما لا يرَى الغائب ؛ فإنّني أنا الشاهد ، وأنت الغائب .

قال : فأقام بذى خُشُب حتى قتل عثمان ، فاستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد إلى الشام بالجيش الذى كان أرسل معه ، وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمانَ فيدعوَ إلى نفسه .

* * *

وكتب معاوية إلى ابن عبّاس عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته ، ويقول له فيه :

ولَعَمْرى لو قتلتُك بعثمانَ رجوتُ أن يكون ذلك لله رضاً ، وأن يكون رأيا صوابا ، فإنّك من الساعين عليه ، والخاذلين له ، والسافكين دمَه ، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعك منّى ، ولا بيدك أمان.

فكتب إليه ابنُ عبّاس جوابا طويلا يقول فيه : وأمّا قولك إنّى من الساعين على عثمان ، والخاذلين له ، والسافكين دمَه ؛ وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعُك منّى.

فأقسم بالله لأنتَ المتربّص بقتله ، والمحبّ لهلاكه ، والحابس الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره ؛ ولقد أتاك كتابُه وصَريخُه يستغيث بك ويستصرِخ ، فما حَفَلْتَ به ، حتى بعثتَ إليه معذرا بأجرة ، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتل ، فقُتِل كما كنتَ أردت ، ثم علمتَ عند ذلك أن الناس لن يَعدِلوا بيننا وبينك ، فطفقتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دمَه ، وتقول : قُتِل مظلوما ، فإن يك قُتِل مظلوما فأنت أظلم الظالمين ، ثم لم تزل مصوِّبا ومصعِّدا ، وجاثما ورابضا ، تَستغوى الجهّال ، وتنازعنا حقّنا بالسفهاء ، حتّى أدركتَ ما طلبت ، ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[1] .



(١) سورة الأنبياء ١١١ .

(٣٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولَّى عليهم الأشتر :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ؛ أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ ، لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله ، لأنّ أهل مصرَ هم الّذين قتلوا عثمانَ ، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ فى الأرض ، فهذه شهادة قاطعة على عثمانَ بالعصيان ، وإتيان المنكر ، ويمكن أن يقال وإن كان متعسِّفاً : إنّ الله تعالى

عُصِيَ فى الأرض لا مِن عثمانَ ؛ بل من وُلاته وأمرائه وأهــله ، وذهب بينهم بحقّ الله ، وضرب الجوْر سُرادِقه بولايتهم،وأمرهم على البرّ والفاجر ، والمقيم والظّاعن ، فشاع المنكَر ، وفُقِدَ المعروف . يبق[1] أن يقال : هب أن الأمر كما تأوّلت ، فهؤلاء الّذين غَضِبوا لله إلى ماذا آل أمرُهم ؟ أليس الأمرُ آل[2] إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمانَ! فلا تعدُو حالهم أمرَين ، إلا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصيا مستحقّا للقتل ، أو يكونوا أسخطوا اللهَ تعالى بقتــله فعثمانُ إذاً على حقّ ، وهم الفسّاق العصاة ، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبهم خطابَ الصالحين ! ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّهم غضبوا لله ، وجاءوا من مصرَ ، وأنكروا على عثمانَ تأميرَه الأمراء الفسّاق ، وحصروه فى داره طلبا أن يدفع إليهم مرْوانَ ليحبسوه ، أو يؤدّبوه على ما كتبه فى أمرهم ، فلمّا حُصِر طمع فيه مُبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها ، وصار معظمُ الناس إلْبًا عليه ، وقلّ عدد المصريّين بالنسبة إلى ما اجتمع من النــاس على حصرِه ومطالبتِه بخلع نفسه ، وتسليم مروانَ وغيره من بنى أميّة إليهم ، وعزل عمّاله ، والاستبدال بهم ، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه ، ولكنّ قوما منهم ومن غيرهم تسوّروا دارَه ، فرماهم بعضُ عبيده بالسهام فجُرح بعضهم ، فقادت الضرورة إلى النزول والإحاطة به ، وتسرّع إليه واحــد منهم فقتَلَه . ثم إنّ ذلك القاتل قُتِل فى الوقت ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم ، وشرحناه ، فلا يلزم من فِسقِ ذلك القاتِل وعصيانِه أن يفسق الباقون ، لأنّهم ما أنكروا إلّا المنكَر ؛ وأمّا القتل فلم يقع منهم ، ولا راموه ولا أرادوه ، فجاز أن يقال : إنّهم غَضِبوا لله ، وأن يُثنى عليهم ويمدحهم .

ثم وصف الأشتر بما وصفَه به ، ومِثلُ قولِه : « لا ينام أيّام الخــوف » قولُهم : « لا ينام ليلة يخاف ، ولا يَشبَع ليلة يُضاف » ، وقال :

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « ينبغى » . (٢) ساقطة من ب .

فأتت به حُوشَ الفــؤاد مبطَّنا سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ (١)

ثم أمرهم أن يطيعوه فيا يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ ، وهــذا من شدّة دينه وصلابته عليه السلام ، لم يسامح نفسَه فى حقّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيْد ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصية الخالق » :

وقال أبو حنيفة : قال لى الربيع فى دِهلــيز المنصور : إنّ أمير المؤمنين يأمُرنى بالشىء بعد الشىء من أمورِ مُلكه ، فأنفذه وأنا خائف عــلى دِينى ، فما تقول فى ذلك ؟ قال ـ ولم يقل لى ذلك إلّا فى ملأ النــاس ـ : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ، قلت : فلا بأس عليــك أن تعمل بالحقّ ؛ قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادنى فاصطدتُه .

والذى صدع بالحق فى هــذا المقام الحسنُ البصرىّ ، قال له عُمر بن هُبيرة أمير العراق فى خلافة يزيدَ بن عبد الملك فى ملأٍ من الناس ، منهم الشعبىّ وابنُ سِيرين : يا أبا سعيد ، إنّ أمير المؤمنين يأمرنى بالشىء أعلم أنّ فى تنفيذه الهَلَـكةَ فى الدّين ، فما تقول فى ذلك ؟ قال الحسن : ماذا أقول ! إن الله مانعك من يزيدَ ، ولن يمنعك يزيدُ من الله ، يا عمر خَفِ الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخّض ليلتُه عن القيامــة ، إنه سينزل عليك مَلَك من السماء فيحطّك عن سَريرك إلى قصرِك ، ويضطرّك من قصرك إلى لزوم فراشِك ، ثم يَنقُلك عن فراشك إلى قبرِك ، ثم لا يُغنِى عنــك إلّا عملُك ؛ فقام عمر بن هُبيرة باكيا يصطكّ لسانُه .

قوله : « فإنه سيفٌ من سيوف الله » ، هذا لقبُ خالدِ بن الوليد ، واختُلف فيمن

---

(١) لأبى كبير الهذلى ، ديوان الحماسة ـ ، بشرح التبريزى ـ ٨٦ . الهوجل : الثقيل الكسلان .

لقّبه به ، فقيل : لقّبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنه لقّبه به أبو بكر ، لقتاله أهلَ الرِّدة ، وقتلِه مُسيلِمة .

والظُّبَـة ، بالتخفيف : حدُّ السيف . والنابى من السيوف : الّذى لا يَقطـع ؛ وأصلُه نبا ، أى ارتفع ؛ فلمّا لم يَقطَع كان مرتفعا ، فسمّىَ نابيا ؛ وفى الـكلام حذفٌ تقديرُه : ولا نابٍ ضارب الضريبة ، وضارب الضريبة هو حدّ السيف ، فأما الضريبة نفسها فهو الشىء المضروبُ بالسيف ، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى « مَفْعول » لأنّه صار فى عداد الأسماء ، كالنطيحة والأكِيلة .

ثم أمرهم بأن يطيعوه فى جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام ، وقال : إنه لا يقدّم ولا يؤخّر إلّا عن أمرى ، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَمَحَ له أن يعمل برأيه فى أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدّا ؛ لأنه يكون قـد أقامه مقامَ نفسه . وجاز أن يقول : إنه لا يفعل شيئاً إلاّ عن أمرى ، وإن كان لا يُراجعه فى الجزئيّات على عادة العرب فى مثل ذلك ؛ لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحوَ ذلك ، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليّين إلى أن الله تعالى قال لمحمّد صلّى الله عليه وآله : احكمْ بما شئتَ فى الشريعة ، فإنّك لا تحـكُم إلاّ بالحق ، وإنه كان يحكم من غير مراجعته لجبرائيل ، وإنّ الله تعالى قد قال فى حقّه : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] ، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر ، لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألاّ يعمل شيئاً قليلا ولا كثيرا إلاّ بعـد مراجعته ، فيجوز ، ولـكنّ هـذا بعيد ، لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر ، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد .

ثم ذكر أنه آثرهم به على نفسه ، وهكذا قال عمر لمّا أنفذ عبدَ الله بن مسعود إلى الـكوفة فى كتابه إليهم : قد آثرتُـكم به على نفسى ؛ وذلك أنّ عمر كان يستفتيه فى الأحكام ، وعلىّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر ، ويقوى أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم ، فلمّا بعثه إلى مصرَ كان مؤثِراً لأهل مصرَ به على نفسه .

---

(١) سورة النجم ٣ ، ٤

(٣٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

فَإنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ . فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ .

فَإِنْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ وَمِنَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا . وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه ، لم يحمله بغضُه لها ، وغيظُه منهما ، إلى أن بالغ في ذمّهما به ، كما يبالغ الفُصَحاء عند سَوْرة الغضب ، وتدفّق الألفاظ على الألسنة ، ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوي الإنصاف أنّ عمرًا جعل دينَه تبعاً لدنيا معاوية ، وأنّه ما بايعه وتابعه إلّا على جَعالة جعلها له ، وضمانٍ تكفّل له بإيصاله ، وهيَ ولاية مصر مؤجّلة ، وقطعة وافرة من المال معجّلة ، ولولدَيه وغلمانه ما ملأ أعينهم .

فأما قوله عليه السلام في معاوية : « ظاهرٌ غيُّه » ، فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيه ؛ وكلُّ باغٍ غاوٍ .

أمّا مهتوك سِتْره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جُلَساء وسمّار ، ومعاوية لم يتوقّر ، ولم يلزم قانون الرياسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلّا فقد كان فى أيام عثمانَ شديد التهتّك ، موسوما بكلّ قبيح ، وكان فى أيام عمر يستر نفسَه قليلا خوفا منه ، إلّا أنه كان يلبس الحرير والدّيباج ، ويَشرَب فى آنية الذهب والفضّة ، ويركب البَغلات ذواتِ السّروج المحلّاة بها ، وعليها جِلال الدّيباج والوَشْى ؛ وكان حينئذ شابًّا ، وعنده نَزَق الصِّبا ، وأثَر الشبيبة ، وسكْر السلطان والإمْرة ؛ ونقل الناسُ عنه فى كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر فى أيّام عثمان فى الشام ، وأمّا بعد وفاةِ أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيــه ، فقيل : أنه شرب الخمر فى ستر ، وقيل : إنه لم يَشربه . ولا خلاف فى أنه سمعَ الغناء وطرب عليه ، وأعطى ووصل عليه أيضاً.

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ قال : قال عَمرو بن العاص لمعاوية فى قَدْمةٍ قدِمها إلى إلى المدينة أيّام خلافته : قم بنا إلى هذا الّذى قد هدَم شرفَه ؛ وهتَك سِتْره ، عبد الله ابن جعفر ، نقف على بابه ، فنَسمَع غناء جواريه ، فقاما ليلا ومعهما وَرْدانُ غلامُ عَمرو ، ووقفَا بباب عبد الله بن جعفر ، فاستَمعَا الغناء وأحسّ عبدُ الله بوقوفهما ، ففتحَ الباب ، وعزَم على معاوية أن يدخل ، فدخل ، فجلس على سرير عبد الله ، فدعا عبد الله له وقدّم إليه يسيرا من طعام ، فأكل ، فلمّا أنِس قال : يا أمير المؤمنين ، ألا تأذن لجواريك أن يتممن أصواتَهنّ ، فإنّك قطعتَها عليهنّ ؟ قال : فليقلن ، فرفعن أصواتهنّ ، وجعل معاوية يتحرّك قليلا قليلا حتّى ضرب برجله السرير ضربا شديدا ، فقال عمرو : قم أيّها الرجل ، فإنّ الرجل الذى جئت لتَلحاه أو لتَعجب من أمره أحسنُ حالًا منك . فقال : مهْلا ، فإن الكريم طروب !

***

أما قوله: « يشين الكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخُلطته » : فالأمر كذلك ، فإنه لم يكن في مجلسه إلّا شتم بني هاشم وقَذْفهم ، والتعرّضُ بذكر الإسلام ؛ والطعن عليه ، وإن أظهر الانتماء إليه . وأما طلب عمرو فَضْله واتباعه أثره اتباعَ الكلاب للأسد فظاهر ، ولم يقل : الثعلب ، غضًا من قدر عمرو ، وتشبيهًا له بما هو أبلغُ في الإهانة والاستخفاف .

ثم قال : « ولو بالحقّ أخذتَ أدركتَ ما طلبت » ، أي لو قعدتَ عن نصره ولم تشخص إليه ممالئًا به على الحقّ لوَصَل إليك من بيت المال قدر كفايتك .

ولقائل أن يقول : إن عمرًا ما كان يطلب قدرَ الكفاية وعليّ عليه السلام ما كان يعطيه إلّا حقَّه فقط ، ولا يعطيه بلدا ولا طرَفا من الأطراف ، والذي كان يطلبُ ملكَ مصرَ ، لأنه فتحها أيام عمرَ ووليها بُرهة ، وكانت حسرةً في قلبه ، وحزازة في صدره ، فباع آخرته بها ، فالأولى أن يقال : معناه لو أخذتَ بالحقّ أدركت ما طلبت من الآخرة.

فإن قلت : إن عمرًا لم يكن عليّ عليه السلام يَعتقِد أنه من أهل الآخرة ، فكيف يقول له هذا الكلام ؟

قلت : لا خَلَل ولا زَلَل في كلامه عليه السلام ، لأنه لو أخذ بالحقّ لكان معتقدا كون عليّ عليه السلام على الحقّ باعتقاده صحة نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصحة التوحيد ، فيصير تقديرُ الكلام : لو بايعتَني معتقداً للزوم بَيْعتي لك لكنت في ضِمن ذلك طالبا الثواب ، فكنت تدركه في الآخرة .

ثم قال مهدّدا لهما ، ومتوعّدا إياهما : « فإن يُمكِنِ اللهُ منك ومن ابن أبي سفيان » ، وأقول : لو ظفر بهما لما كان في غالب ظنّي يقتلهما ، فإنّه كان حليما كريما ، ولكن كان يَحبِسهما ليَحسِم بحبسهما مادّة فسادِهما .

ثم قال : « وإن تُعجزا وتبقيا »، أى وإن لم أستطع أخذَ كما أو أمُتْ قبلَ ذلك وبقيتُما بعدى، فما أمامَكما شرٌّ لكما من عقوبة الدنيا ؛ لأن عذاب الدنيا منقطع ، وعذاب الآخرة غيرُ منقطع .

* * *

وذكر نصرُ بن مزاحم فى كتاب „ صِفِّين " هذا الكتاب بزيادةٍ لم يذكُرْها الرّضيّ . قال نصرُ : وكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

من عبدِ الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى الأبتر ابن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل ، شانئ محمدٍ وآلِ محمدٍ فى الجاهلية والإسلام ، سلامٌ على من اتّبع الهدى ، أما بعد ، فإنّك تركتَ مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره ، يشين الكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخلطته ، فصار قلبُك لقلبه تبَعًا ، كما قيل : « وافقَ شنٌّ طبَقة » فسلَبك دينَك وأمانتَك ودنياك وآخرتَك ، وكان علمُ الله بالغًا فيك ، فصرتَ كالذئب يتبع الضِّرغام إذا ما الليل دَجى، أو أتى الصبح يلتمس فاضلَ سؤره ، وحَوايَا فريسته ، ولكن لا نجاةَ من القدَر ، ولو بالحقّ أخذتَ لأدركتَ ما رجوتَ ، وقد رَشد من كان الحقّ قائدَه ، فإن يُمكِنِ الله منك ومِن ابن آكلة الأكباد ، ألحقتُكما بمن قتله الله من ظَلَمة قريش على عهدِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإن تُعجزا وتَبقيا بعدُ ؛ فالله حَسْبُكما ، وكفى بانتقامه انتقاما ، وبعقابه عقابا ! والسلام .

(٤٠)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أمّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِى عَنْكَ أمْرٌ إنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أسْخَطتَ رَبَّكَ ، وَعَصَيْتَ إمَامَكَ ، وَأخْزَيْتَ أمَانَتَكَ . بَلَغَنِى أنَّكَ جَرَّدْتَ الأرْضَ فَأخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ، وَأكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إلَىَّ حِسَابَكَ ، وَاعْلَمْ أنَّ حِسَابَ اللهِ أعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ ؛ والسلام .

* * *

الشَّـرْحُ :

أخزيْتَ أمانتك : أذلَلْتَها وأهنتها ، وجرّدت الأرض : قشرتَها ؛ والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة فى المال ، وإلى إخراب الضّياع ، وفى حكمة أبرويزَ أنّه قال لخازن بيتِ المـالِ : إنّى لا أحتملك على خيانة دِرهم ، ولا أحمَدك على حفظِ عشرة آلاف ألف درهم ، لأنّك إنّما تحقِن بذلك دمَك ، وتعمُر به أمانتك ، وإنك إن خنتَ قليلا خنتَ كثيرا ، فاحترس من خَصلتين : من النقصان فيا تأخـذ ، ومن الزيادة فيا تُعطِى ؛ واعلم أنّى لم أجعلك على ذخائر الملك ، وعمارة المملكة ، والعدّة على العدوّ ، إلّا وأنت أمينٌ عنـدى من الموضع الّذى هى فيه ، ومن خوائها الّتى هى عليهـا ، فحقّق ظنى فى اختيارى إيّاك أحقّق ظنّك فى رجائك لى ، ولا تتعوّض بخير شرّا ، ولا برفعةٍ ضعة ، ولا بسلامةٍ ندامة ، ولا بأمانةٍ خيانة .

وفى الحديث المرفوع : « من وَلِىَ لنا عَمَلا فليتزوّج، وليتّخذ مَسكنا ومَركبًا وخادما ، فمن اُتّخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادِلا غالّا سارقا » .

وقال عمر فى وصيّته لابن مسعود : إيّاك والهديّة ، وليست بحرام ، ولكنى أخافُ عليك الدّالّة .

وأهدى رجلٌ لعمرَ فخذَ جزور فقبِله ، ثم ارتفع إليه بعد أيّام مع خصم له ، فجعل فى أثناء الكلام يقول : يا أميرَ المؤمنين ، افصِل القضاء بينى وبينه كما يُفصَل فخِذُ الجزور . فقضى عمرُ عليه ، ثم قام فخطب الناسَ ، وحرّم الهدايا على الوُلاة والقُضاة .

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سِراجاً من شَبَهٍ ، وأهدَى آخر إليه بَغلا ، ثم اتفقت لهما خصومة فى أمر فترافَعا إليه ، فجعل صاحبُ السراج يقول : إنّ أمرى أضوأ من السّراج ؛ فلمّا أكثر قال المغيرة : وَيْحَك ، إنّ البغل يَرْمح السراجَ فيكسره .

ومرّ عمرُ ببناء يُبنَى بآجُرٍّ وجِصٍّ لبعض عمّاله فقال : أبت الدراهمُ إلّا أن تُخرج أعناقَها . ورُوِى هذا الكلامُ عن علىّ عليه السلام ؛ وكان عمرُ يقول : على كلّ عاملٍ أمينان : الماء والطِّين .

ولمّا قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر : ياعدوّ الله وعدوّ كتابه ، أسَرقتَ مالَ الله تعالى ؟ قال أبو هريرة : لستُ بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه ، ولكنّى عدوّ مَنْ عاداهما ، ولم أسرق مالَ الله . فضربَه بجريدة على رأسه ، ثم ثناه بالدِّرّة ، وأغرمَه عشرة آلاف درهم ، ثم أحضره ، فقال : يا أبا هريرة ، من أين لك عشرة آلاف درهم ؟ قال : خيلى تناسَلَتْ ، وعطائى تلاحَقَ ، وسهامى تتابعتْ ، قال عمر : كلّا والله . ثم تركه أيّاما ، ثم قال له : ألا تعمل ؟ قال : لا ، قال : قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة ، قال : مَن هو ؟ قال : يوسفُ الصّدّيق ، فقال أبو هريرة : إنّ يوسفَ عَمِل لمن لم يضرب رأسه

وظهرَه ، ولا شتمَ عِرضَه ، ولا نزع ماله ، لا والله لا أعمل لك أبداً .

وكان زياد إذا ولّى رجلا قال له : خذ عهدَك ، وسرْ إلى عَملِك ، واعلم أنّك محاسب رأسَ سنتك ، وأنّك ستصير إلى أربع خصال ، فاختر لنفسك : إنّا إنْ وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلْنا بك لضَعْفك ، وسلّمْتك من معرّتنا أمانتُك ، وإن وجدناك خائناً قويّاً استعنّا بقوّتك ، وأحسنّا أدبك على خيانتك ، وأوجعْنا ظهرَك ، وأثقلنا غُرْمَك : وإن جمعت علينا الجُرْمَيْن ، جمعْنا عليك المضرّتين ، وإن وجدناك أميناً قويّاً زدْنا رزقك ، ورفعْنا ذِكرَك ، وكثّرنا مالك ، وأوطأْنا الرجال عَقِبك .

ووصف أعرابيٌّ عاملا خائناً فقال : الناس يأكلون أماناتِهم لُقَماً ، وهو يحسوها حَسْواً .

قال أنَس بن أبي إياس الدّؤليّ[1] لحارثة بن بدر الغُدانيّ — وقد ولِيَ سُرَّق — ويقال إنّها لأبي الأسود[2] :

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَلِيتَ ولايةً ⁂ فكنْ جُرَذاً فيها تَخُون وتسرِقُ

ولا تحقِرنْ يا حار شيئاً أصبتَه ⁂ فحظّك من ملك العراقين سُرَّقُ[3]

وباهِ تميماً بالغِنى إنّ للغنى ⁂ لساناً به المرءُ الهيوبةُ يَنطق[4]

فإنّ جميعَ الناس إمّا مكذِّب ⁂ يقول بما تَهوَى وإمّا مصدِّق

يقولون أقوالا ولا يَتْبعونَها ⁂ وإن قيل : هاتوا حقِّقوا لم يحقِّقوا

فيقال : إنّها بلغتْ حارثةَ بن بدر فقال : أصاب الله به الرشاد ، فلم يَعْدُ بإشارته ما في نفسي !

---

(١) في الكامل : « أنس بن أبي أنيس » .

(٢) ممن نسبها إلى أبي الأسود ياقوت في معجم البلدان ٥ : ٧٣ .

(٣) سرق : إحدى كور الأهواز.   (٤) الهيوبة : الجبان.

(٤١)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتَكَتْ وَشَغَرَتْ ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ .

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ .

فَسُبْحَانَ اللهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ ! أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً ، وَتَشْرَبُ حَرَاماً ، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَـذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ !

فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ ، لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَـدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُـذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا .

وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي ، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحِّ رُوَيْدًا ، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيـهِ بِالْحَسْرَةِ ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ !

***

الشَّـرْحُ :

أشركتك فى أمانتى : جعلتك شريكا فيما قمتُ فيـه من الأمر ، وائتمنني الله عليه من سياسة الأمّة ، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعـالى التـكليف أمانةً فى قوله : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة ﴾[1]. فأمّا قوله : وأداء الأمانة إلىّ فأمرٌ آخر ، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم : فلان ذو أمانة ، أى لا يخون فيما أسند إليه .

وكلِب الزمان : اشتدّ ؛ وكذلك : كلِب البردُ .

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

وحرِب العدوّ : استأسد . وخزيتْ أمانة الناس : ذلّت وهانت .

وشَغَرت الأمّة : خلت من الخير ، وشَغَر البلد : خلا من الناس .

وقلبتُ له ظهر المجنّ : إذا كنت معه فصرت عليه ؛ وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدوّ وكانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ ، وبطون مجانّهم إلى وجه عسكرهم ، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدوّ كان وضع مجانّهم بدلا من الوضع الذى كان من قبل ، وذلك أنّ ظهور الترسة لا يمكن أن تكون إلا فى وجوه الأعداء ، لأنها مَرمى سهامهم .

وأمكنتك الشدة ، أى الحلة .

قوله : « أسرعت الكرّة » ، لا يجوز أن يقال : الكرّة إلا بعد فرّة ، فكأنه لما كان مقلعا فى ابتداء الحال عن التعرّض لأموالهم ، كان كالفارّ عنها ، فلذلك قال : أسرعت الكرّة .

والذئب الأزلّ : الخفيف الوَرِكين ، وذلك أشدّ لعدْوه ، وأسرع لوثبته ، وإن اتفق أن تكون شاةٌ من المِعزى كَثيرة ودامية أيضا ، كان الذئب على اختطافها أقدر .

ونقاش الحساب : مناقشته .

قوله : « فضحّ رُويدا » ، كلمة تقال لمن يؤمر بالتُّؤدة والأناة والسكون ، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحًى ، ويسيّرها مسرعا ليسير ، فلا يشبعها ، فيقال له : ضَحِّ رويدا .

* * *

[اختلاف الرأى فيمن كتب له هذا الكتاب]

وقد اختلف الناس فى المكتوب إليه هذا الكتاب ، فقال الأكثرون : إنه عبد الله ابنُ العباس رحمه الله ، وروَوْا فى ذلك روايات ، واستدلّوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب

كقوله : « أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك بطانتى وشعارى ، وأنه لم يكن فى أهلى رجل أوثق منك » ، وقوله : « على ابن عمّك قد كلب » ، ثم قال ثانيا : « قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجنّ » ثم قال ثالثا : « ولابن عمك آسيت » ؛ وقوله : « لا أبا لغيرك » ، وهـذه كلمة لا تقال إلا لمثله ، فأما غيره من أفناء الناس ، فإن عليًّا عليه السلام كان يقول : لا أبا لك .

وقوله : « أيها المعدود كان عندنا من أولى الألباب» . وقوله: « لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام » ، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجرى مجراهما عنده .

وقد روَى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى علىّ عليه السلام جوابا من هذا الكتاب ، قالوا : وكان جوابه :

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظم علىّ ما أصبتُ من بيت مال البصرة ، ولعمرى إنّ حقى فى بيت المال أكثر مما أخذتُ ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ من العجب أن تزيّن لك نفسك أنّ لك فى بيت مال المسلمين من الحقّ أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنّيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من المأثم ، ويُحلّ لك المحرم ، إنك لأنت المهتدى السعيد إذاً ! وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عَطنا ، تشترى بها مولّدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهنّ على عينك ، وتعطى فيهنّ مال غيرك ، فارجع هدَاك الله إلى رُشدك ، وتبْ إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فعمّا قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت ، وتغيب فى صَدَع من الأرض غير موسَّد ولا ممهّد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عمّا خلفت ، فقيرا إلى ما قدّمت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه ابن عباس :

أمّا بعد ، فإنك قد أكثرت علىّ ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها ، وذهبها وعقيانها وَلُجَيْنها ، أحبُّ إلىّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم . والسلام .

* * *

وقال آخرونَ وهم الأقلون : هـذا لم يكن ، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليًا عليه السلام ، ولا باينه ولا خالفه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل علىّ عليه السلام .

قالوا : ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ من كتابه الذى كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل علىّ عليه السلام ، وقد ذكرناه من قبل ، قالوا : وكيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية ، ويجرّه إلى جهته ، فقد علمتم كيف اختدع كثيرا من عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستمالهم إليه بالأموال ، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فما بالُه وقد علم النّبوة التى حدثَتْ بينهما ، لم يستمِل ابنَ عباس ، ولا اجتذبه إلى نفسه ؛ وكلّ من قرأ السِّير وعرف التواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة علىّ عليه السلام ، وما كان يلقاه به من قوارعِ الكلام ، وشديد الخصام ، وما كان يثنى به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله ، ويصدع به من مناقبه ومآثره ، فلو كان بينهما غبار أو كدر لما كان الأمر كذلك ، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما اشتهر من أمرهما .

وهذا عندى هو الأمثل والأصوب .

وقد قال الراوندىّ : المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس ، لا عبد الله ؛

وليس ذلك بصحيح ، فإنّ عبيد الله كان عامل علىّ عليه السلام على اليمن ، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم ، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا ، ولا فارق طاعة .

وقد أشكل علىّ أمرُ هذا الكتاب ، فإن أنا كذّبت النقل وقلتُ : هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام ، خالفتُ الرواة ، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه ، وقد ذُكِر فى أكثر كتب السيَر . وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّنى عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام فى حياته وبعد وفاته . وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام ؛ والكلامُ يشعر بأنّ الرجل المخاطَب من أهله وبنى عمه ، فأنا فى هذا الموضع من المتوقفين !



(٤٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومى ، وكان عامله على البحرين ، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرَقى مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْثُومٍ ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي ؛ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

الشرح :

[عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره]

أمّا عمر بن أبي سَلَمة فهو رَبيبُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وأبوه أبو سَلَمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، يكنّى أبا حفص ، وُلد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة ، وقيل : إنه كان يومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين ، وتوفّيَ في المدينة في خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقد حفظ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله الحديث ، وروَى عنه سعيد بن المسيَّب وغيره ، ذكر

ذلك كلّه ابن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " .

* * *

[النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره]

وأما النّعمان بن عجلان الزُّرَقىّ فمن الأنصار ، ثم من بنى زُرَيق ، وهو الّذى خَلَف على خولة زوجة حمزةَ بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله ، قال [ابن] عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : كان النّعمان هـــذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلا أحمر قصيرا تزدريه العين ، إلّا أنه كان سيّدا ، وهو القائل يومَ السَّقيفة :

وقلتم حرامٌ نصبُ سعدٍ ونصبكمْ   عتيق بن عثمان حــلالٌ أبا بكرِ
وأهلُ أبو بكرٍ لهــا خيرُ قائمٍ   وإنّ عليــــا كان أخلقَ بالأمرِ
وإنّ هَوانــــا فى علىّ وإنه   لأهلٌ لها من حيث يدرى ولا يدرِى

قوله : « ولا تثريب عليك » ، فالتثريب الاستقصاء فى اللوم ؛ ويقــال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحتَ عليه فعله .

والظَّنِين : المتّهم ؛ والظِّنّة التّهمة ، والجمع الظِّنَن ؛ يقول : قد اظّنّ زيد عمرا ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضا ، وجاء بالطاء المهملة أيضاً ، أى اتّهمه. وفى حديث ابن سيرين: لم يكن علىّ عليه السلام يظّنّ فى قتل عثمان ، الحرفان مشدّدان وهو يَفتَعِل من « يَظّنّ » وأُدغِم ، قال الشاعر :

وما كلُّ مَنْ يَظّنُّنِى أنــا مُعْتِبٌ   وما كلّ ما يُرْوَى علىّ أقولُ (١)

---

(١) الصحاح ٢١٦١ من غير نسبة .

(٤٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ وكان عامله على أردشير خرّة :

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ؛ إِنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ ـ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ـ فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ؛ لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً ، لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً ، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَـذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ ؛ يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ .

* * *

الشَّــرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب مَصقَلة بن هُبيرة . وأردشير خرّة : كُورةٌ من كُوَر فارس .

واعتامَك : اختارَك من بين الناس ، أصلُه من العِيمة بالكسر ، وهى خيارُ المال ، اعتام المصَدِّق إذا أخذ العِيمة ، وقد رُوِى : « فيمن اعتماك »[1] بالقلب ، والصحيح

---

(١) ب : « اعتامك » ؛ والصواب ما أثبته من ا .

المشهور الأوّل ، وروى : « ولتجدنّ بك عندى هوانا » بالباء ، ومعناها اللام ؛ ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندى ، والباء تَرِد للسببيّة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[1] .

والمَحْق الإهلاك .

والمعنى أنّه نهى مصقلة عن أن يقسم الفىء على أعراب قومه الّذين اتّخذوه سيّدا ورئيسا ، ويَحْرِم المسلمين الذين حازُوه بأنفسهم وسلاحهم ؛ وهذا هو الأمر الّذى كان يُنْكِره على عثمان ، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفَىْء ؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفًى .



(١) سورة النساء ١٦٠ .

(٤٤)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَاحْذَرْهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِه حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ .

* * *

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

قَوْلُه عليه السلام : « الوَاغِلُ » ، هو الذي يَهجُمُ على الشَّرْبِ ليشربَ معهمْ وليس منهمْ ، فَلا يَزالُ مُدَفَّعاً مُحاجَزاً . والنَّوْطُ المُذَبْذَبُ : هو ما يُناطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ من قَعْبٍ أوْ قدَحٍ ، أوْ ما أشبهَ ذلكَ ، فهوَ أبداً يتقلقلُ إذا حثَّ ظهرَهُ ، واستعجلَ سيرَهُ .

* * *

الشَّرْح :

يستزلّ لبّك ، يطلب زلله وخطأه ، أي يحاول أن تزلّ . واللبّ : العقل . ويستفلّ غَرْبك : يحاول أن يفلّ حدّك ، أي عزمك ، وهذا من باب المجاز . ثم أمَرَه أن يحذره ، وقال : إنه — يعنى معاوية — كالشّيطان يأتى المرء من كذا ومن كذا ، وهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(١) ؛ قالوا فى تفسيره : من بين أيديهم : يُطمعهم فى العفو ويغريهم بالعصيان(٢) ، ومِن خلفهم : يذكرهم مخلّفيهم ، ويُحسّن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيمانهم : يحبّب إليهم الرياسة والثّناء ، وعن شمائلهم : يحبّب إليهم اللّهوَ واللذّات .

وقال شقيق البلخىّ : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدىّ ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، أمّا من بين يدىّ فيقول : لا تخفْ فإنّ الله غفور رحيم ، فأقرأ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(٣) ، وأما من خلفى فيخوّفنى الضيعة على مخلّفى ، فأقرأ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٤) ؛ وأما من قِبَل يمينى فيأتينى من جهة الثناء ، فأقرأ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٥) ، وأما من قِبَل شمالى فيأتينى من قِبَل الشهوات ، فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾(٦) .

فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل : « ومن فوقهم ومن تحتهم » ؟

---

(١) سورة الأعراف ١٧ .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب « فى العصيان » .
(٣) سورة طه ٨٢ .
(٤) سورة هود ٦ .
(٥) سورة القصص ٨٣ .
(٦) سورة سبأ ٥٤ .

قلت : لأن جهة « فوق » جهةُ نزول الرحمة ، ومستقرّ الملائكة ، ومكان العرش ، والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها ؛ وأما من جهة « تحت » فلأن الإتيانَ منها يُوحِش ، وينفِّر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدْعَى إلى قبول وَساوِسه وأضالِيله .

وقد فسّر قوم المعنى الأوّل فقالوا : « من بين أيديهم » ، من جهة الدنيا ، و « من خلفهم » . من جهة الآخرة ؛ و « عن أيمانهم » ، الحسنات ؛ و « عن شمائلهم » ، أى يحثّهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبّطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات .

قوله : « ليقتحم غفلته » أى ليلجَ ويهجم عليه وهو غافل ؛ جعل اقتحامه إياه اقتحاما للغِرّة نفسها لما كانت غالبةً عليه .

ويستلب غرّته ، ليس المعنى باستلابه الغِرّة أن يرفعها ويأخذها ، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغترّ فاقدا للغفلة والغِرّة ، وكان لبيبا فطنا ، فلا يبقى له سبيل عليه ، وإنما المعنى بقوله : « ويستلب غِرّته » ما يعنيه الناس بقولهم : أخذ فلانٌ غفلتى وفعل كذا .

ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتى .

وفلتة: أمرٌ وقع من غير تثبت ولا رويّة .

ونَزْغَة : كلمة فاسدة ، من نزغات الشيطان ، أى من حركاته القبيحة التى يستفسد بها مكلفين ، ولا يثبتُ بها نسب ، ولا يستحقّ بها إرث ، لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ، ولا يرثه المولود ، لقوله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

***

[نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكُتُبه وخطبه]

فأما زياد ، فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول : عبيد بن فلان ، وينسبه إلى

ثقيف ، والأكثرون يقولون : إن عبيدا كان عبدا ، وإنه بـقى إلى أيام زياد ، فابتاعه وأعتقه ؛ وسنذكر ما ورد فى ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه ، والدّعوة التى استلحق بها ؛ فقيل تارةً : زياد بن سميّة ، وهى أمه ، وكانت أمةً للحارث بن كلَدَة بن عمرو بن علاج الثقفىّ ، طبيب العرب ، وكانت تحت عبيد .

وقيل تارة زياد بن أبيه ، وقيل تارة : زياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سفيان ، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرّهبة والرّغبة ، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتبـاع الملوك إلا كالقطْرة فى البحر المحيط ، فأما ما كان يدعى به قبـل الاستلحاق فزياد بن عبيد ، ولا يشك فى ذلك أحد .

وروى أبو عمرَ بن عبدالبرّ فى كتاب ‹‹الاستيعـاب›› عن هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، أنّ عمر بعث زيادا فى إصـلاح فساد واقع باليمن ، فلمّا رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مِثْلها ـ وأبو سفيان حاضر وعلىٌّ عليه السلام وعمرُو بن العاص ـ فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام! لو كان قرشيّا لساق العربَ بعصـاه ؛ فقال أبو سفيان : إنه لقُرشىّ ، وإنى لأعرِف الذى وضعه فى رحِم أمّه ؛ فقال علىّ عليه السلام : ومن هو ؟ قال : أنا ؛ فقال : مهلا يا أبا سفيان، فقال أبو سُفْيان :

أما واللهِ لولا خوفُ شخْصٍ ... يرانى يا علىُّ من الأعادِى
لأظهر أمرَه صخْرُ بن حرْبٍ ... ولم يخفِ المقالة فى زيادِ
وقد طالت مُجامَلتى ثقيفاً ... وترْكى فيهمُ ثمرَ الفؤادِ

عنى بقوله : « لولا خوف شخص » : عمر بن الخطاب[١] .

---

(١) الاستيعاب ٢٠١ وما بعدها .

وروَى أحمد بن يحيى البَلاذُرىّ قال : تكلّم زياد ــ وهو غلام حَدَث ــ بحضرة عمر كلاما أعجَبَ الحاضرين ، فقال عمرو بن العاص : لله أبوه ! لو كان قرشيّا لساق العرب بعصاه ؛ فقال أبو سُفيان : أما والله إنّه لقُرشىّ ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنّه خير من أهلك ؛ فقال : ومَن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعتُه فى رَحِم أمّه ، فقال : فهلّا تستلحقه ؟ قال : أخاف هذا العَيْرَ الجالسَ أن يَخرِق علىّ إهابى .

وروَى محمد بن عمرَ الواقدىّ، قال قال: أبو سُفْيان وهو جالس عند عُمر وعلىٌّ هناك ، وقد تكلّم زياد فأحسن : أبَتِ المناقبُ إلّا أن تَظهرَ فى شمائل زِياد ؛ فقال علىّ عليه السلام : من أىّ بنى عبد مناف هو ؟ قال : ابنى ؛ قال : كيف ؟ قال : أتيت أمّه فى الجاهلية سِفاحا ! فقال علىّ عليه السلام : مه يا أبا سُفْيان ! فإنّ عمرَ إلى المساءة سريع ؛ قال : فعرف زياد مادار بينهما ، فكانت فى نفسه .

وروَى علىّ بن محمد المدائنىّ قال : لما كان زمن علىّ عليه السلام ولّى زيادا فارسَ أو بعضَ أعمال فارسَ ، فضبطها ضَبطاً صالحا ، وجَبى خَراجها وحَماها ، وعرف ذلك معاوية ، فكتب إليه : أمّا بعد ، فإنّه غرّتك قِلاعٌ تأوى إليها ليلا ، كما تأوى الطيرُ إلى وكرها ، وأيم الله لولا انتظارى بك ما الله أعلم به لكان لك منّى ما قاله العبد الصالح : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[1] . وكتب فى أسفل الكتاب شعرا من جملته :

تَنسَى أباكَ وقد شالَتْ نَعامتُه ... إذ يَخطبُ الناسَ والوالى لهمْ عمرُ

فلمّا ورد الكتاب على زيادٍ قام فخطب الناس ، وقال : العَجَب من ابن آكلةِ الأكباد ، ورأسِ النفاق ! يهدّدنى وبينى وبينه ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وزوج سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبْطين ، وصاحب الولاية والمَنزِلة والإخاء فى مائة ألف

(١) سورة النمل ٣٧ .

من المهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان ! أما والله لو تخطّى هـؤلاء أجمعين إلىّ لوَجَدَنى أحمَرَ مِخَشّاً[(١)] ضَرّاباً بالسيف ، ثم كتب إلى علىّ عليـه السلام ، وبعث بكتابِ معاويةَ فى كتابه .

فـكَتب إليه علىّ عليه السلام ، وبعث بكتابه :

أمّا بعد ، فإنى قد ولّيتك ماولّيتك وأنا أراك لذلك أهـلا ، وإنّه قد كانت من أبى سُفْيان فَلْتَة فى أيّام عمر من أمانىّ التّيه وكَذِب النفس ، لم تَستوجِب بهـا ميراثا ، ولم تستحقّ بها نَسَبا ، وإنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شِماله ، فاحذره ، ثم احذره ، ثم احذره ؛ والسلام .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال : كان علىّ عليـه السلام قد ولّى زياداً قِطْعةً من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلمّا قُتِل علىّ عليـه السلام بَقِىَ زياد فى عَمَله ، وخاف معاويةُ جانبه ، وعلِم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمالأته الحسنَ بنَ علىّ عليـه السلام . فـكتب إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبى سُفْيان إلى زياد بن عبيد ، أمّا بعد ، فإنّك عبد قد كفرتَ النّعمة ، واستدعيتَ النّقمة ، ولقد كان الشكرُ أوْلى بك من الـكفر ، وإنّ الشجرة لَتضرِب بِعِرْقها،وتتفرّع من أصلها ، إنّك ـ لاأمّ لك بل لا أب لك ـ قد هلكتَ وأهلكْت ، وظننتَ أنّك تَخرج من قبضتى ، ولا ينالك سلطانى ، هيهات ! ما كلُّ ذى لُبّ يصيب رأيَه ، ولا كلُّ ذى رأىٍ يَنصَح فى مَشورته . أمسِ عبدٌ واليومَ أمير ! خطّة ما ارتقاها مِثلُك يابن سميّة ، وإذا أتاك كتابى هذا فخُـذ الناسَ بالطاعة والبَيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنّك إن تفعل فدَمَك حقَنْت ، ونفسَك تدارَكْت ، وإلّا اختطفتُك

---

(١) المخش : الماضى الجرىء ، وفى ب : « مخبا » ، والصواب ما أثبته من ا .

بأضعف ريش(١) ، ونلتك بأهون سَعْى. وأُقسم قسما مبرورا ألا أُوتى بك إلا فى زمّارة(٢) ، تمشى حافيا من أرض فارسَ إلى الشام حتى أقيمَكَ فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردّك إلى حيث كنت فيه وخرجتَ منه . والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على زياد غضب غضبا شديدا ؛ وجمعَ الناسَ وصعِد المنبرَ . فحمِد الله ثم قال : ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومُسِرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق مالَه فى إطفاء نور الله ، كتب إلىّ يُرعِد ويُبرِق عن سحابةٍ جَفْل لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيّرها الرياح قزَعا ، والّذى يدلّنى على ضعفه تهدّده قبل القدرة ؛ أفمِنْ إشفاق علىّ تُنذِر وتُعذِر ؟ كلاّ ، ولكن ذهَب إلى غير مَذهَب ، وقعقع لِمَن رُبِّىَ(٣) بين صَواعِق تِهامة ، كيف أرهبُه وبينى وبينه ابنُ بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وابنُ ابن عمّه فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذِن لى فيه ، أو ندَبنى إليه، لأرَيته الكواكبَ نهارا ، ولأسعطته ماء الخردل . دونه الكلام اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله . ثم نزل .

وكتب إلى معاوية :

أمّا بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك يا معاوية ، وفهمتُ ما فيه ، فوجدتُك كالغريق يغطّيه الموج فيتشبّث بالطُّحْلُب ، ويتعلّق بأرجُل الضفادع ، طمعا فى الحياة . إنّما يكفر النعم ، ويستدعى النقم من حادّ اللهَ ورسولَه ، وسَعَى فى الأرض فسادا . فأمّا سبُّك لى فلولا حِلْمٌ ينهانى عنك ، وخوفى أن أُدعَى سفيها ، لأثرتُ لك مخازىَ لا يغسلها الماء . وأمّا تعييرك لى بسُمَيّة ، فإن كنتُ ابنَ سُميّة فأنت ابن جماعة ، وأمّا زعمك أنّك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناولنى بأهون سَعْى ، فهل رأيت بازيا يُفزعه صغيرُ

---

(١) بأضعف ريش ؛ يريد بأضعف قوة ؛ وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويسددوه .
(٢) أى فى جماعة زمارة تزمر حولك بالمزامير لتشهيرك والتشنيع عليك .
(٣) كذا فى ا ، وفى ب : « ربى » .

القَنابر ، أم هــل سمعت بذئبٍ أكله خروف ! فأمض الآن لطِيّتك ، واجهد جَهدَك ، فلستُ أنزِل إلّا بحيث تكره ، ولا أجتهدُ إلّا فيما يسوءك ، وستعلمُ أيّنا الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه . والسلام .

فلمّا ورد كتابُ زِياد على معاوية غمّه وأحزنه ، وبعث إلى المغيرة بن شعبة ، فخلا به وقال : يا مغيرة ، إنّى أريد مشاورتَك فى أمرٍ أهمّنى ، فانصحْنى فيــه ، وأشِرْ علىّ برأى المجتهد ، وكن لى أكن لك ، فقد خصصتُك بسِرّى ، وآثرتك على وَلَدى . قال المغيرة : فما ذاك ؟ واللهِ لتجدنّى فى طاعتك أمضَى من الماءِ إلى الحدور ، ومن ذى الرّونق فى كفّ البطل الشجاع . قال : يا مغيرة ، إنّ زيادا قد أقام بفارسَ يَكِشّ لنا كَشيشَ الأفاعى ، وهو رجلٌ ثاقبُ الرأى ، ماضى العزيمة ، جوّال الفكر ، مصيبٌ إذا رمى ؛ وقد خفت منه الآنَ ما كنتُ آمَنه إذ كان صاحبــه حيًا ، وأخشى ممالأته حَسناً ، فكيف السبيلُ إليه ، وما الحيلة فى إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أمُتْ ؛ إن زيادا رجل يحبّ الشرف والذِّكْر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة ، وألنتَ له الكتابَ ، لكان لك أميَــل ، وبك أوثَق ، فاكتب إليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبى سُفيــان إلى زياد بن أبى سُفيان ، أمّا بعد ، فإن المرء ربّما طرَحه الهوى فى مَطارح العَطَب ، وإنك للمرء المضرُوب به المثل ، قاطع الرحم ، وواصِلُ العــدوّ . وحَمَلك سوء ظنّك بى ، وبغضُك لى ، على أن عققتَ قرابتى ، وقطعتَ رَحِمى ، وبتتّ [1] نسبى وحُرْمتى ؛ حتى كأنّك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ، وشتّان ما بينى وبينك ، أطالب بدم ابن أبى العاص [2] وأنت تقاتلنى ! ولكنْ أدركَك عِرْقُ الرّخاوة من قِبَل النساء ، فكنتَ :

---

(١) بتت : قطعت .

(٢) أى عثمان ؛ وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .

كتاركةٍ بيْضَهـا بالعَراءِ ومُلحفةٍ بَيضَ أخرى جناحا

وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك ، ولا أؤاخذُكَ بسوء سعيك ، وأن أصِلَ رحمك ، وأبتغي الثوابَ في أمرك ، فاعلمْ أبا المغيرة ، أنّك لو خضتَ البحرَ في طاعة القوم فتضربَ بالسيف حتّى انقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعدا ؛ فإن بني عبد شمس أبغضُ إلى بني هاشم من الشَفرة إلى الثور الصّريع وقد أُوثِق للذبح ؛ فارجع ـ رَحمك الله ـ إلى أصلك ، واتّصل بقومك ، ولا تكن كالموصول بريش[1] غيره ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب . ولعَمرِي ما فَعَل بك ذلك إلّا اللّجاج ، فدعه عنك ، فقد أصبحتَ على بيّنة من أمرك ، ووضوحٍ من حجّتك ، فإن أحببت جانبي ، ووثقتَ بي ، فإمْرَة بإمْرَة ، وإن كرهتَ جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميلٌ لا عليَّ ولا لي . والسلام .

فرحل المغيرةُ بالكتاب حتّى قدم فارسَ ، فلمّا رآه زياد قرّبه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب ، فجعل يتأمّله ويضحك ، فلمّا فرغ من قراءته وضعه تحتَ قدمه ثم قال : حَسْبك يا مغيرة ! فإنّي أطّلع على ما في ضميرك ، وقد قدمت من سفرة بعيدة ، فقم وأرِحْ رِكابك . قال : أجل ، فدع عنك اللّجاج يرحمك الله ، وارجع إلى قومك ، وصل أخاك ، وانظر لنفسك ، ولا تقطع رحمك ! قال زياد : إنّي رجلٌ صاحب أناة ، ولي في أمري رَوِيّة ، فلا تَعجل عليَّ ، ولا تبدأني بشيء حتى أبدأك . ثمّ جمع الناسَ بعد يومين أو ثلاثة ، فصعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها النّاس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتل عثمانُ ، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي ، في كلّ عيدٍ يُذبَحون ، ولقد أفنى هذان اليومان ـ يوم الجمل وصِفّين ـ ما يُنيف على مائة ألفٍ ؛ كلّهم يزعم أنّه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنّة ، كلّا

(١) ب : « كالموصول يطير بريش غيره » .

ليس كذلك ، ولكنْ أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئٍ بسلامةِ دينه ! وقد نظرتُ فى أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمَدون عاقبتَه ومَغَبّته ، فقد حمدتُ طاعتكم إن شاء الله ثم نزل .

وكتب جوابَ الكتاب :

أمّا بعد ، فقد وصل كتابُك يا معاوية مع المغيرة بن شُعْبة وفهمتُ ما فيه ، فالحمد لله الّذى عرّفك الحقّ ، وردّك إلى الصّلة ، ولست ممّن يجهل معروفا ، ولا يغفل حَسَبا ، ولو أردتُ أن أجيبَك بما أوجبتْه الحجّة ، واحتمله الجواب ، لطال الكتاب ، وكثُر الخطاب ، ولكنك إن كنتَ كتبتَ كتابَك هذا عن عَقْد صحيح ، ونيّة حسنة ، وأردتَ بذلك برّا ، فستزرع فى قلبى مودّة وقبولا ، وإن كنتَ إنّما أردتَ مكيدةَ ومكرا وفساد نيّة ، فإنّ النفس تأبى ما فيه العَطب ، ولقد قمتُ يوم قرأتُ كتابَك مقاما يعبأ به الخطيب الِدرّه ، فتركت من حضر ، لا أهل وِرْد ولا صدر ، كالمتحيّرين بمَهْمهٍ ضَلّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير ، وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا مَعشرى لم يُنصِفونى وجدتُنى ... أدافع عنّى الضّيمَ ما دمتُ باقيا
وكم معشرٍ أعيتْ قَناتى عليهمُ ... فلامُوا وألفوْنى لَدَى العزم ماضيا
وهمٍّ به ضاقتْ صدورٌ فرجْتُه ... وكنتُ بِطبّى للرجال مُداويا
أدافع بالحِلم الجهولَ مكيدةً ... وأخفى له تحت العِضاهِ الدّواهيا
فإن تدنُ منى أدنُ منك وإن تَبِنْ ... تجدنى إذا لم تَدْنُ منّىَ نائيا

فأعطاه معاويةُ جميعَ ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقرّبه وأدناه ، وأقرّه على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

* * *

وَرَوَى علىّ بن محمد المدائنىّ ، قال : لمّا أراد معاوية استلحاق زيادٍ وقد قدم عليه الشام جمعَ الناس وصَعِد المنبر ، وأصعد زيادا معه فأجلسه بين يديه على المِرْقاة التى تحت مِرْقاته ، وحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنّى قد عرفتُ نَسبنا أهل البيت فى زيادٍ ؛ فمن كان عنده شهادة فليقُم بها . فقام ناس فشهدوا أنّه ابنُ أبى سُفْيان ؛ وأنّهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته ، فقام أبومريمَ السَّلُولىّ ــ وكان خمّارا فى الجاهلية ــ فقال : أشهدُ يا أميرَ المؤمنين أنّ أبا سفيان قَدِم علينا بالطائف ، فأتانى فاشتريت له لحما وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أَصِب لى بغيًا ، فخرجتُ فأتيتُ بسُمَيّة ، فقلت لها : إنّ أبا سُفْيان ممّن قد عرفت شرفَه وجُودَه ، وقد أمرنى أن أصيبَ له بغيًا ، فهل لكِ ؟ فقالت : نعم ، يجىء الآن عبيد بغنمه ــ وكان راعيا ــ فإذا تعشّى ، ووَضع رأسه أتيتُه . فرجعتُ إلى أبى سفيان فأعلمتُه ، فلم نلبثْ أن جاءت تجرّ ذيلَها ، فدخلتْ معه ، فلم تزل عندَه حتّى أصبحتْ ؛ فقلت له لما انصرفتْ : كيف رأيتَ صاحبتَك ؟ قال : خيرَ صاحبة ، لولا ذَفَرٌ فى إبطيها .

فقال زياد من فوق المنبر : يا أبا مريم ، لا تَشتم أمهات الرجال ، فتشتَم أمّك .

فلما انقضى كلامُ معاوية ومناشدَته قام زياد ، وأنصت الناس ؛ فحمد اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ، ولستُ أدرى حقّ هذا من باطِله ! وهو والشهودُ أعلم بما قالوا ، وإنّما عبيد أبٌ مبرور ، ووالٍ مشكور . ثم نزل .

* * *

وروى شيخُنا أبو عثمان أنّ زيادا مرّ وهو والى البصرة بأبى العُرْيان العَدَوِىّ ــ وكان شيخا مكفوفا ، ذا لَسَنٍ وعارضة شديدة ــ فقال أبو العُرْيان : ما هذه الجَلَبة ؟ قالوا : زياد بن أبى سُفْيان ، قال : والله ما ترك أبو سُفْيان إلّا يزيد ومعاوية وعُتبة وعَنْبسة وحنظلة ومحمّدا ، فمن أين جاء زياد ؟ فبلغ الكلامُ زيادا ، وقال له قائل : لو سددتَ

عنك فمَ هذا الـكلب ! فأرسل إليـه بمائتي دينار ، فقال له رسول زياد : إنّ ابنَ عمّك زيادا الأمير قد أرسَل إليك مائتي دينـار لتُنفقها ، فقال : وصلتْه رَحِم ! إي والله ابن عمّي حقّا . ثم مرّ به زياد من الغد في موكبه ، فوقف عليه فسلّم ، وبكى أبو العُرْيان ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوتَ أبي سُفْيان في صوت زِياد . فبلغ ذلك معاوية ، فـكتب إلى أبي العُرْيان :

ما ألبثَتْك الدنانيرُ التي بُعِثتْ ... أنْ لوّنتْكَ أبا العُرْيانِ ألوَانَا
أمسَى إليـك زياد في أرومتِه ... نُـكْرا فأصبح ما أنـكرت عِرْفانا
لِلهِ درُّ زيادٍ لو تعجّلهـا ... كانت له دون مايخشاه قُرْبانا !

فلمّا قرِئ كتابُ معاوية على أبي العُرْيان قال : اكتب جوابه يا غلام :

أحدِثْ لنا صِلَةً تحيا النفوسُ بها ... قد كدتَ يابن أبي سُفْيان تنْسانا
أمّا زِيادٌ فقـد صحّت مَناسِبُه ... عندي فلا أبتغي في الحقّ بُهتانا
مَن يُسْدِ خيراً يُصِبْه حين يَفعلُه ... أو يُسْدِ شرّا يُصِبْه حيثما كانا

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه في الحجّ ، فـكتب إليه : إنّي قد أذنتُ لك واستعملتُك على الموسم ، وأجزتُك بألفِ ألفِ درهم . فبينا هـو يتجهّز إذ بلغ ذلك أبا بَـكْرة أخاه ـ وكان مُصارِماً له منذ لجْلج في الشهادة على المغيرة بن شعبة أيّام عمر لا يكلّمه قد لزمتْه أيمـانٌ عظيمة ألّا يكلّمه أبدا ـ فأقبلَ أبو بكْرة يدخُل القصر يريد زيادا ، فبصُر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلا : أيّها الأمير ، هذا أخـوك أبو بَـكْرة قد دخل القصر ؛ قال : ويحك ، أنت رأيته ! قال هاهو ذا قد طلع ، وفي حجْر زيادٍ بُنيّ يلاعبه ، وجاء أبو بَـكْرة حتّى وقف عليـه ، فقال للغلام : كيف أنت يا غلام ؟ إنّ أباك ركب في الإسلام عظيما ! زنَى أمّه ، وانتفى من أبيه ، ولا والله ماعلمت سميّة رأتْ

أبا سُفْيان قطّ ، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك ، يوافى الموسم غداً ، ويوافى أمَّ حبيبةَ بنت أبى سُفْيان ، وهى من أمّهات المؤمنين ، فإن جاء يستأذن(١) عليها فأذنتْ له؛ فأعظمْ بها فِرْيةً على رسول الله صلّى الله عليه وآله ومصيبة ! وإن هى منعته فأعظِمْ بها على أبيك فضيحة ! ثمّ انصرف ، فقال : جزاك الله يا أخى عن النصيحة خيراً ؛ ساخطاً كنتَ أو راضيا . ثم كتب إلى معاوية : إنّى قد أعتللت عن الموسم فليوجّه إليه أمير المؤمنين من أحبّ ، فوجّه عتبة بن أبى سُفْيان .

* * *

فأمّا أبو عمرَ بنُ عبدالبرّ فى كتاب « الاستيعاب » فإنّه قال : لمّا ادّعى معاوية زيادا فى سنة أربع وأربعين وألحقه به أخاً زوج أبنتــه من أبنه محمّد بن زياد ليؤكّد بذلك صحّة الاستلحاق ، وكان أبو بَكْرة أخا زيادٍ لأمه، أمّهما جميعا سُميّة ، فحلف ألاّ يكلّم زيادا أبدا وقال : هذا زنّى أمّه ، وأنتفى من أبيه ، ولا والله ما علمت سُميّة رأت أبا سُفْيان قبل(٢) ، وَيْله ما يصنع بأمّ حبيبة ! أيريد أن يراها ؟ فإنْ حجبتْه فضحته ؛ وإن رآها فيالها مصيبة ! يهتك من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله حرمةً عظيمة !

وحجّ زياد مع معاوية ، ودخل المدينــة فأراد الدخول على أمّ حبيبة ثم ذكر قولَ أبى بَكْرة ، فانصرف عن ذلك . وقيــل : إنّ أمّ حبيبة حجبتْه ولم تأذن له فى الدّخول عليها ، وقيل : إنّه حجّ ولم يَرِد(٣) المدينة من أجل قول أبى بَكْرة ، وإنّه قال : جزى الله أبا بكرة خيْرا فما يَدَع النصيحة فى حال .

وروَى أبو عمرَ بن عبد البرّ فى هذا الكتاب قال : دخل بنو أميّة وفيهم عبدُ الرحمن ابنُ الحكم على معاوية أيّام ما استلحق زيادا ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ، لو لم تجد إلّا الزّنج لاستكثرتَ بهم علينا قلّة وذلّة — يعنى على بنى أبى العاص . فأقبل معاويةُ

---

(١) ب : « أن يستأذن » . (٢) ا والاستيعاب : « قط » . (٣) ا : « يزر » .

على مَرْوانَ وقال : أخرج عنّا هذا الخليع ، فقال مَرْوان : إى واللهِ أنّه لخليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا حلمي وتجاوُزى لعلمتَ أنّه يطاق ، ألم يبلغني شعرُه فيّ وفي زياد ! ثم قال مروان : أسمِعْنيه ، فأنشد :

ألا أبلغْ معاوية بن حَرْبٍ   لقد ضاقتْ بما يأتى اليَدانِ
أتغضَبُ أن يقال أبوك عَفٌّ   وتَرضَى أن يقال أبوك زانِ !
فأشهد أنّ رَحْمك من زيادٍ   كرَحْمِ الفيلِ من وَلَدِ الأتانِ
وأشهد أنّها حملتْ زِيادا   وصخرٌ من سُميّةَ غيرُ دانِ (١)

ثم قال (٢) : واللهِ لا أرضى عنه حتّى يأتى زيادا فيترضّاه ويعتذر إليه ، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذرا يستأذِن عليه ، فلم يأذن له ، فأقبلتْ قريش إلى زياد تكلّمه في أمر عبد الرحمن ، فلمّا دخل سلّم ، فتشاوس له زياد بعينه — وكان يكسِر عينَه — فقال له زياد : أنت القائل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الّذى قلت ؟ قال : قلتَ ما لا يقال ؛ قال : أصلح الله الأمير ! إنّه لا ذنب لمن أعتَب ، وإنّما الصَّفْح عمّن أذنب ، فاسمع منى ما أقول ، قال : هاتِ ، فأنشده :

إليك أبا المغيرة تبتُ ممّا   جَرَى بالشام مِنْ خَطَلَ اللّسانِ (٣)
وأغضبتُ الخليفة فيك حتّى   دعاه فَرْطُ غيظٍ أن هجانى
وقلتُ لمن لحانى فى اعتذارى (٤)   إليك اذهبْ فشأنك غيرُ شانى

---

(١) بعدها في الاستيعاب : « وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الشاعر ؛ ومن رواها له جعل أولها :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ   مغلغلةً من الرَّجُلِ اليمانى

وذكر الأبيات كما ذكرناها سواء » .

(٢) في الاستيعاب : « وروينا أن معاوية قال حين أنشده مروان شعر أخيه عبد الرحمن : والله لا أرضى ... .

(٣) الاستيعاب : « من جور اللسان » .   (٤) الاستيعاب : « لمن يلمنى » .

عرفت الحقّ بعد ضلالِ رأيي ⠀⠀ وبعد الغيِّ من زيغ الجنان
زيادٌ من أبي سُفْيان غُصْنٌ ⠀⠀ تهادى ناضرا بين الجنان
أراك أخاً وعمّاً وابن عمٍّ ⠀⠀ فما أدري بعَيْبٍ ما تراني
وإن زيادةً في آلِ حرْبٍ ⠀⠀ أحبُّ إليّ من وُسْطى بناني
ألا أبلغ معاوية بنَ حربٍ ⠀⠀ فقد ظفرتْ بما تأتي اليدانِ

فقال زياد : أراك أحمق صِرْفا شاعرا ضيع اللّسان، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطا، ولكنا قد سمعنا شعرَك ، وقبلْنا عذرَك ؛ فهات حاجتك ؟ [1] قال : تكتب إلى أمير المؤمنين بالرّضا عنّي ، قال : نعم ، ثمّ دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه [1] ، فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية ، فلمّا قرأه قال : لحا الله زيادا ، لم يتنبّه لقوله :

* وإنّ زيادةً في آلِ حربٍ *

ثم رضي عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته .

وأما أشعار يزيد بن مفرِّغ الحميريّ وهجاؤه عبيدَ الله وعبّادا ؛ ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة ، نحو قوله :

أعبّادُ ما للُّؤْمِ عنك مُحوَّلٌ [2] ⠀⠀ ولا لك أمٌّ من قريش ولا أبُ
وقل لعبيد الله مالك والدٌ ⠀⠀ بحقٍّ ولا يدري امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله :

شهدت بأنّ أمك لم تُباشِرْ ⠀⠀ أبا سُفْيان واضعة القناعِ

(١ ـ ١) الاستيعاب : « قال : كتاب إلى أمير المؤمنين بالرضا عني ، قال : نعم ، ثم دعا كاتبه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنه . . . وذكر الخبر » .

(٢) ا : « محول » .

ولكنْ كان أمرٌ فيه لبْسٌ   على حَذَرٍ شديد وارتياعِ
إذا أودَى معاويةُ بنُ حرب   فبشِّرْ شعبَ قعبك بانصداعِ

ونحو قوله :

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بَكْـرةَ عندى من أعجب العَجَبِ
هم رجالٌ ثلاثةٌ خُلِقوا   فى رَحْمِ أنثى وكلُّهمْ لأبِ
ذا قرشيٌّ كما تقول وذا   مولًى وهذا بزعمه عَرَبى(١)

كان عبيد الله بن زياد يقول : ما شجيتُ بشىء أشدَّ علىَّ من قول ابن مفرِّغ :

فكِّرْ ففى ذاكَ إنْ فكرتَ معتبَرٌ   هل نلتَ مكرُمةً إلّا بتأمير !
عاشت سميّةُ ما عاشت وما علمتْ   أنَّ ابنها من قريش فى الجماهير

ويقال : إنَّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمِّ الحكم ليزيد بن مفرِّغ وأن أوّلها :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ   مغلغلةً من الرَّجُلِ اليمانى

ونحو قوله ، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبّاد بن زياد بسجستان :

يا بُرْدُ ما مسّنا دهرٌ أضرّ بنا   من قبل هذا ولا بعنا له وَلَدَا
لامتنىَ النفسُ فى بُرْدٍ فقلتُ لها   لا تَهلكى إثر بُرْد هكذا كمدا
لولا الدعىّ ولولا ما تعرّض بى   من الحوادث ما فارقته أبدا

ونحو قوله :

أبلغ لديك بنى قحطانَ مألُكةً   عضّت بأيْرِ أبيها سادةُ اليمن
أضحى دعىّ زياد فقعَ قرقرةٍ   يا للعجائب يلهو بابن ذى يزن !

---

(١) كذا فى ا والاستيعاب ، وفى ب : « وهذا ابن عمه » .

وَرَوَى ابن الكلبيّ أنّ عبّاد استلحقه زياد كما استلحق معاوية زيادا ؛ كلاهما لدعوة . قال : لمّا أذِن لزياد فى الحجّ تجهّز ، فبينا هو يتجهّز وأصحاب القِرَب يعرضون عليه قِرَبهم ، إذ تقدّم عبّاد — وكان خرّازاً — فصار يَعرِض عليه ويحاوره ويجيبه ، فقال زياد : ويْحَك ، مَن أنت ؟ قال : أنا ابنك ؛ قال : وَيْحك ، وأىّ بنىّ ؟ قال : قد وقعتَ على أمّى فلانة ، وكانت من بنى كذا ، فولدتنى ، وكنت فى بنى قيس بن ثعلبة وأنا مملوك لهم ، فقال : صدقت والله ؛ إنى لأعرف ما تقول . فبعث فاشتراه ، وادّعاه وألحقه ؛ وكان يتعهّد بنى قيس ابن ثعلبة بسببه ويصلهم . وعظم أمرُ عبّاد حتّى ولّاه معاوية سِجِسْتان بعد موتِ زياد ، وولّى أخاه عبيد الله البصرة ، فتزوّج عبّاد الستيرة(١) ابنة أُنيف بن زياد الكلبيّ ، فقال الشاعر يخاطب أُنيفا — وكان سيّد كلب فى زمانه :

أبلغ لديك أبا تُرْكانَ مألُكةً(٢) — أنائما كنتَ أم بالسّمع مِن صَمَمِ !
أنكحتَ عبد بنى قيس مهذّبةً — آباؤها من عُلَيمٍ مَعدِنِ الكَرَمِ
أكنتَ تجهل عبّادا ومحتِدَه — لا درّ درُّك أم أنكحتَ من عَدَمِ
أبعد آل أبى سُفْيان تجعلُه — صِهْرا وبعد بنى مروانَ والحَكَمِ !
أعظِمْ عليكَ بذا عاراً ومَنقصةً — ما دمتَ حيّا وبعد الموت فى الرَّحِمِ

* * *

وقال الحسن البصرىّ : ثلاث كنّ فى معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقةً : انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها ، واستلحاقه زيادا مُراغَمةً لقول رسول الله : « الوَلَد للفراش، وللعاهر الحَجَر » ، وقتله حُجْر بن عَدىّ ؛ فيا ويله من حُجْر وأصحاب حُجْر !

(١) كذا فى ب : « الشترة » . (٢) ب : « بركان » .

وروى الشَّرْقِيّ بن القطامي ، قال : كان سعيد بن سَرْح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : فلمّا قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه ، فأتى الحسن بن عليّ عليه السلام مستجيرا به ، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ مالَه ، ونقض دارَه . فكتب الحسن بنُ عليّ عليه السلام إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنك عَمَدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت دارَه ، وأخذتَ ما له ، وحبستَ أهلَه وعيالَه ؛ فإن أتاك كتابي هذا فابنِ له دارَه ، واردُد عليه عيالَه وماله ، وشفّعني فيه ، فقد أجرتُه . والسلام .

فكتب إليه زِياد :

من زِياد بن أبي سُفْيان إلى الحَسَن بن فاطمة ، أمّا بعد ، فقد أتاني كتابُك تبدأ فيه بنفسك قبلي ، وأنت طالب حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقة ، وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلّط على رعيّته . كتبت إليّ في فاسق آويته، إقامةً منك على سوء الرأي ، ورضاً منك بذلك ، وايمُ الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرعٍ عليك ، فإنّ أحبّ لحم عليّ أن آكله للّحم الّذي أنت منه ، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولَى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفّعتك فيه ، وإن قتلتُه لم أقتلْه إلّا لحبّه أباك الفاسق ؛ والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على الحَسَن عليه السلام قرأه وتبسّم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عِطفه ، وبعثَ به إلى الشام ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سميّة ، أمّا بعد ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجَر » ؛ والسلام .

فلمّا قرأ معاويةُ كتابَ زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنّ الحسن بن عليّ بعث إليّ بكتابك إليه جوابا عن كتاب كتبه

إليك في ابن سَرْح ؛ فأكثرت العجبَ منك ، وعلمتُ أنّ لك رأيَيْن : أحدُهما من أبي سُفْيان ، والآخر من سُمَيّة ، فأما الّذى من أبي سفيانَ فحِلْمٌ وحزم ، وأمّا الذى من سُمَيّة، فما يكون من رأى مِثلها ! من ذلك كتابك إلى الحسنِ تَشْتُم أباه ، وتعرّض له بالفسق ، ولَعَمري إنّك الأَوْلى بالفِسق من أبيــه . فأمّا أنّ الحسنَ بدأ بنفسه ارتفاعا عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت ، وأمّا تسلّطه عليــك بالأمر فحقّ لِمثل الحسن أن يتسلّط ، وأمّا تركك تشفيعه فيما شفَع فيه إليك، فحظٌّ دفعتَه عن نفسك إلى من هو أولى به منك . فإذا ورد عليك كتابي فخلّ ما في يديك لسعيد بن أبي سَرْح ، وابنِ له دارَه ، وارددْ عليــه مالَه ، ولا تعرّض له ، فقــد كتبتُ إلى الحسن أن يخيّره ، إن شاء أقام عنــده ، وإن شــاء رجع إلى بلده ، ولا سلطان لك عليه لا بيدٍ ولا لسان . وأمّا كتابُك إلى الحسن باسمــه واسم أمّــه ، ولا تَنسُبه إلى أبيــه ، فإن الحسن وَيحك ! من لا يُرْمَى به الرَّجَوان [1] ، وإلى أىّ أمّ وكَلْته لا أمّ لك ! أما علمتَ أنّها فاطمةُ بنتُ رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم ، فذاك أفخر له لو كنتَ تعلَمه [2] وتعقلُه ! وكَتَب في أسفل الكتاب شعرا ، من جملته :

أمَا حَسَنٌ فابنُ الّذى كان قبلَهُ … إذا سار سارَ المــوتُ حيث يسيرُ
وهل يلد الرِّئبــال إلاّ نظيرَه … وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظـــيرُ
ولــكنّــه لو يوزَن الحِلم والحِجــا … بأمرٍ لقــالوا يذبلٌ وثبـــيرُ

* * *

---

(١) الرجا : ناحية كل شئ ، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ؛ ويقال : رمى به الرجوان : استهين به ، فكأنه رمى به هنالك ؛ أرادوا أنه طرح في المهالك ؛ قال :

لقــدْ هزِئتْ مِنّى بنجرانَ أنْ رأتْ … مقــامِىَ في الــكبلَيْنِ أمّ أبانِ
كأن لم ترى قبلِى أميراً مــكبّلاً … ولا رجــلا يُرْمَى به الرّجَوانِ

أي لا يستطيع أن يتمسك . (٢) ساقطة من ب .

وروى الزُّبير بن بكّار فى « الموفّقيات » أنّ عبد الملك أجرى خَيْلا، فسبقه عبّاد بن زياد ، فأنشد عبد الملك :

سبّق عبّاد وصلّت لحيته وكان خرّازاً تجود قربتُه

فشكى عبّاد قولَ عبد الملك إلى خالد بن يزيدَ بن معاوية ، فقال له : أما والله لأنصفنّك منه بحيث يكره . فزوّجه أختَه ، فكتب الحجّاج إلى عبد الملك : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ مناكِحَ آل أبى سفيان قد ضاعت . فأخبرَ عبدُ الملك خالدا بما كتب به الحجّاج ، فقال خالد: يا أمير المؤمنين ، ما أعلم امرأةً منّا ضاعت ونزلت إلّا عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية ، فإنّها عندك ، ولم يَمْنِ الحجّاج غيرَك . قال عبد الملك : بل عنى الدّعى ابن الدّعىّ عبّادا ، قال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أنصفتنى ، أدّعى رجلا ثم لا أزوّجه ! إنما كنت ملوما لو زوّجت دعيّك ، فأمّا دَعيّى فلِمَ لا أزوّجه !

* * *

فأما أوّل ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عبّاس له على البصرة فى خلافة علىّ عليه السلام ، وبلغت عليّا عنه هَنات ، فكتب إليه يلومه ويؤنّبه ، فمنها الكتاب الّذى ذكر الرضىّ رحمه الله بعضَه ، وقد شرحْنا فيما تقدّم ما ذكر الرضىّ منه ، وكان علىّ عليه السلام أخرج إليه سعْداً مولاه يحثّه على حَمْل مال البَصرة إلى الكُوفة ، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة ، وعاد سعد وشكاه إلى علىّ عليه السلام وعابه ، فكتب علىّ عليه السلام إليه :

أمّا بعد ، فإن سعداً ذكر أنك شتمتَه ظُلما ، وهدّدته وجَبَهته تجبّرا وتكبُّرا ، فما دعاك إلى التكبُّر وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الكبرُ رداء الله ، فمن نازَعَ الله رداءه قصَمَه » ، وقد أخبرنى أنك تُكثِر من الألوان المختلفة فى الطعام فى اليوم الواحد ،

وتدّهِن كلّ يوم ، فما عليك لو صُمتَ لله أيّاما ، وتصدّقتَ ببعض ماعندك محتسبا ، وأكلت طعامَك مرارا قَفَارا ، فإنّ ذلك شعارُ الصالحين ! أفتطمع وأنت متمرّغ فى النعيم ، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم ، أن يُحسَب لك أجرُ المتصدّقين ! وأخبَرَنى أنك تتكلم بكلام الأبرار ، وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنتَ تفعل ذلك فنفسَك ظلَمْت ، وعملَك أحبطْت ، فتبْ إلى ربك يُصلحْ لك عملَك ، واقتصد فى أمرك ، وقدّمْ إلى ربك الفضل ليوم حاجتك ، وادّهن غبّا ؛ فإنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ادّهنوا غبّا ولا تدّهنوا رِفْهاً[1] » .

فكتب إليه زياد : أمّا بعد يا أمير المؤمنين ، فإن سعدا قَدِم علىّ فأساء القول والعمل ، فانتهرتُه وزجرته ، وكان أهلاً لأكثر من ذلك . وأمّا ما ذكرتَ من الإسراف واتّخاذ الألوان من الطعام والنّعم ، فإنْ كان صادقا فأثابه الله ثوابَ الصالحين ، وإن كان كاذبا فوقاه الله أشدّ عقوبة الكاذبين . وأمّا قوله : « إنى أصف العدل وأخالفه إلى غيره » ، فإنّى إذَنْ من الأخسرين . فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قلته فى مقام قمته ؛ الدعوى بلا بيّنة ؛ كالسهم بلا نَصْل ؛ فإن أتاك بشاهدَىْ عدلٍ ؛ وإلّا تبيّن لك كذبه وظلمُه .

* * *

ومن كلام زياد : تأخيرُ جزاء المحسن لؤم ، وتعجيل عقوبة المُسىء طيش .

وكتب إليه معاوية : أمّا بعد ، فاعزل حريثَ بن جابر عن العمل ، فإنّى لا أذكُر مقاماته بصفّين إلّا كانت حَزازة فى صدرى ، فكتب إليه زياد :

أمّا بعد ، فخفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإنّ حُريثا قد سبق شرفا لا يرفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عَزْل .

---

(١) الرفه والإرفاه : كثرة التدهن والتنعم .

وقال لابنه عبيد الله : عليك بالحجاب ، وإنّما اجترأتِ الرُّعاة على السِّباع بكثرة نظرِها إليها .

ومن كلامه : أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنّكم لا تزالون سِماناً ما سمنوا .

قدّم رجلٌ خصماً له إلى زياد فى حقٍّ له عليه وقال : أيها الأمير ، إنّ هذا يُدِلُّ بخاصة ذكر أنّها له منك . قال زياد : صَدَق ، وسأخبرك بما ينفعه عندى من خاصّته ومودّته ، إن يكن له الحقّ عليك آخذْك به أخذاً عنيفا ، وإن يكن الحقّ لك قضيتُ عليه ، ثم قضيت عنه .

وقال : ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه ، لكنّ العاقل مَنْ يحتال للأمر ألّا يقع فيه .

وقال فى خطبة له : ألا رُبَّ مسرورٍ بقدُومنا لا نسرّه ، وخائف ضرّنا لا نضرُّه !

كان مكتوبا فى الحيطان الأربعة فى قصر زياد كتابة بالجصّ ، أربعة أسطر ؛ أوّلها : الشدّة فى غير عُنْف ، واللّينُ فى غير ضَعْف . والثانى : المحسن مجازًى بإحسانه ، والمسىء يكافأ بإساءته . والثالث : العطيّات والأرزاق فى إبّانها وأوقاتها . والرابع : لا احتجاب عن صاحب ثغرٍ ، ولا عن طارق ليل .

وقال يوما على المنبر : إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يَشفِى بها غيظه لا يقطع بها ذنب عنزٍ فتَضرّه ، لو بلغتنا عنه لسفكْنا دَمه .

وقال : ما قرأتُ كتابَ رجل قطّ إلّا عرفتُ عقلَه منه .

وقال فى خطبة : استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ ؛ فوالله لا يأتينى وضيعٌ بشريف يستخفّ به إلّا انتقمتُ منه ، أو شابٌّ بشيخ يستخفّ به إلا أوجعتُه ضربا ، ولا جاهلٌ بعالم يستخفُّ به إلّا نكّلت به .

وقيل لزياد : ما الحظّ ؟ قال : أن يطولَ عمرُك ، وترَى فى عدوّك ما يسرّك .

قيل : كان زياد يقول : هما طريقان للعامة : الطاعة والسيف .

وكان المغيرة يقول : لا والله حتى يحملوا على سبعين طريقا غير السيف .

وقال الحسن البصرىّ لرجل : ألا تحدّثنى بخطبتىْ زياد والحجّاج حين دَخَلَا العراق ! قال : بلى ، أمّا زياد فلمّا قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ معاوية غيرُ مخوف على قومه ، ولم يكن ليُلحِق بنسبه من ليس منه ، وقد شهدَتِ الشهودُ بما قد بلغكم ، والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَع ، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم ، وقد رحلتُ عنكم وأنا أعرف صَديق من عدوّى ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقا مناصحا ، والصديق عدوّا مكاشحا ، فليشتَمِل كلّ امرئٍ على ما فى صدره ، ولا يكوننّ لسانه شفرةً تجرى على أوداجه ، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيدى ، فإن أشهره لم أغمدْه ، وإن أغمدْه لم أشهرِه . ثم نزل . وأمّا الحجّاج فإنه قال : من أعْيَاهُ داؤه ، فعَلَىّ دواؤه ؛ ومن استبطأ أجلَه ؛ فعلىّ أن أعجّلَه ؛ ألا إنّ الحزم والعَزْم استلبا منّى سوطى ، وجعلا سوطى سيفى ، فنجادُه فى عنقى ، وقائمه بيدى ، وذُبابه قلادةٌ لمن اغترّ بى .

فقال الحسن : البؤس لهما ، ما أغرّهما بربّهما ! اللّهمّ اجعلْنا ممن يعتبر بهما .

وقال بعضهم : ما رأيت زيادا كاسراً إحدى عينيه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى يخاطب رجلا إلا رحمتُ المخاطَب .

ومن كلامه : نعم الشىء الإمارة ؛ لولا قعقعة لجام البريد ، وتسنّم ذِرْوة المنبر .

قال لحاجبه : يا عجلان ، إنّى قد ولّيتك هذا الباب وعزلتك عن أربعة : المنادى إذا جاء يؤذّن بالصلاة ، فإنّها كانت كتابا موقوتا ، ورسولِ صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ

ساعةً فسد تدبيرُ سنة ، وطارق الّليل فشرٌّ ما جاء به ، والطبّاخ إذا فرغ من الطعام ، فإنّه متى أعيد عليه التّسخين فسَد .

وكان حارثة بن بدر الغُدانيّ قد غلب على زياد ، وكان حارثة مشتهرا بالشراب ، فقيل لزياد فى ذلك ، فقال : كيف باطّراح رجل هو يسايرنى منذ قدِمتُ العراق فلا يصلُ ركابُه ركابى ، ولا تقدّمنى قطّ فنظرتُ إلى قفاه ، ولا تأخّر عنّى فلويْت عنق إليه ، ولا أخذ علىّ الشمس فى شتاء قطّ ، ولا الرّوْح فى صَيْف قطّ ، ولا سألته عن علم إلّا ظننته لا يحسِن غيرَه .

ومن كلامه : كفى بالبخل عارا أنّ اسمَه لم يقع فى حمدٍ قطّ ، وكفى بالجُود فخراً أنّ اسمه لم يقع فى ذمٍّ قط .

وقال : مِلاكُ السّلطان الشدّةُ على المريب ، واللّين للمحسن ، وصِدْق الحديث ، والوفاء بالعهد .

وقال : ما أتيتُ مجلسا قطُّ إلّا تركتُ منه ما لو أخذتُه لكان لى ، وتركُ مالى أحبُّ إلىّ من أخذِ ما ليس لى .

وقال : ماقرأتُ مثلَ كُتب الرّبيع بن زياد الحارثىّ ، ما كتب إلىّ كتابا قطّ إلّا فى اجترار منفعة ، أو دفع مَضَرّة ، ولا شاورته يوما قطُّ فى أمرٍ مبهم إلّا وسَبَق إلى الرأى .

وقال : يُعجبنى من الرجل إذا أتى مجلسا أنْ يعلم أين مكانه منه ، فلا يتعدّاه إلى غيره ، وإذا سِيم خُطّةَ خَسفٍ أن يقول : « لا » بملْءِ فيه .

* * *

فأما خطبةُ زياد المعروفة بالبتراء ـ وإنّما سمّيت بذلك لأنّه لم يحمد الله فيها ، ولا صلّى على رسوله ـ فقد ذكرها علىُّ بن محمّد المدائنى قال : قَدِم زياد البَصْرة أميراً عليها أيّام معاوية والفِسقُ فيها فاشٍ جدا ، وأموالُ الناس منتهبَة ، والسياسة ضعيفة ، فصعِد المنبرَ فقال :

أمّا بعد، فإنّ الجاهليّة الجهلاء[1]، والضّلالة العَمياء، والغيّ الموفِد لأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويَشتمل عليه حُلماؤكم؛ من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأنّكم لم تقرءوا كتابَ الله، ولم تستمعوا ما أعَدّ من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل معصيته، في الزّمن السّرمد الّذى لا يزول.

أتكونون كمن طرفَتْ عينه[2] الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون[3] أنّكم أحدثتم في الإسلام الحدَث الّذى لم تُسبَقوا به؛ من ترككم الضعيف يُقهر ويُؤخذ مالُه[4]، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبصر، هذا والعددُ غير قليل!

ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلَج الليل[5] وغارة النهار! قرّبتم القرابة، وباعدتم الّذين يعتذرون بغير العُذْر، ويُغطون[6] على المختلس، كلّ امرئٍ منكم يذبّ عن سفيه، صنيع[7] من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. ما أنتم بالحلماء، وقد اتّبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترَوْن من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرمة[8] الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا في مكانس الرِّيَب. حَرُم علىّ الطعامُ والشرابُ حتّى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا! إنّى رأيتُ آخر هذا الأمر لا يَصلُح إلّا بما صَلَح به أوّله؛ لينٌ في غير ضعفٍ، وشِدّةٌ في غير عُنْف. وأنا أقسم بالله لآخُذَنّ الولىَّ بالولىّ، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيحَ منكم في نفسه بالسّقيم، حتّى يَلقى الرجلُ أخاه

(١) الجاهلية الجهلاء؛ وصف على المبالغة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم، وهمج هامج.

(٢) طرفت عينه الدنيا؛ أى صرفته عن الحق. (٣) ا: «أتذكرون».

(٤) بعدها في البيان: «وهذه المواخير المنصوبة».

(٥) الدلج: السير من أول الليل؛ وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادّلجوا، بالتشديد.

(٦) ا والبيان: «ويغضون على المختلس».

(٧) ا والطبرى: «صنع».

(٨) البيان: «حرم الإسلام».

فيقول : انجُ سَعْد فقد هَلَكَ سُعَيْد[1] ، أو تستقيم لى قناتُـكم .

إنّ كِذْبة المنبر تُلفى[2] مشهورة ، فإذا تعلقّتم علىّ بكذبة فقد حلّت لـكم معصيتى ! من نُقِب عليه منـكم فأنا ضامن لمـا ذهب منه . فإيّاكم ودَلَج الليل ، فإنّى لا أُوتَى بمُدلِج إلّا سفكتُ دمه . وقد أجّلتـكم بقدر ما يأتى الخبر الـكوفة ، ويرجع إليـكم .

إيّاكم ودعوى الجاهلية ، فإنّى لا أجد أحـدا دعا بها إلّا قطعت لسانه ، وقد أحدثْتم أحداثا ، وقد أحدثنا لـكلّ ذنب عقوبة ، فمن غرّق بيوتَ قـوم غرّقناه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نَقَب على أحدٍ بيتاً نَقَبْنا على قلبـه ، ومن نَبشَ قبرا دفنّاه فيه حيّا .

كفّوا عنّى أيديـكم وألسنتـكم ، أكفّ عنـكم يَدِى ولسانى . ولا يظهرنّ من أحدِكم خلافُ ما عليه عامّتـكم فأضرب عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ فقد جعلت ذلك وراء أُذُنى ، وتحتَ قَدَمى ، فمن كان منـكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومَن كان مسيئا فلينزع عن إساءته ؛ إنى لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السُّلَال[3] من بُغضى لم أكشِفْ عنه قناعا ، ولم أهتك له سِتْرا حتّى يُبدىَ لى صَفحتَه ، فإذا فعـل لم أناظره . فاستأنِفوا أمورَكم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسرّ ، ومسرورٍ بقدومنا سيبأس .

أيّـها الناس ، إنا أصبحنا لـكم ساسةً ، وعنـكم ذادة ، نسوسُـكم بسلطان الله الّذى أعطاناه ، ونذودُ عنـكم بفىء الله الّذى خوّلَناه ، فلنا عليـكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولـكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتـكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث : لـست محتجبا عن طالبِ حاجةٍ منـكم ،

---

(١) سعد وسعيد ، هما ابنا ضبة بن أد ، خرجا فى طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردّها ، وقتل سعيد ، فـكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد !

(٢) ا : « تبقى » ، وفى البيان : « بلقاء مشهورة » .

(٣) البيان : « السل » .

ولا حابسا عطاء ، ولا مجمِّرا[1] بَعْثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنَّهم ساستكم المؤدِّبون ، وكهفكم الذى إليه تأوُون ؛ ومتى يصلحوا تصلُحوا ، فلا تُشرِبوا قلوبكم بغضهم ، فيشتدَّ لذلك غيظُكم ، ويطول لذلك حُزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنَّه لو أُستجيب لأحدٍ منكم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يعين كُلًّا على كُلٍّ . وإذا رأيتمونى أنفِذُ فيكم الأمر ، فأنفِذُوه على أذلاله[2] . وأَيم الله إنَّ لى فيكم لصرعَى كثيرة ، فليحذر كلُّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاى .

فقام عبدُ الله بن الأهتم فقال : أشهد أيُّها الأمير ؛ لقد أُوتيتَ الحكمة وفصل الخطاب.

فقال : كذبت ، ذاك نبيُّ الله داود .

فقام الأحنف فقال : إنما الثَّناء بعد البلاء ، والحمدُ بعد العطاء ، وإنَّا لا نثنى حتى نُبتَلَى ، ولا نَحمَد حتى نعطى .

فقال زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن أديّة يهمس ويقول : أنبأنا اللهُ بغير ما قلت ، [فقال]: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [4] ، فسمعها زياد فقال : يا أبا بلال ، إنَّا لا نبلغُ ما نريد بأصحابك حتى نخوضَ إليهم الباطل خوضا [5] .

* * *

وروى الشعبيّ ، قال : قدم زيادٌ الكوفة لمَّا جمعتْ له مع البصرة ، فدنوتُ من المنبر لأسمع كلامَه ، فلم أرَ أحدا يتكلم فيُحسِن إلَّا تمنَّيت أن يسكُت مخافة أن يسيء ، إلَّا زيادا فإنه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا ، فكنت أتمنَّى ألَّا يسكت .

---

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم فى أرض العدو ويحبسهم عن العود إلى أهلهم .

(٢) على أذلاله : على طرقه ووجوهه ؛ واحده ذلّ ؛ وهو ما ذلل ومهد من الطريق .

(٣) من البيان .

(٤) بعدها فى البيان : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم، والمطيع بالعاصى، والمقبل بالمدبر » .

(٥) الخطبة رواها الجاحظ فى البيان والتبيين ٢ : ٦١ ؛ وهى أيضاً فى عيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ، ونوادر القالى ١ : ١٨٥ ، والطبرى (حوادث ٤٥)

وَرَوَى الشعبيّ أيضا ، قال : لمّا خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل سمعَ تلك الليلة أصواتَ الناس يتحارَسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إنّ البلد مفتونة ، وإن المرأة من أهـل المصر لتأخذها الفِتْيان الفُسّاق فيقال لها : نادِى ثلاث أصوات ، فإنْ أجابكِ أحد وإلاّ فلا لومَ علينا فيما نصنع. فغضب فقال : ففيمَ أنا، وفيمَ قدمت ! فلمّا أصبح أمر فنودى في الناس، فاجتمعوا فقال : أيّهاالناس ، إنى قد نبِّئت بما أنتم فيه وسمعتُ ذَرْوًا[1] منه ، وقدأنذرتـكم وأجّلتـكم شهراً مسيرَ الرّجل إلى الشام ، ومسيره إلى خراسان ، ومسيره إلى الحجاز ، فمن وجدْناه بعد شهر خارجا من منزله بعد العشاء الآخرة فدمه هَدَر . فانصرف الناس يقولون : هـــذا القولُ كقول من تقدّمه من الأمراء ، فلما كمل الشهر دعا صاحبَ شرطته عبد الله ابن حُصَين اليربوعيّ ــ وكانت رجال الشُّرطة معه أربعة آلاف ــ فقال له: هَيِّ ْ خيلك ورَجلك، فإذا صلّيت العشاء الآخرة ، وقرأ القارئُ مقدار سُبْع من القرآن ، ورفع الطُّنُّ القصب من القصر ، فسِرْ ولاتلقيَنّ أحدا ؛ عُبيد الله بن زياد فمن دونه، إلا جئتني برأسه ، وإن راجعتني في أحد ضربتُ عنقك .

قال : فصبّح على باب القصر تلك الليلة سبعمائة رأس ، ثمّ خرج الليلة الثانية فجاء بخمسين رأسا ، ثم خرج الليلة الثالثة فجاء برأس واحد ، ثمّ لم يجئ بعدها بشيء ، وكان النـاس إذا صلُّوا العشاء الآخرة أحضروا إلى منازلهم شدًّا حثيثا ، وقد يترك بعضهم نِعاله .

كتبتْ عائشة إلى زياد كتـابا ، فلم تدر ما تـكتب عنوانه ! إن كتبتْ زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبْته ، وإن كتبتْ زياد بن أبى سفيان أثمتْ ، فـكتبتْ : من أمّ المؤمنين إلى ابنها زياد . فلمـا قرأه ضَحِك ، وقال : لقد لقيتْ أمُّ المؤمنين من هذا العنوانِ نصَبا !

---

(١) ذروا : أى طرفاً .

(٤٥)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ ـ وكان عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعِيَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ـ قوله :

أَمَّا بَعْدُ يَابْنَ حُنَيْفٍ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا ، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ . وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ . فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ . أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللَّهِ[١] مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا ، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا ، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ .

* * *

الشّرْحُ :

[عثمان بن حُنَيف ونسبه]

هو عثمان بن حُنَيف ـ بضم الحاء ـ بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ

(١) ب : « اللهم » .

ثم الأوسىّ أخو سهل بن حُنَيف ، يكنى أبا عمرو ـ وقيل : أبا عبد الله ـ عمل لعمرَ ثم لعلىّ عليه السلام ، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق ، وضربَ الخراج والجزية على أهلها ، وولّاه علىّ عليه السلام على البصرة ، فأخرجه طلحة والزُّبير منها حين قدِماها ، وسكن عثمان الكوفة بعد وَفاة علىّ عليه السلام ، ومات بها فى زمن معاوية .

* * *

قوله : « من فتية البَصرة » ، أى من فتيانها ، أى من شبابها أو من أسخيائها ؛ يقال للسخىّ : هذا فتى ، والجمع فِتْية وفتيان وفُتُوّ ؛ ويروَى : « أنّ رجلا من قُطّان البصرة » ، أى سكانها .

والمأدُبة ، بضم الدال : الطعام يدعى إليه القوم ، وقد جاءت بفتح الدال أيضا ، ويقال : أدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدِب : الدّاعى إليه ، قال طَرَفة :

نحن فى المشتاة نَدْعُو الجَفَلَى　　لا ترى الآدِبَ فينا يَنتقِر(١)

ويقال أيضا : آدبهم إلى طعامه يُؤْدبهم إيدابا ؛ ويروى : « وكثرت عليك الجفان فكَرَعْتَ وأكلتَ أكل ذئب نَهِم ، أو ضبُع قَرِم » .

وروى : « وما حَسِبتك تأكل طعامَ قوم » .

ثم ذمّ أهلَ البصرة فقال : « عائلهم مجفوّ ، وغنيّهم مدعوّ » ، والعائل : الفقير ، وهذا كقول الشاعر :

فإن تُملِقْ فأنت لنا عدوٌّ　　فإن تثر فأنتَ لنا صديقُ

(١) ديوانه ٧٩ . المشتاة : زمن الشتاء . والجفلى : أن يعم المرء بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحدا دون الآخر . والانتقار : أن يدعو النقرى ؛ وهى أن يخص بدعوته ولا يعمها .

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهةَ فيه ، وسمّى ذلك قضما ومقضما وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له ، وازدرائه إياه ، وأنه عنـده ليس مما يستحقّ أن يسمّى بأسماء المرغوب فيه ، المتنافس عليه ، وذلك لأن القَضْم يطلق على معنيين : أحدُهما على أكل الشيء اليابس ، والثانى على ما يؤكل ببعض الفم ؛ وكلاهما يدلّان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه ، لا فيه .

ثم ذكر عليه السلام حالَ نفسه فقال : « إنّ إمامكم قد قنع من الدنيا بِطِمْرَيه » ، والطِّمْر : الثوب الخلَق البالى ، وإنمـا جعلهما اثنين لأنّهما إزارٌ ورداء لابدّ منهما ، أى للجسد والرأس .

قال : « ومن طُعْمه بقُرْصَيه » ، أى قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما . وروى : « قد اكتفى من الدنيـا بطمرَيه ، وسدّ فورةَ جوعه بقُرْصيه ، لا يطعم الفلْذة فى حوليه إلّا فى يوم أضحية » .

ثم قال : إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليـه ، ولـكنى أسألـكم أن تعينونى بالوَرَع والاجتهاد .

ثم أقسم أنه ما كنز ذهبا ، ولا ادّخر مالا ، ولا أعدّ ثوبا باليا سملا لبالى ثوبيه ، فضلا عن أن يعدّ ثوبا قشيباً كما يفعله الناس فى إعداد ثوب جديد ليلبسوه عِوَض الأسمال التى ينزعونها ، ولا حاز من أرضها شبرا ، والضمير فى « أرضها » يرجع إلى « دنياكم » ، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبرة ، وهى التى عقر ظهرُها فقلّ أكلها .

ثم قال : « ولهى فى عينى أهوَن من عَفْصة مَقِرة » ، أى مُرّة ، مقِر الشىء بالـكسر أى صار مرّا ، وأمقرَه بالهمز أيضا ، قال لبيد :

مُمقِـرٌ مُرٌّ على أعـدائه وعلى الأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعَسَل[1]

---

(١) ديوانه ١٩٧ .

الأصْلُ :

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكَ وَغَيْرِ فَدَكَ ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الجدَث : القبر ، وأضغطها الحجر : جعلها ضاغطة ، والهمزة للتعدية ، ويروى : « وضغطها » .

وقوله : « مظانّها فى غد جَدَث » ، المظانّ : جمع مَظِنّة ، وهو موضع الشىء ومألفه الذى يكون فيه ، قال :

فإن يَكُ عامرٌ قد قال جهلًا   فإن مَظِنّة الجهلِ الشباب[1]

يقول : لا مال لى ، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالًا ، وإنما كانت فى أيدينا فَدَكُ فشحّت عليها نفوسُ قوم ، أى بخلتْ وسخَتْ عنها نفوسُ آخرين ، أى سامحت وأغضَتْ . وليس يعنى ها هنا بالسخاء إلّا هذا ، لا السخاء الحقيقىّ ، لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدَكَ إلا غصبا وقَسْرا ؛ وقد قال هذه الألفاظ فى موضع آخر فيما تقدّم ، وهو يعنى الخلافة بعد وفاةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

---

(١) للنابغة الذبيانى ، ديوانه ١٤ .

ثم قال : « ونعم الحَكَم الله » ، الحَكَم : الحاكم ، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلِّم ، ثم ذكر مآلَ الإنسان وأنّه لا ينبغى أن يكترث بالقِينات والأموال ، فإنّه يصير عن قريب إلى دار البِلَى ومنازل الموتى .

ثمّ ذكر أنّ الحفرة ضيّقة ، وأنه لو وسّعها الحافر لألجأها الحجر المتداعى والمدَر المتهافت ، إلى أن تضغط الميّت وتزحمه . وهذا كلام محمول على ظاهره ، لأنّه خطاب للعامّة ، وإلّا فأىّ فَرْق بين سعة الحفْرة وضِيقها على الميّت ! اللهمّ إلّا أن يقول قائل : إنّ الميّت يحسّ فى قبره ، فإذا قيل ذلك فالجاعل له حِساساً بعد عدم الحسّ هو الّذى يوسّع الحفرة ، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقة ؛ فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العرَب خاصّة ، ومن يَحمل الأمورَ على ظواهرها .

ثم قال : « وإنّما هى نفسى أروضُها بالتقوى » ، يقول : تَقلُّلى واقتصارى من المطعم والملْبَس على الجشِب والخشِن رياضةٌ لنفسى ، لأنّ ذلك إنّما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس فى الدنيا ، فالرياضة بذلك هى رياضةٌ فى الحقيقة بالتقوى ، لا بنفس التقلّل والتقشُّف ، لتأتى نفسى آمنةً يومَ الفزَع الأكبر ، وتثبت فى مداحض الزّلَق .

***

[ذكر ما ورد من السِّيَر والأخبار فى أمر فَدَك]

واعلم أنّا نتكلّم فى شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول :

الفصل الأوّل فيما ورد فى الحديث والسِّيَر من أمر فَدَك ، والفصل الثانى فى هل النبيّ صلّى الله عليه وآله يورَث أم لا ؟ ، والفصل الثالث فى أنّ فَدَك ؛ هل صحّ كونها نِحْلة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة أم لا ؟

الفصل الأول : فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم ، لا من كُتب الشيعة ورجالهم ، لأنّا مشترطون على أنفسنا ألّا نحفل بذلك ، وجميع ما نورده فى هذا الفصل من كتاب أبى بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ فى السقيفة وفدَك وما وقع من الاختلاف والاضطراب عَقِب وفاةِ النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ وأبو بكر الجوهرىّ هذا عالم مُحدِّث كثيرُ الأدب ، ثقة وَرِع ، أثنَى عليه المحدّثون ورووْا عنه مصنّفاته .

قال أبو بكر : حدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة قال : حدّثنا حيّان بن بِشر ، قال : حدّثنا يحيى بن آدم ، قال : أخبرَنا ابن أبى زائدة ، عن محمّد بن إسحاق ، عن الزّهرىّ قال : بقيتْ بقيّةٌ من أهل خيبر تحصّنوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يَحقِن دماءهم ويُسيِّرَهم ، ففعل ، فسمع ذلك أهلُ فدَكَ[1] فنزلوا[2] على مثل ذلك ، وكانت للنبىّ صلّى الله عليه وآله خاصّة ، لأنّه لم يُوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال أبو بكر : وَرَوَى محمّد بن إسحاق أيضا؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا فرغ من خيبَر قذف الله الرعبَ فى قلوب أهلِ فدَك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النِّصف من فدَك ، فقدِمَتْ عليه رسلُهم بخيبر أو بالطريق ، أو بعد ما أقام بالمدينة ، فقبل ذلك منهم ، وكانت فدَكُ لرسول الله صلّى الله عليه وآله خالصةً له ، لأنّه لم يوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال : وقد روى أنّه صالَحهم عليها كلِّها ، الله أعلم أىُّ الأمرين كان .

قال : وكان مالك بن أنَس يحدّث عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حَزْم أنّه صالحهم على النِّصف فلم يزَل الأمر كذلك حتّى أخرجهم عمرُ بنُ الخطّاب وأجلاهم بعد أن عوّضهم عن النِّصف الّذى كان لهم عوضا من إبل وغيرها .

---

(١) فدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٢) فى ا « وكانوا » .

وقال غير مالك بن أنس : لمّا أجلاهم عمرُ بعث إليهم من يقوّم الأموال ، بعث أبا الهيثم بن التّيهان ، وفَرْوة بن عمرو ، وحُباب بن صخْر ، وزيد بن ثابت ، فقوّموا أرضَ فدَك ونخلَها ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمةَ النصف الّذى لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألفَ درهم ، أعطاهم إيّاها من مالٍ أتاه من العراق ، وأجلاهم إلى الشام .

قال أبو بكر : فحدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدّثنى جعفر بن محمد بن عُمارة الكندىّ قال : حدثنى أبى ، عن الحسين بن صالح بن حىّ ، قال : حدثنى رجلان من بنى هاشم ، عن زينبَ بنت علىّ بن أبى طالب عليه السلام . قال : وقال جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين عن أبيه . قال أبو بكر : وحدّثنى عثمان بن عمران العجيفىّ ، عن نائل بن نَجيح بن عمير بن شَمِر ، عن جابر الجعفىّ ، عن أبى جعفر محمّد بن علىّ عليه السلام . قال أبو بكر : وحدثنى أحمد بن محمد بن يزيد ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن حسن بن الحسن . قالوا جميعا : لمّا بلغ فاطمةَ عليها السلام إجماعُ أبى بكر على منعها فدَك ، لاثتْ خِمارَها ، وأقبلت فى لُمَةٍ من حَفَدَتِها ونساء قومها ، تطأ فى ذيولها ، ما تخرم مِشيَتها مِشية رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، حتّى دخلتْ على أبى بكر وقدحشَد الناس من المهاجرين والأنصار ، فضرب بينها وبينهم رَيْطةٌ بيضاء — وقال بعضهم : قِبْطيّة ، وقالوا : قُبطية بالكسر والضمّ — ثم أنّت أنّةً أجهش لها القوم بالبكاء ، ثمّ أمهلتْ طويلا حتى سكنوا من فَوْرتهم ، ثمّ قالت : أبتدئُ بحَمْد مَن هو أولى بالحمد والطَّوْل والمجد ، الحمد لله على ما أنعَم وله الشكر بما ألهمَ . وذكر خطبةً طويلةً جيّدة قالت فى آخرها : « فاتّقوا الله حقّ تُقاتِه ، وأطيعوه فيما أمرَكم به ، فإنّما يَخشَى الله من عباده العلماء ، واحمَدوا اللهَ الّذى لعظمته ونوره يَبتغِى مَن فى السموات والأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلتُه فى خلقه ، ونحن خاصّته ، ومحلّ قدسه ، ونحن حجّته فى غيبه ، ونحن ورثة

أنبيائه ، ثم قالت : أنا فاطمة ابنة محمد ، أقول عوْدا على بدء ، وما أقول ذلك سَرَفا ولا شَطَطا ، فاسمعوا بأسماع واعية ، وقلوب راعية ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(١) فإن تَعْزُوه تجدوه أبى دون آبائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم ، ثم ذكرتْ كلاما طويلا سنذكره فيما بعد فى الفصل الثانى ، تقول فى آخره : ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرثَ لى ؛ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٢) إيهاً معاشرَ المسلمين ، ابتزّ إرث أبى ! أبَى اللهُ أن تَرِث يابن أبى قحافة أباك ولا أرِث أبى ، لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فدونكها مخطومةً مرحولةً تلقاك يومَ حشرك ، فنعم الحَكَم الله ، والزعيم محمّد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يَخسَر المُبطِلون ، ولكلّ نبإ مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم ! ثم التفتتْ إلى قبر أبيها فتمثّلت بقول هند بنت أثاثة :

قد كان بعدَك أنباء وهَيْنمةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَكثُر الخطبُ(٣)

أبدتْ رجالٌ لنا نجوى صدورهمُ ... لمّا قضيتَ وحالت دونَك الكُتُبُ

تجهّمتْنا رجالٌ واستُخِفّ بنا ... إذا غبتَ عنّا فنحن اليومَ نُغتصَبُ

قال : ولم يرَ الناسُ أكثر باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذ . ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت : يامعشر البقيّة ، وأعضاد الملّة ، وحضنة الإسلام ، ما هذه الفَتْرة عن نُصرتى ، والوَنْيةُ عن معونتى ، والغمزة فى حقّى ، والسِّنة عن ظُلامتى ! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « المرء يُحفظ فى ولده » ! سرْعانَ ما أحدثتم ، وعجلان ما أتيتم . ألآن مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمَتُّمْ دينه ! ها إنّ موته لعمرى خطبٌ جليل استوسع وَهنُه ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ . (٢) سورة المائدة ٥٠ .

(٣) الهينمة : الصوت الخفى ، والنظر اللسان .

واستبهم فتقُه ، وفُقِد راتقُه ، وأظلمتْ الأرض له ، وخَشَمت الجبال ، وأ كْدَت الآمال . أُضِيع بعدَه الحريم ، وهُتِكت الحرمة ، وأُذيلت المصونة ، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته ، وأنبأ كم بها قبل وفاته ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] إيها بنى قَيلة ! اهتُضم تُراث أبى ، وأنتم بمرأى ومَسمَع ، تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت ، وفيكم العُدّة والعدد ، ولكم الدار والجُنَن وأنتم نُخبة الله التى انتخب ، وخِيَرته التى اختار ! باديتم العرَب ، وبادهتم الأمور ، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رَحَى الإسلام ، ودرّ حلبه ، وخَبَتْ نيران الحرب ، وسكنتْ فَوْرة الشِّرك ، وهدأتْ دعوة الهَرْج ، واستوثق نظام الدِّين ، أفتأخّرتم بعد الإقدام ، ونكصتم بعد الشدّة ، وجُبُنتم بعد الشجاعة ، عن قوم نَكثوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطَعنوا فى دِينكم ! فقاتلوا أئمّة الكُفر إنّهم لا أيمانَ لهم لعلّهم ينتهون . ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض ، ورَكنتم إلى الدّعة ، فجحدتم الّذى وعيتم ، وسُغتم الذى سوّغتم ، وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ، ألا وقد قلتُ لكم ما قلت على معرفة منّى بالخذْلة التى خامرتكم ، وخَوَر القناة ، وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووها مدبِرة الظهر ، ناقبة الخفّ ، باقية العار ، موسومة الشعار ، موصولة بنار الله الموقدة ، التى تَطّلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تعملون ﴿ وسيعلم الّذين ظَلَموا أىّ منقلَب ينقلبون ﴾ .

قال : وحدّثنى محمد بن زكريا قال : حدّثنا محمد بن الضحّاك قال : حدّثنا هشام بن محمد ، عن عوانة بن الحكَم قال : لما كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به حَمِد أبو بكرٍ اللهَ وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثم قال : يا خَيْرَة النساء ، وابنة خير الآباء ، واللهِ ما عدوتُ رأىَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وما عملتُ إلّا بأمره ، وإنّ الرائد

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

لا يكذب أهله ، وقد قلتِ فأبلغتِ ، وأغلظتِ فأهجرتِ ، فغفر الله لنا ولك . أمّا بعد ، فقد دفعت آلةَ رسول الله ودابّته وحذاءه إلى عليّ عليه السلام ، وأمّا ما سوى ذلك فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورِث ذهبا ولا فضّة ولاأرضا ولا عَقارا ولا دارا ، ولكنّا نورث الإيمانَ والحكمةَ والعِلم والسّنة » ، فقد عملت بما أمرنى ، ونصحت له ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

قال أبو بكر : وروى هشام بن محمد ، عن أبيه قال : قالت فاطمة لأبى بكر : إنّ أمّ أيمن تشهد لى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله أعطانى فدَك ، فقال لها : يا ابنة رسول الله ، والله ما خلق الله خلقاً أحبّ إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك ، ولوددتُ أنّ السماء وقعت على الأرض يومَ مات أبوك ، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلىّ من أن تفتقرى ، أترانى أعطى الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقّك ، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إن هذا المال لم يكن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ، فلما توفّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليته كما كان يليه . قالت : والله لا كلّمتك أبدا ! قال : والله لا هجرتك أبدا ؛ قالت : والله لأدعونّ الله عليك ؛ قال : والله لأدعونّ الله لك ، فلما حضرتْها الوفاةُ أوصتْ ألّا يصلّىَ عليها ، فدفنتْ ليلاً ، وصلى عليها عباس بنُ عبد المطلب ، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة .

قال أبو بكر : وحدّثنى محمد بن زكريا، قال : حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال : فلما سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها فصعد المنبر وقال : أيّها الناس ، ما هذه الرّعة إلى كلّ قالة ! أين كانت هذه الأمانىّ فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألا مَن سمع فليقل ، ومن شهد فليتكلَّم ، إنما هو ثعالة شهيده ذنبه ، مُرِبٌّ لكلّ فتنة، هو الذى يقول : كرّوها جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمّ طِحال أحبّ أهلها إليها البغى . ألا إنى لو أشاء أن أقول لقُلتُ ولو قلتُ لبحتُ ، إنى ساكت ما تُرِكت . ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغنى يامعشر الأنصار مقالة سفهائكم ، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنتم . فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ، ألا إنّى لستُ باسطايداً ولا لسانا على مَنْ لم يستحقّ ذلك منّا .

ثم نزل ؛ فانصرفتْ فاطمة عليها السلام إلى منزلها .

* * *

قلت : قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبى يحيى جعفر بن يحيى بن أبى زيد البصرىّ وقلت له : بمن يعرّض ؟ فقال : بل يصرّح . قلتُ : لو صرّح لم أسألك . فضحك وقال : بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قلت : هذا الكلام كله لعلىّ يقوله ! قال : نعم ، إنه المُلْك يا بنىّ ، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال : هتفوا بذكر علىّ فخاف من اضطراب الأمر عليهم ، فنهاهم. فسألته عن غريبه ، فقال : أما الرِّعة بالتخفيف ، أى الاستماع والإصغاء ؛ والقالة : القول ، وثُعالة : اسم الثعلب علم غيرُ مصروف ، ومِثل ذُؤالة للذئب ، وشهيده ذنبه ، أى لا شاهد له على ما يدّعى إلا بعضه وجزء منه ، وأصله مثل ، قالوا : إن الثعلب أراد أن يُغرِىَ الأسد بالذئب ، فقال : إنه قد أكل الشاة التى كنت قد أعددتها لنفسك ، وكنت حاضرا ، قال : فمن يشهد لك بذلك ؟ فرفع ذنبه وعليه دم ، وكان الأسد قد افتقد الشاة . فقبل شهادته ، وقتل الذئب ، ومُرِبّ : ملازم ، أرَبَّ بالمكان . وكرّوها جَذَعة : أعيدوها إلى الحال الأولى ، يعنى الفتنة والهرج . وأمّ طِحال : امرأةٌ بغىٌّ فى الجاهلية ، ويضرب بها المثل فيقال : أزنى من أمّ طِحال .

قال أبو بكر : وحدّثني محمد بن زكريّا قال : حدّثني ابن عائشة ، قال : حدّثني أبي ، عن عمّه قال : لمّا كلّمت فاطمة أبا بكر بكى ، ثم قال : يا بنةَ رسول الله ، والله ما ورّث أبوكِ ديناراً ولا درهما ، وإنّه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إنّ فَدَكَ وَهَبها لي رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام فشهد ، وجاءت أمّ أيمنَ فشهدتْ أيضا ، فجاء عمر بنُ الخطّاب وعبدُ الرحمن بن عوف فشهدا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقسمها ، قال أبو بكر : صدقت يا ابنةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وصدق عليّ ، وصدقتْ أمّ أيمنَ ، وصدق عمر ، وصَدَق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أنّ مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأخذ من فَدَكَ قوتَكم ، ويقسم الباقي ، ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبي ؛ قال : فلكِ عليّ الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوكِ ، قالت : اللهَ لتفعلنّ ! قال : الله لأفعلنّ ، قالت : اللهمّ أشهد ؛ وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان عليّ كذلك ؛ فلمّا ولي الأمرَ معاوية بن أبي سُفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وأقطع عَمرو بنَ عثمان بن عفّان ثلثها ، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها ، وذلك بعد موت الحسن بن عليّ عليه السلام ؛ فلم يزالوا يتداولونها حتى خَلَصتْ كلّها لمروان بن الحكم أيّام خلافته ، فوهبها لعبد العزيز ابنه ، فوهَبَها عبدُ العزيز لابنه عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا وَلِيَ عمر بن العزيز الخلافة ، كانت أوّل ظُلامة ردّها، دعا حسنَ بنَ الحسن ابنِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام — وقيل : بل دعا عليّ بن الحسين عليه السلام — فردّها عليه ، وكانت بيَدِ أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم ، فصارت في أيدي بني مَرْوان كما كانت يتداولونها ، حتّى انتقلت الخلافة عنهم ، فلمّا ولي أبو العبّاس السفّاح ردّها على عبد الله

ابن الحسن بن الحسن ، ثم قبضها أبو جعفر لما حدث من بنى حسن ما حدث ، ثم ردّها المهدىّ ابنهُ على ولد فاطمةَ عليها السـلام ، ثمّ قبضها موسى بن المهدىّ وهارون أخوه ، فلم تزل فى أيديهم حتّى ولى المأمون ، فردّها على الفاطميّين .

قال أبو بكر : حدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدثنى مهدىّ بن سابق، قال : جلس المأمون للمظالم ، فأوّل رُقْعة وقعتْ فى يده نظر فيها وبكى ، وقال للّذى على رأسه : نادِ أين وكيلُ فاطمة ؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة وعمامة وخُفّ تعزّىّ ، فتقـدّم فجعل يناظره فى فدَك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون ، ثم أمر أن يسجّل لهم بها ، فكتب السجلّ وقرئ عليه ، فأنفذه ، فقام دِعْبل إلى المأمون فأنشده الأبيات التى أوّلها :

أصبحَ وجهُ الزّمان قد ضَحِكا ... بردّ مأمونِ هاشمٍ فدَكا[١]

فلم تزل فى أيديهم حتّى كان فى أيّام المتوكّل ، فأقطعها عبدَ الله بن عمر البازيار ، وكان فيها إحدى عشرة نخلةً غَرَسها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيده ، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها ، فإذا قدم الحجّاج أهدوْا لهم من ذلك التمر فيَصِلونهم ، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل ، فصرم[٢] عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر ، ووجّه رجلا يقال له بشران بن أبى أميّة الثقفى إلى المدينة فصرَمه ، ثم عاد إلى البَصرة فَفُلِج .

قال أبوبكر : أخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا : حدّثنا الوليد بن محمّد ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلامُ أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها مِنْ رسول الله صلّى الله عليـه وآله ، وهى حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة وفدَك ، وما بقى من خمُس خيبر ، فقال أبوبكر :

(١) ديوانه ١١٩ ، معجم البلدان (فدك) . (٢) صرم النخل : جذه وقطعه .

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صَدَقة » ، إنّما يأكل آلُ محمّد من هذا المال ، وإنّى والله لا أغيّر شيئاً من صَدَقات رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن حالها الّتى كانت عليها فى عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً ، فوجدَتْ من ذلك على أبى بكر وهجرته فلم تكلّمه حتى توفّيت ، وعاشتْ بعد أبيها ستّة أشهر ، فلمّا توفّيت دفنها علىّ عليه السلام ليلا ، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا محمد ابن أحمد ، عن مَعمر ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة ، أنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلّى الله عليه وآله وهما حينئذ يطلبان أرضَه بفَدَك وسهمه بخيبر ، فقال لهما أبو بكر : إنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » ، إنما يأكل آل محمّد صلى الله عليه وسلم من هذا المال ، وإنى والله لا أغيّر أمرا رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يصنعه إلّا صنعتُه . قال : فهجرتْه فاطمةُ فلم تكلّمه حتى ماتت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا عمر بن عاصم ، وموسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، عن أمّ هانئ ، أن فاطمة قالت لأبى بكر : من يرثك إذا متّ ؟ قال : وَلَدى وأهلى ؟ قالت : فما لَكَ ترث رسولَ الله صلى الله عليه وآله دوننا ؟ قال : يا ابنة رسول الله ، ما وَرّث أبوك دارا ولا مالا ولا ذهبا ولا فضّة ، قالت : بلى سهم الله الذى جعله لنا ، وصار فيئنا الذى بيدك ، فقال لها : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّما هى طُعْمة أطعمَناها الله ، فإذا متّ كانت بين المسلمين » .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا أبو بكر بن أبى شَيْبة قال : حدّثنا محمّد بن الفضل ، عن الوليد بن جميع ، عن أبى الطفيل قال : أرسلتْ فاطمة إلى أبى بكر :

أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله ؟ قال : بل أهلُه ؛ قالت : فما بالُ سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : إني سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : «إن الله أطعم نبيّه طعمة»، ثم قبضه ، وجعله للّذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده ، على أن أرده على المسلمين، قالت: أنتَ وما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال : بل أهلُه ؛ وهذا تصريح بأنه صلّى الله عليه وآله مَورُوث يرثه أهله، وهو خلاف قوله : « لا نورَث» . وأيضا فإنّه يدلّ على أنّ أبا بكر استنبط من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الله أطعم نبيّا طعمة أن يُجرىَ رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النبي صلّى الله عليه وآله ، أو يكون قد فهم أنّه عنى بذلك النبي المنكر لفظا نفسه ، كما فهم من قوله في خطبته ، إن عبدا خيّره الله بين الدنيا وما عند ربّه ، فاختار ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : أخبرنا القعنبيّ قال : حدّثنا عبد العزيز بن محمّد ، عن محمّد بن عمر ، عن أبي سلمة ، أنّ فاطمة طلبتْ فدَكَ من أبي بكر ، فقال : إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ النبيّ لا يُورَث » ، من كان النبي يعوله فأنا أعولُه، ومن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُنفق عليه فأنا أنفق عليه . فقالت : يا أبا بكر ؛ أيرثك بناتُك ولا يرثُ رسول الله صلى الله عليه وآله بناته ؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال : حدثنا فضيل بن مرزوق قال : حدثنا البحتريّ بن حسّان قال : قلت لزيد بن عليّ عليه السلام وأنا أريد أن أهجّن أمرَ أبي بكر ، إنّ أبا بكر انتزع فدَكَ من فاطمة عليها السلام ، فقال ، إنّ أبا بكر كان رجلا

رحيا ، وكان يكره أن يغيّر شيئاً فعله رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتته فاطمة فقالت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطانى فَدَك ، فقال لها : هل لك على هذا بيّنة ؟ فجاءت بعلىّ عليه السلام ، فشهد لها ، ثم جاءت أمّ أيمنَ فقالت : ألستما تشهدان أنّى من أهل الجنّة؟ قالا : بلى ـ قال أبو زيد يعـــنى أنّها قالت لأبى بكر وعمر ـ قالت : فأنا أشهـــد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فَدَك ، فقال أبو بكر : فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحق بها القضيّة . ثم قال أبو زيد : وايم الله لو رجع الأمر إلىّ لقضيتُ فيها بقضاء أبى بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حـــدّثنا محمّد بن الصبّاح قال : حدّثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل ، عن كثير النوال قال : قلت لأبى جعفر محمّد بن على عليه السلام : جعلنى الله فداك ! أرأيت أبا بكر وعمر ، هل ظلماكم من حقّكم شيئاً ـ أو قال : ذهبا من حقّكم بشىء ؟ فقال : لا ، والذى أنزل القرآن على عبده ليـكون للعالمين نذيرا ، ما ظلمنا من حقّنــا مثقال حبّة من خردل ؛ قلت : جعلت فداك أفأتولاهما ؟ قال : نعم ويحك ! تولّهما فى الدنيا والآخرة ، وما أصابك ففى عنقى ، ثم قال : فعل الله بالمغيرة وبُنان ، فإنهما كذبا علينــا أهل البيت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبوزيد، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعنبىّ ، عن مالك عن الزهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبى صلى الله عليه وآله أردْن لما توفّىَ أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهنّ ـ أو قال ثُمُنَهنّ ـ قالت : فقلت لهنّ : أليس قد قال النبىّ صلى الله عليه وآله « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن نافـــع والقعنبىّ وبشر بن عمر ، عن مالك ، عن أبى الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وآله . قال : « لا يقسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركتُ بعدَ نفقـــة نسائى ومئونة عيالى فهو صدقة » .

قلت : هـذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلّا أبو بكر وحده .

وقال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، عن الحزامى ، عن ابن وهب ، عن يونس عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذى نفسى بيده لا يقسِم ورثتى شيئاً ، ما تركت صدقة » ، قال : وكانت هذه الصَّدقة بيَدِ علىٍّ عليه السلام ، غلب عليها العبّاس ، وكانت فيها خصومتهما ، فأبى عمرُ أن يقسمها بينهما حتى أعرض عنها العبّاس وغلب عليها عليـه السلام ، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابنى علىٍّ عليه السلام ، ثم كانت بيَدِ علىّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن ، كلاهما يتداولانها[1] ، ثم بيد زيد بن علىّ عليه السلام .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عثمان بن عمر بن فارس ، قال : حدثنا يونس ، عن الزهرىّ ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، أنّ عمر بن الخطّاب دعاه يوما بعد ما ارتفع النهار ، قال : فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش ، على وسادة أَدَم ، فقال : يا مالك ، إنه قد قدم من قومك أهلُ أبيات حضروا المدينة ، وقد أمرت لهم برضْخ[2] فاقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ بذلك غيرى ، قال : اقسم أيها المرء .

قال : فبينا نحن على ذلك إذ دخل يرفأ ، فقال : هل لك فى عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك ؟ قال : نعم ، فأذِن لهم ، قال : ثم لبث قليلا ، ثم جاء فقال : هل لك فى علىٍّ والعباس يستأذنان عليك ؟ قال : ائذن لهما ، فلما دخلا ، قال عباس : ياأمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا — يعنى عليًّا — وهما يختصمان فى الصوافى[3] التى أفاء الله على رسوله

---

(١) ب : « يتولانها » تصحيف ، صوابه من ا . (٢) الرضخ هنا : المال .

(٣) الصوافى : الأملاك الواسعة . والخبر فى اللسان (صفا) .

من أموال بنى النضير ، قال : فاستبّ علىّ والعباس عند عمر ، فقال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين : اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر ، فقال عمر : أنشدكم الله الذى تقوم بإذنه السموات والأرض ، هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك ، فأقبل على العباس وعلىّ فقال : أنشُدكما الله هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم ؟ قال عمر : فإنى أحدّثكم عن هذا الأمر ، إن الله تبارك وتعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يُعطه غيره ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1] ﴾ ، وكانت هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما اختارها دونكم ، ولا استأثر بها عليكم ، لقد أعطاكُمُوها وثبتها فيكم حتى بقى منها هذا المال ، وكان ينفق منه على أهله سنتهم ، ثمّ يأخذ ما بقى فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ ، فعل ذلك فى حياته ثم توفى ، فقال أبو بكر : أنا ولىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضه الله ، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتما حينئذ ، والتفت إلى علىّ والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر ، والله يعلم إنه فيها لصادق بارّ راشد ، تابع للحق ، ثم توفّى اللهُ أبا بكر ، فقلت : أنا أَوْلى الناس بأبى بكر وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضتها سنتين — أو قال سنين من إمارتى — أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثم قال : وأنتما — وأقبل على العباس وعلىّ — تزعمان أنى فيها ظالم فاجر ، والله يعلم أنى فيها بارّ راشد ، تابع للحق ثم جئتمانى وكلمتكما واحدةً ، وأمركما جميع ، فجئتنى — يعنى العباس — تسألنى نصيبك من ابن أخيك ، وجاءنى هذا — يعنى عليًّا — يسألنى نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، فلما بدا لى أن

---

(١) سورة الحشر ٦ .

أدفعها إليكما قلت : أدفعها على أنّ عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وبما عملتُ به فيها ، وإلّا فلا تكلّمانى ! فقلتُما : ادفعها إلينا بذلك ، فدفعتُها إليكما بذلك ، أفتلتمسان منّى قضاء غير ذلك ! والله الذى تقوم بإذنه السّموات والأرض لا أقضى بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلىّ فأنا أكفيكماها !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا عبد الله ابن المبارك قال : حدّثنى يونس ، عن الزّهرىّ قال : حدّثنى مالك بن أوس بن الحدثان بنحوه ؛ قال فذكرت ذلك لعروة فقال : صدق مالك بن أوس ، أنا سمعتُ عائشة تقول : أرسل أزواجُ النبىّ صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأل لهن ميراثهنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردّهنّ عن ذلك، فقلت : ألا تتّقين الله ، ألم تعلمْن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لا نورَث ، ما تركناه صدقة » ، يريد بذلك نفسه ؛ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، فانتهى أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله إلى ما أمرتهنّ به .

* * *

قلت : هذا مشكل ، لأن الحديث الأول يتضمن أنّ عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان، فقال : نشدتكم الله ، ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ! فقالوا : نعم ، ومن جملتهم عثمان ، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسّلا لأزواج النبىّ صلى الله عليه وآله : يسأله أن يعطيهنّ الميراث ! اللهمّ إلّا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدّقوا عمر على سبيل التقليد لأبى بكر فيما رواه وحُسْنِ الظنّ ، وسمّوا ذلك عِلْما ، لأنه قد يطلق على الظنّ اسم العلم .

فإن قال قائل : فهلّا حسن ظنّ عثمان برواية أبي بكر في مبدأ الأمر فلم يكن رسولا لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله في طلب الميراث ؟ .

قيل له : يجوز أن يكون في مبدأ الأمر شاكًّا ، ثمّ يغلب على ظنه صِدْقه لأمارات اقتضت تصديقه ، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أنّ عمر ناشد عليًّا والعبّاس : هل تعلمان ذلك ؟ فقالا : نعم ، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر ، وقد أوردناه نحن ! وهل يجوز أن يقال : كان العبّاس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذي لا يستحقّه ؟ وهل يجوز أن يقال : إنّ عليًّا كان يعلم ذلك ويمكّن زوجته أن تطلب مالا تستحقّه ، خرجت من دارها إلى المسجد ، ونازعت أبا بكر ، وكلّمته بما كلّمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه . وأيضا فإنه إذا كان صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ، فقد أشكل دفع آلته ودابّته وحذائه إلى عليّ عليه السلام ، لأنّه غير وارث في الأصل ، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بِعُرْضة أن ترث ، لولا الخبر ، فهو أيضا غير جائز ، لأنّ الخبر قد منَع من أن يرث منه شيئا قليلا كان أو كثيرا .

فإن قال قائل : نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوَرِّث ذهبا ولا فضّة ولا أرضا ولا عقارا ولا دارا .

قيل : هذا الكلام يُفهَم من مضمونه أنّهم لا يورّثون شيئاً أصلا ، لأنّ عادة العرب جاريةٌ بمثل ذلك ، وليس يقصدون نفيَ ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها ، بل يجعلون ذلك كالتصريح بنفي أن يورِّثوا شيئاً ما على الإطلاق .

وأيضاً فإنّه جاء في خبر الدابّة والآلة والحذاء أنّه رُوِي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » ، ولم يقل « لا نُورث كذا ولا كذا » وذلك يقتضي عموم انتفاء الإرث عن كلّ شيء .

وأما الخبر الثانى وهو الذى رواه هشام بن محمّد الكلبيّ ، عن أبيه ؛ ففيه إشكال أيضاً، لأنّه قال : إنّها طلبت فدَك ، وقالت : إنّ أبى أعطانيها ، وإنّ أمّ أيمن تشهد لى بذلك ، فقال لها أبو بكر فى الجواب : إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم، وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين ، يحمل [1] به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ؛ فلقائل أن يقول له : أيجوز للنبيّ صلّى الله عليه وآله أن يملّك ابنته أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة، أو عقارا مخصوصا من مال المسلمين ، لوَحْى أوْحَى الله تعالى إليه ، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد ، أولا يجوز للنبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك ؟ فإن قال : لا يجوز ، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه ، وإن قال : يجوز ذلك ، قيل : فإنّ المرأة ما اقتصرت على الدعوى ، بل قالت : أمّ أيمن تشهد لى ، فكان ينبغى أن يقول لها فى الجواب : شهادة أمّ أيمن وحدها غيرُ مقبولة ؛ ولم يتضمّن هذا الخبرُ ذلك ، بل قال لها لما أدّعت وذكرت من يشهد لها : هذا مالٌ من مال الله، لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ وهذا ليس بجواب صحيح .

وأمّا الخبر الّذى رواه محمّد بن زكريّا عن عائشة ، ففيه من الإشكال مثل ما فى هذا الخبر ، لأنّه إذا شهد لها علىّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وهب لها فدَك ، لم يصحّ اجتماع صِدْقها وصِدْق عبد الرحمن وعمر ، ولا ما تكلّفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم ، لأنّ كونها هِبَة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لها يَمْنَع من قوله : « كان يأخذ منها قُوتَكم ويَقسم الباقىَ ، ويحْمِل منه فى سبيل الله » ، لأنّ هذا ينافى كونها هبة لها ؛ لأنّ معنى كونها لها انتقالها إلى مِلْكيّتها ، وأن تتصرّف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس ، وما هذه صفتُه كيف يقسم ويحمل منه فى سبيل الله !

(١) ا : « ويحمل » .

فإن قال قائل : هو صلّى الله عليه وآله أبوها ، وحُكمُه فى مالها كحُكمِه فى ماله وفى بيت مال المسلمين ، فلعلّه كان بحكم الأبوّة يفعل ذلك !

قيل : فإذا كان يتصرّف[1] فيها تصرّف الأب فى مال ولده، لا يخرجه ذلك عن كونه مال ولده ، فإذا مات الأب لم يجز لأحد أن يتصرّف فى مال ذلك الولد، لأنّه ليس بأب له فيتصرّف فى ماله تصرّف الآباء فى أموال أولادهم ؛ على أنّ الفقهاء أو مُعظمَهم لايجيزون للأب أن يتصرّف فى مال الابن .

وها هنا إشكالٌ آخر ، وهو قول عمر لعلىٍّ عليه السلام والعبّاس : وأنتما حينئذ تزعمان أنّ أبا بكر فيها ظالم فاجر، ثمّ قال لمّا ذكر نفسه : وأنتما تزعمان أنّى فيها ظالم فاجر ، فإذا كانا يزعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزّعم مع كونهما يعلمان أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: « لا أورَث » ! إن هذا لمن أعجب العجائب ، ولولا أنّ هذا الحديث ـ أعنى حديث خصومة العبّاس وعلىّ عند عمر ـ مذكورٌ فى الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذكور فى الصّحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن فى صحّته ؛ وإنما الحديث فى الصّحاح لا ريب فى ذلك .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا ابن أبى شَيْبة ، قال : حدّثنا ابن عُلَيّة ، عن أيّوب ، عن عكرمة ، عن مالك بن أوس بن الحدَثان قال : جاء العبّاس وعلىّ إلى عمر ، فقال العباس : اقض بينى وبين هذا الكذا وكذا ، أى يشتمه ، فقال الناس: افصل بينهما، فقال لا أفصل بينهما ، قد علما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة »

قلت : وهذا أيضا مُشكل ، لأنّهما حضرا يتنازعان لا فى الميراث ، بل فى ولاية صدقة رسول الله صلّى الله عليه وآله أيّهما يتولّاها ولايةً لا إرثًا ! وعلى هذا كانت الخصومة ،

---

(١) ب : « قد يتصرف » .

فهل يكون جواب ذلك قد علما أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث » !

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثني يحيي بن كثير أبو غسّان قال : حدّثنا شعبة عن عمر بن مرّة ، عن أبي البَختريّ قال : جاء العبّاس وعليّ إلى عمر وهما يختصمان ، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد : أنشُدكم الله ، أسمعتم رسولَ الله صلّى الله عليه يقول : « كلّ مال نبيّ فهو صدقة ، إلا ما أطعمه أهله ، إنّا لا نُورَث » ! فقالوا : نعم ، قال : وكان رسول الله يتصدّق به ، ويَقسِم فضله ، ثم توفّىَ فوليَه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يَصنعُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنتما تقولان : إنّه كان بذلك خاطئا ، وكان بذلك ظالما ، وما كان بذلك إلّا راشدا ، ثم وُلّيتُه بعد أبي بكر فقلت لكما : إن شئتما قبلتُماه على عمل رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعهده الّذي عهد فيه ، فقلتما : نعم ، وجئتماني الآن تختصمان ؛ يقول هذا : أريد نصيبي من ابن أخي ، ويقول هذا : أريد نصيبي من امرأتي ! والله لا أقضي بينكما إلّا بذلك .

***

قلتُ : وهذا أيضاً مُشكِل ، لأن أكثر الروايات أنّه لم يَروِ هذا الخبر إلّا أبو بكر وحده ، ذكر ذلك أعظم المحدّثين ، حتّى إنّ الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابيّ الواحد . وقال شيخنا أبو عليّ : لا تقبل في الرواية إلّا رواية اثنين كالشهادة ، فخالفه المتكلّمون والفقهاء كلّهم ، واحتجّوا عليه[1] بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » ، حتى إنّ بعض أصحاب أبي عليّ تكلّف لذلك جواباً ، فقال : قد رُوِي أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة عليها السلام قال : أنشُد الله امرأً سمعَ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في هذا شيئاً ! فروَى مالك ابن أوس بن الحدثان ؛ أنّه سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث ينطق

---

(١) ساقطة من ب .

بأنه استشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن وسعدا ، فقالوا : سمعناه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأين كانت هذه الروايات أيّام أبي بكر ! ما نقل أنّ أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمةَ عليها السلام وأبي بكر رَوَى من هذا شيئاً .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيي[1] ، عن إبراهيم بن أبي يحيي ، عن الزّهريّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله أرسلنَ عثمان إلى أبي بكر ، فذكر الحديث ، قال عروة : وكانت فاطمة قد سألتْ ميراثَها من أبي بكر ممّا تركه النبيّ صلّى الله عليه وآله ، فقال لها : بأبي أنتِ وأمّي ، وبأبي أبوكِ وأمّي ونفسي ، إن كنتِ سمعتِ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً ، أو أمركِ بشيء لم أتّبع غير ما تقولين ، وأعطيتكِ ما تبتغين ، وإلّا فإني أتبع ما أُمِرتُ به !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا عمرو بن مرزوق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرّة ، عن أبي البَختريّ قال : قال لها أبو بكر لمّا طلبتْ فَدَك : بأبي أنتِ وأمّي! أنت عندي الصادقة الأمينة ، إن كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم عَهِد إليك في ذلك عهدا ، أو وَعَدَكِ به وعدا ، صدَّقتُكِ ، وسلَّمتُ إليك ! فقالت : لم يعهد إليّ في ذلك بشيء ، ولكنّ الله تعالى يقول : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾[2] ، فقال : أشهد لقد سمعت[3] رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « إنّا معاشر الأنبياء لا نُورَث » .

* * *

قلت : وفي هذا من الإشكال ما هو ظاهر ، لأنّها قد ادّعت أنه عَهِد إليها رسولُ الله صلى الله عليه وآله في ذلك أعظم العهد ، وهو النِّحْلة ، فكيف سكتت عن ذكر هذا لمّا سألها أبو بكر ! وهذا أعجبُ من العجب .

---

(١) ب : « عيسى » . (٢) سورة النساء ١١ . (٣) كذا في ا ، وفي ب : « كان » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ؛ قال : حدّثنا محمد بن يحيى ، قال : حدّثنا عبد العزيز ابن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصارىّ عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال : سمعتُ عمر وهويقول للعبّاس وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة: أنشُدكم اللهَ هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « إنّا لا نُورَث ، معاشرَ الأنبياء ، ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهمّ نعم ، قال: أنشُدكم الله هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدخل فى فيئه أهله السّنة من صدقاته[1] ، ثم يجعل ما بقىَ فى بيت المال! قالوا : اللهمّ نعم ، فلمّا توفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبضها أبو بكر، فجئت يا عبّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك ، وجئت يا علىّ تطلب ميراث زوجتك من أبيهـا ! وزعمتما أن أبا بكر كان فيها خائنا فاجرا ، والله لقد كان امرأ مطيعا ، تابعا للحق ، ثم توفّى أبو بكر فقبضتها ، فجئتمانى تطلبـان ميراثـكما ، أما أنت يا عبّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك ، وأما علىّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها ، وزعمتما أنّى فيها خائن وفاجر ، والله يعلم أنّى فيها مطيع تابع للحقّ ؛ فأصلحا أمركما ، وإلّا والله لم ترجع إليكما . فقاما وتركا الخصومة وأُمضيت صدقة .

قال أبو زيد : قال أبو غسّان : فحدّثنا عبد الرّزاق الصنعانىّ ، عن معمَر بن شهاب ، عن مـالك بنحوه ، وقال فى آخره : فغلب علىٌّ عباسا عليها ، فكانت بيدِ علىّ ، ثمّ كانت بيد الحسن ، ثم كانت بيد الحسين ، ثم علىّ بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن .

* * *

قلت : وهذا الحديث يدلّ صريحا على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية ، وهذا من المُشكِلات ، لأنّ أبا بكر حسم المادّة أوّلا ، وقرّر عند العبّاس وعلىّ وغيرهما أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ، وكان عمر من المساعدين له على ذلك ، فكيف يعود

(١) كذا فى الأصول ، وفى الكلام غموض .

العبّاس وعلىّ بعد وفاة أبى بكر ، يحاولان أمرا قد كان فُرِغ منه ، ويُئِس من حصوله ، اللهمّ إلا أن يكونا ظنّا أن عمر ينقُض قضاء أبى بكر فى هذه المسألة ، وهذا بعيد ، لأنّ عليّا والعبّاس كانا [1] فى هذه المسألة [1] يتّهمان عمر بممالأة أبى بكر على ذلك ألا تراه يقول : نسبتُمانى ونسبتُما أبا بكر إلى الظلم والخيانة ، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبى بكر ويورّثهما !

* * *

واعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان فى أمرين : فى الميراث والنِّحلة ، وقد وجدتُ فى الحديث أنّها نازعتْ فى أمر ثالث ، ومنعها أبو بكر إيّاه أيضا ، وهو سهم ذوِى القربى .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : أخبرنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنى هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثنى صدقة أبو معاوية ، عن محمّد بن عبد الله ، عن محمّد بن عبد الرّحمن بن أبى بكر ، عن يزيد الرُّقاشىّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت : لقد علمت الّذى ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات ، وما أفاء الله علينا من الغنائم فى القرآن من سهم ذوِى القربى ! ثم قرأتْ عليه قولَه تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى . . . ﴾ [2] الآية ، فقال لها أبو بكر : بأبى أنت وأمّى ووالدِ وَلَدِكِ ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وحقّ قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الّذى تقرئين منه ، ولم يبلغ علمى منه أنّ هذا السّهم من الخمس يسلّم إليكم كاملا ؛ قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أُنفِق عليكم منه ، وأصرف الباقى فى مصالح المسلمين قالت : ليس هذا حكم الله تعالى ؛ قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسولُ الله عَهِد إليك

(١ – ١) ساقط من ب .   (٢) سورة الأنفال ٤١ .

فى هذاعهدا أو أوجَبه لـكم حقا[1] صدّقتكِ وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك ؛ قالت: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يَعهَد إلىّ فى ذلك بشىء ، إلّا أنّى سمعته يقول لمـا أنزلت هذه الآية : « أبشِروا آلَ محمّد فقد جاءكم الغِنَى » ؛ قال أبو بكر : لم يبلغ علمى من هذه الآية أن أسلّم إليـكم هذا السّهم كلّه كاملا ، ولـكنْ لـكم الغنى الّذى يُغنيكم ، ويفضل عنـكم ، وهذا عمر بن الخطّاب ، وأبو عبيدة بن الجرّاح فاسأليهم عن ذلك ، وانظرى هل يوافِقُك على ما طلبتِ أحد منهم ! فانصرفتْ إلىعمر فقالت له مِثل ما قالت لأبى بكر ، فقال لهـا مثل ما قاله لها أبو بكر ، فعجبتْ فاطمة عليها السلام من ذلك ، وتظنّت أنّهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدثنا هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد ، عن ابن أبى لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، قال : أرادت فاطمةُ أبا بكر على فدك وسهم ذوى القربى ، فأبى عليها ، وجعلهما فى مال الله تعالى .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد ، قال : حدّثنا أحمد بن معاوية ، عن هيثم ، عن جويبر ، عن أبى الضحّاك عن الحسن بن محمّد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، أنّ أبا بكر منَع فاطمة وبنى هاشم سهم ذوى القربى ، وجعله فى سبيل الله فى السلاح والـكُراع .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا حيّان بن هلال، عن محمد بن يزيد بن ذريع ، عن محمّد بن إسحاق ، قال : سألتُ أبا جعفر محمّد بن علىٍّ عليهما السلام ؛ قلت : أرأيتَ عليّا حين ولىَ العراق وما ولى من أمر الناس كيف صنع فى سهم ذوى القربى ؟ قال : سَلَك بهم طريقَ أبى بكر وعمر ؛ قلت : وكيف ؟ ولِم ، وأنتم تقولون ما تقولون ! قال : أما والله ما كان أهلُه يَصدُرون إلاّ عن رأيه ؛ فقلت : فما منَعه ؟ قال : كان يكره

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « أوجبه لك علىّ » .

أن يدّعى عليه مخالفة أبى بكر وعمر .

قال أبو بكر : وحدّثنى المؤمّل بن جعفر ، قال : حدّثنى محمّد بن ميمون ، عن داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ فى جماعة ، فسألناه عن مسائل ، وكنت أحد من سأله ، فسألته عن أبى بكر وعمر ، فقال : سئل جدّى عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال : كانت أمّى صدّيقة بنت نبىّ مرسل ، فماتت وهى غضبى على إنسان ، فنحن غضاب لغضبها ، وإذا رضيت رضينا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر محمّد بن القاسم قال : حدّثنى علىّ بن الصبّاح قال : أنشدنا أبو الحسن رواية المفضّل للكميت :

أهوَى عليًّا أميرَ المؤمنين وَلَا   أرضَى بشتمِ أبى بكر ولا عُمَرَا[1]
ولا أقولُ وإن لم يُعطِيَا فَدَكًا   بنتَ النبىّ ولا ميراثَها : كَفَرَا[2]
الله يَعلم ماذا يَحضُران به   يومَ القيامة من عذرٍ إذا اعتَذَرَا[3]

قال ابن الصبّاح : فقال لى أبو الحسن : أتقول : إنّه قد أكفرهما فى هذا الشعر ! قلت : نعم ، قال : كذاك هو .

قال أبو بكر : حدّثنا أبو زيد ، عن هارون بن عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن إسماعيل بن عباس ، عن محمّد بن السائب ، عن أبى صالح ، عن مولى أمّ هانئ ، قال : دخلتْ فاطمةُ على أبى بكر بعد ما استُخلِف ، فسألته ميراثها من أبيها ، فمنعها ، فقالت له : لئن متَّ اليومَ مَن كان يرثك ؟ قال : ولدى وأهلى ، قالت : فلِمَ وَرِثتَ أنتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله دون ولده وأهله ؟ قال : فما فعلتُ يا بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : بلى ، إنك عمدتَ إلى فدَك ، وكانت صافيةً لرسول الله صلى الله عليه وآله فأخذتها ، وعمدتَ إلى ما أنزل الله من السماء فرفعتَه عنّا ، فقال : يا بنتَ رسول الله

---

(١) الهاشميات ٨٣ ، ٨٤ .   (٢) ا ، الهاشميات : « ميراثه » .
(٣) الهاشميات : « ماذا يأتيان به » .

صلّى الله عليه وسلم ، لم أفعل ؛ حدّثني رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى يُطعِم النبيَّ صلّى الله عليه وسلم الطُّعمة ما كان حيّا ، فإذا قبضه الله إليه رُفعتْ ، فقالت : أنتَ ورسولُ الله أعلم ، ما أنا بسائلتك بعد مجلسي . ثم انصرفتْ .

قال أبو بكر : وحدّثنا محمد بن زكريا ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الرّحمن المهلّبي ، عن عبد الله بن حمّاد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله بن حسن بن حسن ، عن أمّه فاطمةَ بنتِ الحسين عليهما السلام ، قالت : لمّا اشتدّ بفاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله الوجع وثقُلتْ في علّتها ، اجتمع عندها نساء من نساء المهاجرين والأنصار ، فقلن لها : كيف أصبحتِ يا ابنةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : والله أصبحتُ عائفةً[1] لدُنْياكم ، قاليَةً لرجالكم ، لفظتُهم بعد أن عجمتُهم[2] ، وشنِئتهم[3] بعد أن سَبَرْتهم[4] ، فقبحاً لفلول الحدّ وخَوَر القناة ، وخَطَل الرأى ! وبئسما قدّمتْ لهم أنفسُهم أنْ سَخِط اللهُ عليهم وفى العذاب هم خالدون ؛ لا جرم ! قد قلّدتهم رِبْقتها ، وشنّت عليهم غارتها ، فجَدْعا وعَقْرا ، وسُحْقا للقوم الظالمين ! وَيْحَهم ! أين زحزحوها عن رَوَاسى الرّسالة ، وقواعدِ النبوّة ، ومَهبِط الرُّوح الأمين ، والطبِيبين بأمر الدّنيا والدّين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ! وما الّذى نقَموا من أبى حسن ! نقَموا واللهِ نكيرَ سيفه ، وشِدّةَ وَطْأته ، ونَكالَ وَقْعته ، وتنمّره فى ذات الله ، وتالله لو تكافّوا عن زِمامٍ نبذه إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله لاعتلَقه ، ولسار إليهم سيرا سُجُحا ، لا تكلَم حشاشته ، ولا يتعتع راكبه ، ولأوردهم منهلا نَميرا فضفاضا يطفح ضفّتاه ، ولأصدرهم بِطانًا قد تحيّر بهم الرأى ، غير متحلّ بطائل ، إلّا بغَمْر الناهل ، وردعه سورة الساغب ، ولفتحتْ عليهم بركات من السّماء والأرض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون . ألا هلمّ فاستمع وما عشت

---

(١) عائفة لدنياكم : أى قالية لها كارهة. (٢) عجمتهم : بلوتهم وخبرتهم .
(٣) شنئتهم : أبغضتهم . (٤) سبرتهم : علمت أمورهم .

أراك الدهر عجبه ، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث ، إلى أىّ لجأ استندوا ، وبأىّ عُروة تمسّكوا ! لبئسَ المَولى ولبئس العَشير ، ولبئس للظّالمين بدلا ! استبدلوا والله الذُّنابَى بالقَوادم، والعَجُز بالكاهل؛فرغْما لمعاطس قوم ٍيحسَبون أنّهم يُحسِنون صُنْعا،﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، وَيْحهم ! ﴿ أفمن يَهدِى إلى الحقّ أحقُّ أن يُتّبع أمَّنْ لا يَهِدِّى إلّا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون ﴾ ! أما لَعَمر الله لقد لَقِحت ، فنظرة رَيْثما تُنْتَج[1] ، ثمّ احتلبوها طِلاعَ العَقْب دَماً عَبيطا وذُعافا مُمقِرا هنالك يَخسَر المُبطِلون ، ويَعرِف التالون غِبَّ ماأسّس الأوّلون ، ثم طِيبوا عن أنفسكم نفسا ، واطمئنّوا للفتنة جأشا ، وأبشِروا بسيفٍ صارم ، وهرْجٍ شامل ، واستبدادٍ من الظالمين يَدَعُ فيئكم زهيدا ، وجمعكم حَصيدا ؛ فيا حسرةً عليكم ، وأنّى لكم وقد عُمِّيَتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ! والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاتُه على محمد خاتم النبيّين ، وسيّد المرسلين .

***

قلتُ : هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكرُ فدَك والميراث ، إلّا أنّه من تتمّة ذلك ، وفيه إيضاح لما كان عندها ، وبيانٌ لشدّة غيظها وغضَبها ، فإنّه سيأتى فيما بعدُ ذكر مايناقض به قاضى القضاة والمرتضى فى أنّها هل كانت غَضْبى أم لا ! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه ، وإنّما نذكر ما قيل ، وإذا جرى بحثٌ نظرىٌّ قلنا ما يقوى فى أنفسنا منه .

واعلم أنّا إنّما نذكر فى هذا الفصل ما رواه رجالُ الحديث وثِقاتُهم ، وما أودعه أحمدُ ابنُ عبد العزيز الجوهرىُّ فى كتابه ، وهو من الثقات الأمناء عند أصحاب الحديث ، وأمّا مايرويه رجال الشيعة والأخباريّون منهم فى كتبهم من قولهم : إنّهما أهاناها وأسمَعاها كلاماً غليظا ، وإنّ أبا بكر رقّ لها حيث لم يكن عمرُ حاضرا ، فكتب لها بفدَك كتابا ، فلمّا خرجتْ به وجدَها عمر ، فمدّ يده إليه ليأخذه مغالبة ، فمنعتْه ، فدفع بيدِه فى صدرها

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « تحلب » .

وأخَذَ الصحيفةَ فخرقها بعد أن تفَلَ فيها فمحاها ، وإنها دعت عليه فقالت : بقَرَ الله بطنَك كما بقرتَ صحيفتي ؛ فشيءٌ لا يرويه أصحابُ الحديث ولا ينقلُونه ، وقدرُ الصَّحابة يَجِلّ عنه ، وكان عمرُ أتقى لله ، وأعرفَ لحقوق الله من ذلك ، وقد نظَمَت الشِّيعة بعضَ هذه الواقعة التي يذكرونها شعراً أوّله أبياتٌ لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته التي أوّلها[1] :

يا ابنــةَ القومِ تُراكِ   بالغٌ قتْلِي رِضاكِ[2]

وقد ذيّل عليها بعضُ الشِّيعة وأتمّها ، والأبيات :

يا ابنةَ الطّاهرِ كمْ تُقْـ   ـرَعُ بالظّـلم عصـاكِ
غَضِبَ اللهُ لخَطْبٍ   ليـلةَ الطَّفِّ عَراكِ
ورَعى النـارَ غداً قطّ   رعَى أمسِ حِمـاكِ
مَرّ لم يعطِفه شكْوَى   ولا استحيا بُـكاكِ
واقتـدى الناس به بعـ   ـدُ فأرْدَى وَلَدَاكِ
يا ابنةَ الرّاقِ إلى السدْ   رةِ في لوحِ السكاكِ
لهفَ نفسي وعلى مثْـ   ـلِكِ فلتبكِ البَواكي
كيف لم تقطع يدٌ مُدَّ   إليـكِ ابنُ صُهاكِ
فَرِحوا يومَ أهـانو   كِ بمـا ساءَ أباكِ
ولقــد أخبرَهم أنّ   رِضـاهُ في رِضـاكِ
دَفعـا النصّ على إر   ثكِ لمّا دَفعـاكِ
وتعـرّضْتِ لقَـدْرٍ   تافـهٍ وانتهراكِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ .   (٢) في الأصول : « براك » والصواب ما أثبته من الديوان .

وادّعيت النِّحْلةَ المشـــهود فيها بالصِّكاكِ

فاستشاطا ثمّ ما إن كَذَبا إن كذباكِ

فزوَى اللهُ عن الرّحْـــمةِ زنديقاً ذَوَاكِ

ونفَى عن بابه الوا سع شيطاناً نَفَاكِ

فانظر إلى هــذه البليّة التى صبّت من هؤلاء على سادات المسلمين ، وأعلام المهاجرين ! وليس ذلك بقادح فى عُلوّ شأنهم ، وجلالة مكانهم ، كما أنّ مُبغضى الأنبيـاء وحَسَدتَهم ، ومصنّفى الكتب فى إلحاق العَيْبِ والتهجين لشرائعهم لم تزدْ لأنبيائهم إلّا رفعــة ، ولا زادت شرائعَهم إلّا انتشارا فى الأرض ، وقبولا فى النفس ، وبهجةً ونورا عنــد ذوى الألباب والعقول .

وقال لى عَلَوِىّ فى الحِلّة[1] يُعرَف بعلى بن مهنا ، ذكىّ ذو فضـــائل : ما تظنّ قصدَ أبى بكر وعمرَ بمنع فاطمة فَدَك ؟ قلت : ما قصدا ؟ قال : أرادا ألّا يُظهرا لعلىّ — وقد اغتصباه الخلافة — رقّة ولينا وخذلانا ، ولا يرى عندهما خوَرا ، فأتبعا القرْح بالقرْح .

وقلت لمتكلّم من متكلّمى الإمامية يُعرَف بعلىّ بن تقىّ من بلدة النيــل[2] : وهل كانت فَدَك إلا نخلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير ! فقال لى : ليس الأمرُ كذلك ، بل كانت جليلة جدًّا ، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل ، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألّا يتقوّى علىٌّ بحاصِلها وغَلّتها على المنازعة فى الخلافة ، ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلىّ وسائر بنى هاشم وبنى المطلب حقَّهم فى الخمس ، فإنّ

---

(١) الحلة : تطلق على عدة مواضع ؛ منها موضع بين الكوفة والبصرة ؛ وهى حلة بنى مزيد .

(٢) النيل هنا : بليدة فى سواد الكوفة ؛ قرب حلة بنى مزيد .

الفقيرِ الذى لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه ، ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب المُلك والرياسة ، فانظر إلى ما قد وقَر فى صدور هؤلاء ، وهو داء لا دواء له ، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشِّيم ، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها !

* * *

الفصل الثانى

فى النظر فى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله هل يُورَث أم لا

نذكر فى هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله فى « الشّافى »[1] عن قاضى القضاة فى هذا المعنى ، وما اعترضه به ، وإن استضعفْنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا ، وإلّا تركناه على حاله .

قال المرتضى : أوّل ما ابتدأ به قاضى القضاة حكايته عنّا استدلالنا على أنه صلّى الله عليه وآله مورِّث[2] بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[3] وهذا الخطاب عامّ يدخل فيه النبىّ وغيرُه .

ثمّ أجاب ــ يعنى قاضى القضاة ــ عن ذلك ، فقال : إنّ الخبر الذى احتجّ به أبو بكر ــ يعنى قوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » ــ لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمرَ وعثمانَ وطلحةَ والزبيرَ وسعدا وعبدالرحمن ، فشهدوا به ، فكان لا يحلّ لأبى بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثا ، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها صدقة وليست بميراث ، وأقلّ ما فى هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد ،

---

(١) الشافى ص ٢٢٨ وما بعدها . (٢) ا : « موروث » . (٣) سورة النساء ١١ .

فلو أنّ شاهدين شهدا فى التركة أنّ فيها حقّا ، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمُه بمـا قال رسول الله صلى الله عليه وآله مع شهادة غيره أقوى . ولسنا نجعله مدّعيا لأنّه لم يدّع ذلك لنفسه ، وإنما بيّن أنه ليس بميراث ، وأنه صدقة . ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك ، كما يخصّ فى العبد والقاتل وغيرهما ، وليس ذلك بنقص فى الأنبياء ، بل هو إجلالٌ لهم ، يرفع اللهُ به قدرهم عن أن يورّثوا المـال ، وصار ذلك من أوكد الدواعى ألّا يتشاغلوا بجمعه ، لأنّ أحد الدواعى القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين . ولمـا سمعتْ فاطمة عليها السلام ذلك من أبى بكر كفّت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة ، فلا يمتنع أن تـكون غيرَ عارفة بذلك ، فطلبت الإرث ، فلما رَوَى لها ما رَوَى كفّت ، فأصابت أولا وأصابت ثانيا .

وليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يبين النبيّ صلى الله عليـــه وآله ذلك للقوم ولا حقّ لهم فى الإرث ، ويدَع أن يبين ذلك لمن له حقّ فى الإرث ، مع أنّ التـكليف يتصل به ؟ وذلك لأنّ التـكليف فى ذلك يتعلّق بالإمام ، فإذا بيّن له جاز ألّا يبيّن لغيره ويصير البيان له بيانًا لغيره ، وإن لم يسمعه من الرّسول ، لأنّ هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة !

قال : ثمّ حكى عن أبى علىّ أنه قال : أتعلمون كَذِبَ أبى بكر فى هـــذه الرواية ، أم تجوّزون أن يكون صادقا[1] ؟ قال : وقد علم أنه لا شىء يقطع به على كَذِبه ، فلا بدّ من تجويز كونه صادقا . وإذا صحّ ذلك قيـــل لهم : فهل كان يحلّ له مخالفة الرسول ؟ فإن قالوا : لو كان صِدْقا لظهر واشتهر ، قيل لهم : إنّ ذلك من باب العمل ، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة ، بل الواحد والاثنان ، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات ، فإن قالوا نعلم أنه لا يصحّ لقوله تعالى فى كتابه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾[2] . قيل لهم :

---

(١) الشافى : « أم تجوّزون كذبه وصدقه » . (٢) سورة النمل ١٦ .

ومن أين أنه ورّثه الأموال؛ مع تجويز أن يكون ورّثه العلم والحكمة ؟ فإن قالوا : إطلاق الميراث لا يكون إلاّ فى الأموال ؛ قيل لهم : إن كتاب الله يُبطل قولكم ، لأنه قال : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(١) ، والكتاب ليس بمال ، ويقال فى اللغة: ما وَرِثَت الأبناء عن الآباء شيئاً أفضلَ من أدب حَسَن ؛ وقالوا : العلماء وَرَثة الأنبياء ، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال ، على أنّ فى آخر الآية ما يدلّ على ما قلناه ، وهو قولُه تعالى حاكيا عنه : ﴿وقال يَا أَيُّها النّاسُ عُلِّمنَا منطقَ الطَّيْرِ وأُوتينَا من كلّ شيء إنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ المبين﴾(٢) ، فنبّه على أنّ الذى ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأوّل . فإن قالوا : فقد قال تعالى:﴿فهبْ لى مِنْ لَدُنْكَ وليًّا يَرِثُنِى ويَرِثُ من آل يعقوب﴾(٣) ، وذلك يُبطل الخبر ! قيل لهم : ليس فى ذلك بيانُ المال أيضا ، وفى الآية ما يدلُّ على أنّ المراد النبوّة والعلم ، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس ، وقوله : ﴿وإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِى﴾ يدلّ على ذلك ، لأنّ الأنبياء لا تحرِص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها ، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع ، فسأل الله تعالى وليًا يقوم بالدّين مقامه . وقوله : ﴿ويَرِثُ من آل يعقوب﴾ يدلّ على أنّ المراد العلمُ والحكمة ، لأنه لا يرث أموال يعقوبَ فى الحقيقة(٤) ، وإنما يرث ذلك غيره . قال : فأمّا مَنْ يقول : إنّ المراد : أنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه صدقة ، أى ما جعلناه صدقةً فى حال حياتنا لا نوَرِّثُه ، فركيك من القول ، لأنّ إجماع الصحابة يخالفه ، لأنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه ، لأنه لا يكون فى ذلك تخصيص الأنبياء ، ولا مزية لهم ، ولأن قوله : « ما تركناه صدَقة » ، جملة من الكلام مستقلّة بنفسها ، كأنه

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

(٢) سورة النمل ١٦ . (٣) سورة مريم ٥ ، ٦ .

(٤) ب : « الحقيقة » تحريف صوابه من ا والشافى .

عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال ، يبيّن أنه صدقة ، لأنه كان يجوز ألاّ يكون ميراثا ، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة .

قال : فأمّا خبر السّيف والبغلة والعمامة وغير ذلك ؛ فقد قال أبو علىّ : إنّه لم يثبت أنّ أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرْث ، كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ، وكيف يجوز لو كان وارثا أن يخصّه بذلك ولا إرث له مع العمّ لأنّه عصبة ! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغى أن يكون العبّاس شريكا فى ذلك وأزواج الرّسول الله صلّى الله عليه وآله، ولوجب أن يكون ذلك ظاهرا مشهورا ليُعرف أنّهم أخذوا نصيبَهم من ذلك أو بَدَله، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرْث ألاّ يحصل ذلك فى يده ، لأنّه قد يجوز أن يكون النبىّ صلّى الله عليه وآله نَحَلَه ذلك، ويجوز أيضا أن يكون أبو بكر رأى الصّلاحَ فى ذلك أن يكون بيده لما فيه من تقوِيَة الدّين ، وتصدّق ببدله بعد التقويم ، لأنّ الإمام له أن يفعل ذلك .

قال : وحكى عن أبى علىّ فى البُرْد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعله عُدّة فى سبيل الله وتقوِيَة على المشركين ، فتداولته الأئمة لما فيه من التقوية ، ورأى أنّ ذلك أولى من أن يتصدّق به إن ثبت (١) أنه عليه السلام لم يكن قد نحله غيْره فى حياته ، ثم عارض نفسَه بطلبِ أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله الميراث ، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس بعد موت فاطمةَ عليها السلام . وأجاب عن ذلك بأن قال : يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبى بكر وغيره للخبر .

وقد رُوِى أنّ عائشة لما عرّفتهنّ الخبرَ أمسكن ، وقد بيّنا أنّه لا يمتنع فى مثل ذلك أن يخفى على من يستحقّ الإرْث ، ويعرفه من يتقلّد الأمر ، كما يعرِف العلماء والحكّام من أحكام المواريث ما لا يعلمه أرباب الإرْث ، وقد بيّنا أنّ رواية أبى بكر مع الجماعة

---

(١) ا الشافى : « أن يثبت » .

أقوى من شاهدين لو شهد أنّ بعض تركته عليه السلام دَيْن ، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو رَوَيا ذلك .

قال : ومتى تعلّقوا بعموم القرآن أريناهم جوازَ التّخصيص بهذا الخبر ، كما أنّ عموم القرآن يقتضي كون الصّدقات للفقراء ، وقد ثبت أنّ آل محمد لا تحلّ لهم الصدقة .

هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضي القُضاة[1] .

* * *

ثم قال : نحن نبيّن أوّلا ما يدلّ على أنّه صلّى الله عليه وآله يورَّث المال ، ونرتّب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح ، ثم نعطف على ما أورده ، ونتكلّم عليه .

قال رضي الله عنه : والّذي يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى مخبرا عن زكريّا عليه السلام : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[2] ؛ فخبّر أنه خاف من بني عمّه ، لأن الموالي هاهنا هم بنو العمّ بلا شبهة ، وإنّما خافهم أنْ يرثوا ماله فينفقوه في الفساد ، لأنّه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم ، فسأل ربّه ولدا يكون أحقّ بميراثه منهم .

والذي يدلّ على أنّ المراد بالميراث المذكور ميراثُ المال دون العلم والنبوّة على ما يقولون أنّ لفظة الميراث في اللّغة والشريعة لا يفيد[3] إطلاقُها إلّا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث ، كالأموال وما في معناها ، ولا يُستعمل في غير المال إلا تجوّزا واتّساعا ، ولهذا لا يُفهَم من قول القائل : لا وارث لفلان إلّا فلان ، وفلانٌ يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلّا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها . وليس لنا أن نعدل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مجازه بغير دلالة . وأيضا فإنّه تعالى خبّر عن نبيّه أنّه اشترط في وارثه أن يكون رضيّا ، ومتى لم يُحمل الميراث في الآية على المال دون العلم

(١) الشافي ٢٢٨ ، ٢٢٩ . (٢) سورة مريم ٥ ، ٦ . (٣) ا والشافي : « لا يفهم » .

والنبوّة لم يكن للاشتراط معنًى ، وكان لغواً وعبثا ؛ لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه ، ويرث مكانه فقد دخل الرّضا وما هــو أعظم من الرّضا فى جملة كلامه وسؤاله ؛ فلا مقتضى لاشتراطه؛ألا ترى أنّه لايحسن أن يقول: اللهم ابعث إلينا نبيًا واجعله عاقلا، [ومكلّفا][1]؛ فإذا ثبتتْ هذه الجملة صحّ أنّ زكريّا موروثٌ مالُه . وصحّ أيضا لصحّتها أن نبيّنا صلّى الله عليه وآله ممّن يورّث المال ، لأن الإجماع واقع على أنّ حال نبيّنا عليه السلام لا يخالف حالَ الأنبياء المتقدّمين فى ميراث المال ، فمن مثبت للأمْرين وناف للأمْرين[2] .

قلت : إنّ شيخنا أبا الحسين قال فى كتاب " الغُرَر " : صورة الخبر الوارد فى هــذا الباب ، وهو الّذى رواه أبو بكر: «لانُورَث»، ولم يقل : «نحن معاشرَ الأنبياءلانورث»، فلا يلزم من كون زكريّا يورَث الطعنُ فى الخبر . وتصفّحت أنا كُتبَ الصّحاح فى الحديث فوجدتُ صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين ، وإن كان رسولُ صلّى الله عليه وآله عَنَى نفسه خاصّة بذلك ؛ فقد سقط احتجاج الشّيعة بقصّة زكريا وغــيره من الأنبياء ، إلّا أنّه يَبعدُ عندى أن يــكون أراد نفسه خاصّة ؛ لأنّه لم تَجْرِ عادته أن يخــبر عن نفسه فى شىء بالنون .

فإن قلتَ : أيصحّ من المرتضى أن يوافق على أنّ صورة الخبر هــكذا ، ثم يحتجّ بقصّة زكريّا بأنْ يقول : إذا ثبت أنّ زكريا موروث ، ثبت أنّ رسول الله صــلّى الله عليه وآله يجوز أن يكون موروثا ، لإجــاع الأمّة على أن لا فرق بين الأنبياء كلّهم فى هذا الحــكم !

قلت : وإن ثبت له هذا الإجماع صحّ احتجاجه ، ولــكنّ ثبوته يبعد ، لأنّ من نفى كون زكريّا عليه الســلام موروثا من الأمّة إنّما نفاه لاعتقاده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « نحن معاشرَ الأنبياء » ، فإذا كان لم يقل هكذا ، لم يقل : إنّ زكريّا عليه السلام غير موروث .

---

(١) من الشافى . (٢) الشافى ٢٢٩ .

قال المرتضى : ومما يقوّى ما قدّمناه أنّ زكريّا عليه السلام خاف بنى عمّه ، فطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون العلم والنبوّة ، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيّا ليس بأهل للنبوّة ، وأن يُورّث علمه وحكمه من ليس أهلا لهما ، ولأنّه إنما بُعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس ، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الّذى هو الغرض فى البعثة[1] . فإن[2] قيل : هذا يرجع عليكم فى الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل . قلنا : معاذَ الله أن يستوىَ الحال ، لأنّ المال قد يصحّ أن يَرْزُقَه الله تعالى المؤمن والكافرَ والعدوّ والولىّ ، ولا يصحّ ذلك فى النبوّة وعلومها . وليس من الضنّ أن يأسى على بنى عمّه — وهم من أهل الفساد — أن يظفَروا بماله فينفقوه على المعاصى ، ويصرفوه فى غير وجوهه المحبوبة ، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير فى الدّين ، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفسّاق وإمدادَهم بما يُعينهم على طرائقهم المذمومة ، وما يَعدّ ذلك شحّا ولا بخلا إلّا من لا تأمّل له .

فإن قيل : أفلا[3] جاز أن يكون خاف من بنى عمّه أنْ يَرِثوا علمه، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس ، ويموّهوا به عليهم ؟ قلنا : لا يخلو هذا العلم الّذى أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علما على طريق المجاز، أو يكون هو العلم الّذى يحلّ القلب . فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال، ويصحّح أن الأنبياء يُوَرِّثون أموالهم وما فى معناها ، وإن كان الثانى لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الّذى يُبعث النبىّ لنشره وأدائه ، أو أن يكون علما مخصوصا لا يتعلّق بالشريعة ، ولا يجب إطلاع جميع الأمّة عليه ، كعلم العواقب وما يجرى فى مستقبل الأوقات ، وما جرى مَجرَى ذلك . والقسم الأوّل لا يجوز على النبىّ أن يخاف من وصوله إلى بنى عمّه وهم من جملة أمّته الّذين بعث لإطلاعهم على ذلك ، وتأديته إليهم ، وكأنّه على هذا الوجه يخاف ممّا هو الغرض من بعثته . والقسم الثانى فاسدٌ أيضا ، لأنّ

---

(١) ا والشافى : « بعثته » . (٢) د : « قال فإن قيل » . (٣) ا ، د : « فألا » .

هذ العلم المخصوصَ إنّما يستفاد من جهته ، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه ؛ وليس هو ممّا يجب نشرُه فى جميع الناس ، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فسادا ألّا يلقيه إليه ، فإنّ ذلك فى يده ، ولا يحتاج إلى أكثرَ من ذلك[1] .

قلت : لعاكس أن يعكِس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ ، ويقول له : وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمّه أمواله فينفقوها فى الفساد أن يتصدّق بها على الفقراء والمساكين ، فإنّ ذلك فى يده ، فيحصل له ثواب الصدقة ، ويَحْصُل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه .

قال المرتضى رضى الله عنه : وممّا يدلّ على أنّ الأنبياء يورّثون قولُه تعالى : ﴿ ووَرِث سُليمانُ داودَ ﴾[2] ، والظاهر من إطلاق لفظة « الميراث » يقتضى الأموال وما فى معناها على ما دللنا به من قبل .

قال : ويدلّ على ذلك أيضا قولُه تعالى : ﴿ يُوصِيكم الله فى أولادكم للذَّكر مِثْلُ حَظِّ الأنثيين . . . ﴾[3] الآية ، وقد أجمعت الأمّة على عموم هذه اللفظة إلّا من أخرجه الدليل ، فيجب أن يتمسّك بعمومها ، لمكان هذه الدّلالة ، ولا يخرج عن حكمها إلّا من أخرجه دليل قاطع[1] .

قلت : أمّا قولُه تعالى : ﴿ ووَرِثَ سليمانُ داود ﴾ ، فظاهرها يقتضى وراثة النبوّة أو الملك أو العِلم الّذى قال فى أوّل الآية : ﴿ وَلَقَدْ آتينا داوُدَ وَسُليمانَ عِلْماً ... ﴾ لأنّه لا معنى لذكر ميراث سليمانَ المالَ ، فإنّ غيره من أولاد داود قد وَرِث أيضا أباه داودَ ؛ وفى كتب اليهود والنصارى أنّ بنى داود كانوا تسعة عشر ، وقد قال بعض المسلمين أيضا ذلك : فأىّ معنًى فى تخصيص سليمانَ بالذكر إذا كان إرثَ المال ! وأمّا : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلَادِكُمْ ﴾ ، فالبحث فى تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد ؛ هل هو حجّة فى

---

(١) الشافى ٢٢٩ ، ٢٣٠ . (٢) سورة النمل ١٦ .

(٣) سورة النساء ١١ .

الشرعيّات أم لا ! فإن ثبت مذهب المرتضى فى كونه ليس بحجّة فكلامه هنا جيّد ، وإن لم يثبت فلا مانعَ من تخصيص العموم بالخبر ، فإنّ الصحابة قد خصّصتْ عمومات [1] الكتاب بالأخبار فى مواضع كثيرة .

* * *

قال المرتضى : وأمّا تعلّق صاحب الكتاب بالخبر الّذى رواه أبو بكر وادّعاؤه أنّه استشهد عمر وعثمان وفلانا وفلانا ، فأوّل ما فيه أن الّذى ادّعاه من الاستشهاد غير معروف ، والّذى رُوِى أنّ عمر استشهد هؤلاء النفر لمّا تنازع [2] أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه فى الميراث ، فشَهِدوا بالخبر المتضمّن لنفى الميراث ، وإنّما مقول مخالفينا فى صحّة الخبر الّذى رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأمّة عن النكير عليه ، والرّد لقضيّته [3] .

قلت : صدق المرتضى رحمه الله فيما قال ، أمّا عقيب وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث ، فلم يروِ الخبر إلّا أبو بكر وحده . وقيل : إنه رواه معه مالكُ بن أوْس بن الحدَثان ؛ وأمّا المهاجرون الّذين ذكرهم قاضى القضاة فإنّما شهدوا بالخبر فى خلافة عمر ؛ وقد تقدّم ذكْر ذلك .

* * *

قال المرتضى : ثمّ لو سلّمنا استشهاد مَنْ ذَكر على الخبر لم يكن فيه حجّة ، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غيرَ موجب للعلم ، وهو فى حكم أخبار الآحاد ، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجرى هذا المجرَى ، لأنّ المعلوم لا يُخَصّ إلّا بمعلوم ، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة ، لم يجز أنْ يخرَج عنها بأمرٍ مظنون .

قال : وهذا الكلام مبنىٌّ على أنّ التخصيص للكتاب والسنّة المقطوع بهما لا يقع

---

(١) ا ، د : « عموم » . (٢) ا والشافى : « نازع » . (٣) الشافى ٢٣٠ .

بأخبار الآحاد ، وهو المذهب الصحيح . وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُعتمَد فى الدلالة عليه من من أن الظنّ لا يقابل العلم ، ولا يرجَع عن المعلوم بالمظنون . قال : وليس لهم أن يقولوا : إنّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضا إلى علم ، وإن كان الطريق مظنونا ، ويشيروا إلى ما يدّعونه من الدّلالة على وجوب العمل بخبر الواحد فى الشريعة ، وأنّه حجّة ، لأنّ ذلك مبنيّ من قولهم على ما لانسلّمه ، وقد دلّ الدليلُ على فساده ـ أعنى قولهم : خبر الواحد حجّة فى الشرع ـ على أنّهم لو سلّم لهم ذلك لاحتاجوا إلى دليل مستأنف على أنّه يقبل فى تخصيص القرآن ؛ لأنّ ما دلّ على العمل به فى الجملة لا يتناول هـذا الموضع ، كما لا يتناول جواز النّسخ به [(١)] .

قلت : أمّا قولُ المرتضى : لو سلّمنا أنّ هؤلاء المهاجرين الستّة روَوْه لـمـا خرج عن كونه خبرا واحدا ، ولـما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به ، لأنّه معـلوم ، والخبر مظنون .

ولقائل أن يقول : ليته حصل فى كلّ واحـد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستّة ، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء ، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون فى إثبات الآية فى المصحف ، بل كانوا يحلّفون من أتاهم بالآية . ومَنْ نظرفى كتب التواريخ عرَف ذلك ، فإن كان هذا العدد إنّما يفيـد الظنّ فالقولُ فى آيات الكتاب كذلك ، وإن كانت آيات الكتاب أُثبِتتْ عن علم مستفـاد من رواية هذا العدد ونحوه ، فالخبر مثل ذلك .

فأمّامذهب المرتضى فى خبر الواحدفإنّه قولٌ أُنفرد [(٢)] به عن سائر الشّيعة ، لأنّ من قبله من فقهائهم ما عوّلوا فى الفقه إلّا على أخبار الآحاد كزُرارة ، ويونس ، وأبى بصير ، وأبنى بابويه ، والحلبى ، وأبى جعفر القُمّى وغيرهم ، ثم مَنْ كان فى عصر المرتضى منهم

---

(١) الشافى ٢٣٠ . (٢) د : « تفرد » .

كأبي جعفر الطُّوسي وغيره ، وقد تكلّمت في " اعتبار الذريعة " على ما اعتمد عليه في هذه المسألة ، وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنّه إذا صحّ كون خبر الواحد حجّة في الشرع ، جاز تخصيصُ الكتاب به ، وهذا من فنّ أصول الفقه ، فلا معنى لذكرِه هنا .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه : وهذا يُسقِط قولَ صاحبِ الكتاب : إنّ شاهدَيْن لو شهدا أنّ في التركة حقًا لكان يجب أن ينصرف[1] عن الإرْث ، وذلك لأنّ الشهادة وإن كانت مظنونةً فالعمل بها يستند[2] إلى عِلم ، لأنّ الشريعة قد قرّرت العمَل بالشهادة ولم تقرّر العمَل بخبر الواحد ، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتمعا في غَلَبة الظنّ ، لأنّا لا نعمل على الشهادة من حيث غلَبة الظنّ دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها ؛ ألا ترَى أنّا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبيّ وكثير ممّن لا يجوز العمل بقوله ! فبان أنّ المعوّل في هذا على المصلحة الّتى نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع .

قال : وأبو بكر في حُكم المدّعي لنفسه والجارّ إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب ، وكذلك مَنْ شهد له إن كانت هناك شهادة[3] ، وذلك أنّ أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله يحلّ لهم الصدقة ، ويجوز أن يصيبوا فيها ، وهذه تهمة في الحكم والشهادة .

قال : وليس له أن يقول : فهذا يقتضي ألّا يقبل شهادة شاهدَين في تركةٍ فيها صَدقة لمثل ما ذكرتم .

---

(١) ا ، د : « يصرف » .   (٢) الشافي : « استند » .

(٣) بعدها في الشافي : « قد وجدت » .

قال : وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا فى الصّدقة[1] فحظّهما منها كحظّ صاحب الميراث بل سائر المسلمين ، وليس كذلك حال تركة الرّسول ؛ لأنّ كونها صدقة يحرّمها على ورثته ، ويبيحُها لسائر المسلمين[2] .

قلت : هــذا فرق غير مؤثر ، اللّهمّ إلّا أن يعنى به تهمةَ أبى بكر والشهود الستّة فى جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شَهِدوا على أبى هُرَيرة مَثَلا أنّ ما تركه صدقة ؛ لأنّ أهلَ أبى هريرة يشاركون فى القسمة ، وأهلَ النبىّ صلّى الله عليه وآله لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم ، إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة ، فتكون حصّة أبى بكر والشهود ممّا تركه رسول الله أكثرَ من حصّتهم ممّا يتركه أبو هريرة ، فيكون تطرّق التهمة إلى أبى بكر والشهود أكثر حسبَ زيادة حصّتهم ؛ وما وقفت للمرتضى على شىء أطرَفَ من هذا ، لأنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان ، لأنّه قادَ فى غَزاةِ تَبوكَ عشرين ألفا ، ثم وفدتْ إليه الوفود كلّها بعد ذلك ، فليت شِعرى كم مقدار ما يتوفّر على أبى بكر وستّة نفر معه ، وهم من جملة خمسين ألفا ، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطّلب ـ وهم حينئذ عشرة نفر ـ لا يأخذون حصّة ، وبيْن ما إذا كانوا يأخذون ! أترى أيكون المتوفّر على أبى بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم ! ما أظنّ أنّه يبلغ ذلك . وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبى هريرة إذا شركهم أهله فى التركة ، لتكونَ هذه القِلّة موجبةً رفع التهمة ، وتلك الزيادة والكثرة موجبة حصولَ التهمة ! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه : وأمّا قوله : يخصّ القران بالخبر[3] كما خصصناه فى العبد والقاتل ، فليس بشىء ، لأنّا إنما خصصنا مَنْ ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم ، وليس هذا موجودا فى الخبر الّذى ادّعاه . فأمّا قوله : وليس ذلك ينقص الأنبياء ، بل هو إجلال لهم ،

---

(١) كذا فى ا ، د والشافى ، وفى ب : « بالصدقة » . (٢) الشافى ٢٣٠ .

(٣) الشافى : « بذلك » .

فمن الّذى قال له : إنّ فيه(١) نقصا ! وكما أنّه لا نقص فيه ، فلا إجلالَ فيه ولافضيلةَ ؛ لأنّ الداعى وإن كان قد يقوّى على جمع المال ليخلف على الورثة ، فقد يقوّيه أيضاإرادة صرفه فى وجوه الخير والبرّ ، وكلا الأمرين يكون داعيا إلى تحصيل المـال ، بل الداعى الّذى ذكرناه أقوى فيما يتعلّق بالدّين .

قال : وأمّا قوله : إنّ فاطمة لمّا سمعتْ ذلك كفّت عن الطلب، فأصابت أوّلا وأصابت ثانيا ؛ فلعَمرى إنها كفّت عن المنازعة والمشاحّة ، لـكنها انصرفت مغضَبة متظلّمة متألّمة؛ والأمر فى غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصِف ، فقد روَى أكثرُ الرواة الّذين لا يُتّهمون بتشيّع ولا عصبيّة فيه من كلامها فى تلك الحال ، وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ، ما يدلّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبها .

أخبرَنا أبو عُبيد الله محمّد بن عمران المَرْزُبانىّ قال : حدّثنى محمّد بن أحمدَ الـكاتب ، قال : حدّثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوىّ ، قال: حدّثنى الزّيادىّ ، قال : حدّثنا الشّرْقىّ ابن القُطامىّ ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا صالح بن كيسان ، عن عروة ، عن عائشة، قالت : لما بلغ فاطمةَ إجماعُ أبى بكر على منعِها فَدَكَ لاثتْ خِمارَها على رأسها ، واشتملت بجلبابِها ، وأقبلتْ فى لُمّة(٢) من حَفَدتِها . . .

قال المرتضى : وأخبرنا المرزبانىّ قال : حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمّد المـكّى قال : حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليمانىّ قال : حدّثنا ابن عائشة ، قال : لمّا قُبِض رسول الله صلّى الله عليه وسلم أقبلتْ فاطمة إلى أبى بكر فى لُمّة من حَفَدتها . ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا(٣) . . . ونساء قومها تطأ ذُيولَها ما تخرم مِشيتُها مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) د والشافى : « إنه نقص » . (٢) اللمة ، بالضم والتشديد : الرفقة والجماعة .

(٣) الشافى : « اتفقا من ها هنا » .

حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت[1] دونها مُلاءة ، ثم أنّت أنّةً أجهش لها القومُ بالبكاء ، وارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيجُ القوم وهدأت فورتهم ، افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[2] ﴾ ، فإن تعزُوه تجدوه أبي دون آبائكم ، وأخا ابن عمّي دون رجالكم ، فبلّغ الرسالة صادعا بالنذارة[3] ، مائلا عن سَنَن المشركين ، ضاربا ثبَجهم ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخذاً بأكظام[4] المشركين ؛ يهشم الأصنام ، ويفلّق الهام ، حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبُر ، وحتّى تفرّى[5] الليلُ عن صُبْحه ، وأسفر الحقّ عن محضه ، ونطق زعيم الدّين ، وخرست شقائق الشياطين ، وتمّت كلمةُ الإخلاص ، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار ، نُهزة الطامع ، ومذقة الشارب ، وقبسة العجلان ، وموطأ الأقدام ، تشربون الطَّرْق[6] ، وتقتاتون القِدّ ؛ أذلّة خاسئين ، يختطفكم الناس من حولكم ، حتّى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللّتيا والّتي ، وبعد أن مُنِي بِبُهم الرجال وذؤبان العرب ومَرَدة أهل الكتاب ، و ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ[7] ﴾ ، أو نجم قرن الشيطان ، أو فغرت فاغرة[8] قذف أخاه في لهواتها . ولا ينكفئ[9] حتى يطأ صِماخها بأخمصه ويطفئ عادية لَهَبها بسيفه ـ أو قالت : يخمد لهبها بحدّه ـ مكدودا في ذات الله ، وأنتم في رفاهية فكِهُون آمنون وادِعون .

---

(١) نيطت : أي وصلت وعلقت . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .
(٣) د : « صادرا بالتذكرة » .
(٤) الأكظام : جمع كظم ، بالتحريك ؛ وهو مخرج النفس من الحلق .
(٥) تفرى : انشق . (٦) الطرق : الماء الذى بالت الإبل فيه .
(٧) سورة المائدة ٦٤ . (٨) فغرت فاغرة : أي فتحت فاها .
(٩) د : « فلاتكى » .

إلى هنا انتهى خبرُ أبى العيناء عن ابن عائشة. وأما عروة عن عائشة، فزاد بعد هذا: حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرتْ حسيكةُ النفاق، وشمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغَ خامل الآفكين، وهدَر فنيق المُبطلين، نخطر فى عرَصاتِكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين؟ ولقربه متلاحظين. ثم استنهضكم فوجدكم خِفافا، وأحمشكم فألفاكم غِضابا، فوسَمتم غيرَ إبلكم، ووردتُم غيرَ شِربكم، هذا والعهد قريب، والكَلْم رحيب[1] والجرح لمّا يندمل، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة، ﴿ألا فى الفتنةِ سقطوا وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين﴾[2]، فهيهات! وأنَّى بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة. أرغبةً عنه تريدون، أم لغيره تحكمون؛ بئس للظالمين بدلا! ومن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقبَلَ مِنْهُ وهو فى الآخرةِ منَ الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلَّا رَيث أن تسكن نفرتها، تُسِرُّون حسْوًا فى ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حزّ المُدى، وأنتم الآنَ تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿أفحُكْمَ الجاهلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنونَ﴾[3]. يابن أبى قحافة، أترث أباك ولا أرث أبى، لقد جئت شيئاً فريّا! فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيمُ محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون! ثم انكفأتْ إلى قبر أبيها عليهما السلام، فقالت:

قد كان بعدَكَ أنباء وهنبثةٌ لو كنتَ شاهدَها لم تكثر الخُطَبُ
إذا فقدناك فقد الأرض وابلَها واختل قومُك فاشهدهم ولا تَغِبِ

وَرَوَى حرمىّ بن أبى العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً:

فليتَ بعدَكَ كان الموت صادَفنا لما قضيت وحالت دونَكَ الكُتُبُ

---

(١) رحيب، أى واسع. (٢) سورة التوبة ٤٩.
(٣) سورة المائدة ٥٠

قال : فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: يا خيرَ[1] النساء ، وابنة خير الآباء[2] ، والله ما عدوتُ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا عملتُ إلّا بإذنه ، وإن الرائدَ لا يكذِبُ أهله ، وإنى أشهد الله وكفى بالله شهيدا ؛ أنى سمعتُ رسول الله يقول ، « إنّا معاشر الأنبياء لا نورِث ذهبا ، ولا فضة ولا دارا ولا عقارا ، وإنما نورِث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة » .

قال : فلما وصل الأمر إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام كُلِّم فى ردّ فدَكَ ، فقال : إنى لأستحيي من الله أن أردّ شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر[3] .

* * *

قال المرتضى : وأخبرنا أبو عبد الله المَرْزُبَانىّ : قال : حدثنى علىّ بن هارون ، قال : أخبرنى عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر ، عن أبيه قال : ذكرتُ لأبى الحسين زيد بن علىّ ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبى بكر إياها فدَكَ ، وقلت له : إنّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء ، لأنّ الكلام منسوق البلاغة ، فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أولادهم ، وقد حدّثنى به أبى عن [4]جدّى يَبْلغ به فاطمة عليها السلام[4] على هذه الحكاية ، وقد رواه مشايخ الشّيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدّ أبى العيناء ، وقد حدّث الحسين بن علوان ، عن عطية العوْفىّ ، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر[5] عن أبيه هذا الكلام .

ثم قال أبو الحسن زيد : وكيف[6] تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام ، وهم

---

(١) ا ، د : « ياخيرة » . (٢) الشافى : « الأنبياء » .
(٣) الشافى ٢٣٠ . (٤ – ٤) ساقط من د .
(٥) الشافى ، د : « ذكر » . (٦) د : « كيف » .

يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهلَ البيت . ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه ، وزاد فى الأبيات بعد البيتين الأولين :

ضاقتْ علىّ بلادى بعد ما رحُبتْ ... وسِيمَ سِبْطاكَ خسفا فيه لى نَصَبُ

فليت قبلَك كان الموتُ صادفنا ... قومٌ تمنّوا فأُعطُوا كلّ ما طلبوا

تجهّمتْنا رجالٌ واستُخِفّ بنا ... مذغبتَ عنّا وكلّ الإرث قد غصبوا

قال : فما رأينا يوماً أكثرَ باكيا أو باكية من ذلك اليوم .

قال المرتضى : وقد روى هذا الكلام على هذا الوجه من طُرُقٍ مختلفة ، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخذها من مواضعها ، فكيف يدّعى أنّها عليها السلام كفّت راضية ، وأمسكت قانعة ، لولا البُهْت وقلّة الحياء[1] !

***

قلت : ليس فى هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضى القضاة ، لأنه ادّعى أنّها نازعت وخاصمت ثم كفّت لما سمعت الرواية وانصرفتْ ، تاركةً للنزاع ، راضية بموجب الخبر المروىّ . وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدلّ إلّا على سخطها حالَ حضورها ، ولا يدلّ على أنها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه ما روَى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله إلا ما سمعه منه ، انصرفت ساخطة ؛ ولا فى الحديث المذكور والكلام المروىّ ما يدلّ على ذلك ، ولست أعتقد أنها انصرفت راضية كما قال قاضى القضاة ، بل أعلم أنّها انصرفتْ ساخطة ، وماتت وهى على أبى بكر واجدة ، ولكن لا من هذا الخبر ، بل من أخبار أُخَر ، كان الأَوْلى بالمرتضى أن يحتجّ بها على

---

(١) الشافى ٢٣١ .

ما يرويه فى انصرافها ساخطة ، وموتها على ذلك السخط ، وأمّا هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدلّ على هذا المطلوب .

* * *

قال المرتضى رحمه الله : فأمّا قوله : إنه يجوز أن يبيّن عليه السلام أنّه لا حقّ لميراثه فى ورثته لغير الورثة ، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد ، لأنّه من باب العمل ، وكلّ[1] هذا بناء منه على أصوله الفاسدة فى أنّ خبر الواحد حجّة فى الشرع ، وأنّ العمل به واجب ، ودون صحّة ذلك خَرْط القتاد ؛ وإنما يجوز أن يبيّن من جهة أخرى[2] إذا تساويا فى الحجّة ووقوع العمل ، فأمّا مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما ، وإذا كان ورثةُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم متعبّدين بألا يرثوه ، فلابدّ من إزاحة عِلّتهم فى هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم ، ويُشافِهَهم به ، ويلقيه إلى مَنْ يقيم الحجّة عليهم بنقله ، وكلّ ذلك لم يكن .

فأمّا قوله : أتجوّزون صِدقَه فى الرواية أم لا تجوزون ذلك ؟ فالجواب إنا لا نجوّزه ، لأنّ كتاب الله أصدَقُ منه ، وهو يدفع روايته ويُبطلُها ؛ فأمّا اعتراضه على قولنا : إنّ إطلاق الميراث لا يكون إلّا فى الأموال بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ الَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾[3] . وقولهم : ماورِثت الأبناء من الآباء شيئا أفضلَ من أدب حسن ، وقولهم: العلماء ورثة الأنبياء ، فعجيب ، لأنّ كل ماذكر مقيد غير مطلق ، وإنّما قلنا إنّ مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراثَ الأموال ، فبعد ماذكره وعارض به لا يخفى على متأمّل .

فأما استدلاله على أنّ سليمان وَرِث داودَ علمه دون ماله بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾[4] وأن المراد أنه

---

(١) الشافى : « فكل » . (٢) الشافى : « من جهة دون جهة » .

(٣) سورة فاطر ٣٢ .

(٤) سورة النمل ١٦ .

وَرِث العلمَ والفضلَ ، وإلا لم يكن لهذا القول تعلّق بالأوّل ، فليس بشيء يعوّل عليه ، لأنه لا يمتنع أن يريدَ به انه ورث المالَ بالظاهر والعلم بهذا المعنى من الاستدلال ، فليس يجب إذا دلّت الدّلالة فى بعض الألفاظ على معنى المجاز أن يَقتصِر[1] بها عليه ، بل يجب أن يحملها على الحقيقة الّتى هى الأصل إذا لم يَمنعْ من ذلك مانع ؛ على أنّه لا يمتنع أن يريد ميراث المال خاصّة، ثمّ يقول مع ذلك : ﴿ إِنَّا عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، ويشير بـ « الفضل المبين » إلى العلم والمال جميعا ، فله بالأمرين جميعا فضلٌ على من لم يكن عليهما ؛ وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتمل المالَ كما يحتمل العلم ، فليس بخالص ما ظنّه .

فأمّا قوله فى قصّة زكريّا : إنه خاف على العلم أن يندرس ، لأنّ الأنبياء وإن كانوا لا يحرصون على الأموال ، وإنّما خاف أن يضيع العلم ، فسأل اللهَ تعالى وليّا يقوم بالدّين مقامَه ؛ فقد بيّنا أنّ الأنبياء وإن كانوا لا يحرِصون على الأموال ولا يبخَلون بها ، فإنّهم يجتهدون فى منع المفسدين من الانتفاع بها على الفساد ، ولا يعدّ ذلك بخلاً ولا حِرْصا[2]، بل فضلا ودِينا ؛ وليس يجوز من زكريّا أن يخاف على العِلْم الاندراسَ والضياعَ ، لأنه يعلم أنّ حكمة الله تعالى تقتضى حِفظَ العلم الّذى هو الحجّة على العباد ، وبه تنزاح عِللهم فى مصالحهم ، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله !

فإن قيل : فهبوا أنّ الأمر كما ذكرتم من أنّ زكريّا كان يأمن على العلم أن يندرس ؛ أليس لابدّ أن يكون مجوّزا أن[3] يحفظه الله تعالى بمَنْ هو من أهله وأقاربه ، كما يجوز حفظُه بغريب أجنبيّ ! فما أنكرتم أن يكون خوفُه إنّما كان من بنى عمّه ألّا يتعلّموا العلم ولا يقوموا فيه مقامه ، فسأل الله ولدا يجمع فيه هذه العلومَ حتّى لا يخرج العلمُ عن بيته ، ويتعدّى إلى غير قومه ، فيلحقه بذلك وَصْمة !

---

(١) ا ، الشافى : « يقتصرها » . (٢) ب : « بخلا وحرصا » .
(٣) الشافى « لأن » .

قلنا : أمّا إذا رتّب السؤال هذا الترتيب ، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحبَ الكتاب ، وهو أنّ الخوف الّذى أشاروا إليه ليس من ضررٍ دينىّ ، وإنّمـا هو من ضررٍ دُنياوىّ ، والأنبياء إنّما بُعِثوا لتحمّـل المضارّ الدنياوية ، ومنازلهم فى الثواب إنّمـا زادت على كلّ المنازل لهذا الوجه ، ومَنْ كانت حاله هـذه الحال ، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولا على مضارّ الدّين ، لأنّهـا هى جهة خوفهم ، والغرض فى بعثهم تحمّل ما سواها من المضارّ ، فإذا قال النبىّ صلّى الله عليـه : « أنا خائف » ، فلم يُعلم جهةُ خوفه على التفصيل ، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضارّ الدّين دون الدنيـا ، لأنّ أحوالهم وبعثهم [(١)] يقتضى ذلك، فإذا كنّا لو اعتدْنا من بعضنا الزّهد فى الدنيا وأسبابها ، والتعفّف عن منافعها ، والرغبة فى الآخرة ، والتفرّد [(٢)] بالعمل لهـا ، لكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الّذى لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليَقُ بحـاله ، ونضيفه إلى الآخرة دون الدّنيا ، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو فى الأنبيـاء عليهم السلام أوْجَب [(٣)] .

***

قلت: ينبغى ألّا يقول المعترض: فيلحقه بذلك وصْمَة ، فيجعل الخوف من هذه الوصمة ، بل يقول : إنّه خاف ألّا يُفْلح بنو عمّـه ولا يتعلّموا العلم ، لما رأى من الأمارات الدالّة على ذلك ، فالخوف على هذا الترتيب يتعلّق بأمرٍ دينىّ لا دنيوىّ ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدا يَرِث عنه علمَه ، أى يكون عالما بالدّينيات كما أنا عالم بها . وهـذا السؤال متعلّق بأمرٍ دينىّ لا دنيوىّ . وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى ؛ على أنّه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّ الأنبياء بُعِثوا لتحمّل المضـارّ الدنياويّة ، ولا القول : الغرض فى بعثهم تحمّل ما سوى المضارّ الدينية من المضارّ ؛ فإنّهم ما بعثوا لذلك ، ولا الغرض فى بعثهم ذلك ، وإنّمـا بعثوا لأمرٍ آخر . وقد تحصل المضارّ فى أداء الشرع ضِمْناً وتبعا، لا على أنّها الغرض، ولا داخلة

---

(١) الشافى : « بعثهم » . (٢) د : « والتعود » . (٣) الشافى ٢٣٢ .

فى الغرض ، وعلى أنّ قول المرتضى : لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدّين وتغييره ، لأنّه محفوظ من الله ، فكيف يخاف ما لا يُخاف من مثله ؛ غير مستمرّ على أصوله ! لأنّ المكلّفين الآن قد حُرِموا بغيبة الإمام عنده ألطافا كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد ، وهو وأصحابُه يقولون فى ذلك إنّ اللوم على المكلّفين ؛ لأنّهم قد حرَموا أنفسهم اللّطف ، فهلّا جاز أنْ يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، وإفساد الأحكام الشرعيّة ! لأنّه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلّفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم ، لأنّهم هم الّذين حرَموا أنفسَهم اللّطف .

واعلم أنّه قد قرئ : ﴿وَإِنِّى خَفَّتِ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِى﴾[1] ؛ وقيل : إنّها قراءة زين العابدين وابنِه محمّد بن علىّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان . وفسّروه على وجهين :

أحدها أن يكون « ورائى » بمعنى خَلْفى وبعدى ، أى قلّت الموالى وعجزوا عن إقامة الدين ، تقول : قد خفّ بنو فلان ، أىْ قلّ عددُهم ، فسأل زكريّا ربّه تقويتَهم ومظاهرتَهم بولىّ يرزقه .

وثانيهما أن يكون « ورائى » بمعنى قدّامى ، أى خَفّ الموالى وأنا حىّ ودَرَجوا وانقرضوا، ولم يَبْقَ منهم من به اعتضاد ؛ وعلى هذه القراءة لا يبقى متعلّق بلفظة الخوف .

وقد فسّر قوم قوله : ﴿وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ ، أى خفتُ الّذين يلون الأمر من بعدى ، لأنّ المولَى يستعمل فى الوالى ، وجمعه موالٍ ، أى خفت أن يلىَ بعد موتى أمراء ورؤساء يُفسِدون شيئاً من الدّين ، فارزقنى ولداً تُنعِم عليه بالنبوّة والعلم ، كما أنعمت

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ : ٧٧ .

علىّ ، واجعل الدّين محفوظا [به][1] ؛ وهذا التأويل غير منكر ، وفيه أيضاً دفعٌ لكلام المرتضى .

* * *

قال المرتضى : وأمّا تعلّق صاحب الكتاب فى أنّ الميراث محمول على العلم بقوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ لأنّه لا يرث أموالَ آل يعقوب فى الحقيقة وإنّما يرث ذلك غيرُه ، فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ولد زكريّا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالَهم ، على أنّه لم يقل : « يرث آل يعقوب » ، بل قال : ﴿ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، تنبيهاً[2] بذلك على أنّه يرث[3] من كان أحقّ بميراثه فى القرابة[4] .

فأمّا طعنُه على مَنْ تأوّل الخبر بأنّه عليه السلام لا يُوَرِّث ، ما تركه للصدقة بقوله : إنّ أحداً من الصّحابة لم يتأوّله على هذا الوجه ، فهذا التأويل الّذى ذكرناه أحدُ ما قاله أصحابُنا فى هذا الخبر ، فمن أين له إجماعُ الصحابة على خلافه ! وإنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه .

فإن قال : لو كان ذلك لظهر واشتهر ، ولوَقف أبو بكر عليه ، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية .

* * *

قلت : لم يكن ذلك اليوم — أعنى يومَ حضور فاطمةَ عليها السلام ، وقولها لأبى بكر ما قالت — يوم تقيّة وخوف ، وكيف يكون يومَ تقيّة وهى تقول له — وهو الخليفة : يابن أبى قُحافة ، أترثُ أباك ولا أرث أبى ! وتقول له أيضاً : لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فكان ينبغى إذا لم يُؤثر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسِّر لأبى بكر معنى الخبر أن يُعلِم فاطمة عليها

---

(١) تكملة من د . (٢) د : « منبها » .
(٣) ا ، د : « يورث » . (٤) الشافى ٢٣٢ .

السلام تفسيره ، فتقول لأبى بكر : أنت غالط فيما ظننت ، إنما قال أبى : ما تركناه صدقة ، فإنه لا يُورَث .

واعلم أنّ هذا التأويل كاد يكون مدفوعا بالضرورة ، لأنّ مَنْ نظر فى الأحاديث الّتى ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علما قطعيًا .

***

قال المرتضى : وقوله إنه لا يكون إذ ذاك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزيّة : ليس بصحيح ، وقد قيل فى الجواب عن هذا : إنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله يجوز أن يريد أنّ ما ننوى فيه الصدقة ، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتنا . وهذا تخصيص للأنبياء ومزيّة ظاهرة(١) .

قلت : هذه مخالفة لظاهر الكلام ، وإحالة اللّفظ(٢) عن وضعه ، وبين قوله : ما ننوى فيه الصدقة ، وهو بعدُ فى ملكنا ليس بموروث ؛ وقوله : ما نخلّفه صدقة ليس بموروث فَرْق عظيم ، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللفظ المفيد للمعنى الآخر ، لأنّه إلباسٌ وتَعْمِية . وأيضا ، فإنّ العلماء ذكروا خصائصَ الرّسول فى الشرعيّات عن أمّته وعدّدوها، نحو حِلّ الزيادة فى النكاح على أربع ، ونحو النّكاح بلفظ الهبة على قولِ فِرْقةٍ من المسلمين ، ونحو تحريم أكل البَصل والثّوم عليه ، وإباحة شرب دمه ، وغير ذلك ، ولم يذكروا فى خصائصه أنه إذا كان قد نوى أن يتصدّق بشىء فإنّه لا يناله ورثته ، لو قدّرنا أنّه يورث الأموال ، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرتْ ذلك ، ولا رأينا فى كتاب من كتبهم ، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه ، وإجماعهم عندهم حجّة .

***

قال المرتضى : فأمّا قوله : إن قوله عليه السلام : ما تركناه صدقة ، جملةٌ من الكلام

(١) الشافى ٢٣٢ . (٢) ا ، د : « اللفظ » .

مستقلّة بنفسها ، فصحيح إذا كانت لفظة «ما» مرفوعةً على الابتداء ، ولم تكن منصوبةً بوقوع الفعل عليها ، وكانت لفظة « صدقة » أيضا مرفوعة غير منصوبة ، وفى هذا وقع النّزاع ، فكيف يدّعى أنّها جملة مستقلّة بنفسها ! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول : الرواية جاءت بلفظ « صدقةٌ » بالرفع ، وعلى ما تأوّلتموه لا تكون إلّا منصوبةً ، والجواب عن ذلك أنّا لا نسلّم الرواية بالرفع ، ولم تجر عادة الرّواة بضبط ما جرى هذا المجرى من الإعراب ، والاشتباه يقع فى مثله ، فمن حقّق منهم وصرّح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون اشتبه عليه فظنّها مرفوعةً ، وهى منصوبة(١) .

قلت : وهذا أيضا خلاف الظاهر ، وفتح الباب فيه يؤدّى إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار .

***

قال : وأما حكايته عن أبى علىّ أنّ أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السّيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث ؛ وقوله : كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الّذى هو العصبة ! فما نراه زاد على التعجّب ، ومما عجب منه عجبنا ، ولم يثبت عصمة أبى بكر فينتفى عن أفعاله التناقض(٢) .

قلت : لا يشكّ أحد فى أن أبا بكر كان عاقلا ، وإن شكّ قوم فى ذلك فالعاقل فى يوم واحد لا يدفع فاطمةَ عليها السلام عن الإرث ويقول : إنّ أباكِ قال لى : إنى لا أورّث ثم يورّث فى ذلك اليوم شخصا آخر من مال ذلك المتوفّى الّذى حكى عنه أنه لا يورث وليس انتفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفا على العصمة ، بل على العقل .

***

---

(١) الشافى ٢٣٢ . (٢) الشافى ٢٣٢ .

قال المرتضى : وقوله يجوز أن يكون النبيّ صلّى الله عليه وآله نَحَله إيّاه وتركه أبو بكر في يده ـ لِمَا في ذلك من تقوية الدّين ـ وتصدّق ببدله ؛ وكلّ ما ذكره جائز ، إلا أنه قد كان يجب أن يظهر أسباب النّحلة والشهادة بها ، والحجّة عليها ، ولم يظهر من ذلك شيء فنعرفه ، ومن العجائب أن تدّعى فاطمة فَدَكَ نِحلةً ، وتستشهد على قولها أميرَ المؤمنين عليه السلام وغيرَه ، فلا يُصغَى إلى قولها ، ويترك السيف والبغلة والعمامة في يد أمير المؤمنين على سبيل النِّحْلة بغير بيّنة ظهرتْ ، ولا شهادةٍ قامت[1] !

قلت : لعلّ أبا بكر سمع الرّسول صلّى الله عليه وآله وهو ينحَلُ ذلك عليّا عليه السلام ، فلذلك لم يحتجْ إلى البيّنة والشّهادة ، فقد روى أنّه أعطاه خاتمه وسيفَه في مرضه وأبو بكر حاضر ، وأمّا البغلة فقد كان نحلَه إيّاها في حجّة الوداع على ما وردتْ به الرواية ؛ وأما العمامة فسلَب الميّت ، وكذلك القميص والحُجْزة[2] والحذاء ، فالعادة أن يأخذ ذلك ولد الميّت ؛ ولا ينازَع فيه لأنّه خارج ، أو كالخارج عن التركة ، فلمّا غُسِلَ عليه السلام أخذت ابنتُه ثيابَه التي مات فيها ، وهذه عادةُ الناس ، على أنّا قد ذكرنا في الفصل الأوّل كيف دفع إليه آلةَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وحذاءه ودابّته ، والظّاهر أنّه فعل ذلك اجتهادا لمصلحةٍ رآها ؛ وللإمام أن يفعل ذلك .

* * *

قال المرتضى : على أنه كان يجب على أبي بكر أن يبيّن ذلك ، ويذكر وجهه بعينه ، لمّا نازع العبّاس فيه ، فلا وقت لذكر الوجه في ذلك أولى من هذا الوقت[3] .

قلت : لم ينازع العبّاس في أيّام أبي بكر ، لا في البغلة والعمامة ونحوها ، ولا في غير

(١) الشافي ٢٣٢ ، ٢٣٣ . (٢) حجزة الإزار : معقده .

(٣) الشافي ص ٢٣٣ .

ذلك ، وإنّما نازع عليّا فى أيّام عمر ، وقد ذكرنا كيفيّة المنازعة ، وفيماذا كانت .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه فى البُردة والقضيب : إن كان نُحلةً ، أو على الوجه الآخر ، يَجرِى مَجرَى ما ذكرناه فى وجوبِ الظهور والاستشهاد ، ولسنا نرى أصحابنا ـ يعنى المعتزلة ـ يطالبون أنفسَهم فى هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادّعينا وجوهاً وأسباباً وعِللا مجوّزة ، لأنّهم لايقنعون منّا بما يجوز ويمكن؛ بل يوجبون فيما ندّعيه الظهورَ والاستشهاد، وإذا كان هذا عليهم نسُوه أو تناسوه[1] .

قلت : أمّا القضيب فهو السيف الّذى نَحَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليّا عليه السلام فى مرضه ، وليس بذى الفقار ، بل هو سيفٌ آخر ؛ وأمّا البُردة فإنّه وهبها كعبَ ابن زهير، ثم صار هذا السيف وهذه البُرْدة إلى الخلفاء ، بعد تنقّلات كثيرة مذكورة فى كتب التواريخ .

* * *

قال المرتضى : فأمّا قوله : فإنّ أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله إنّما طلبْنَ الميراث لأنّهنّ لم يعرفْنَ روايةَ أبى بكر للخبر ، وكذلك إنّما نازع علىّ عليه السلام بعدَ موت فاطمة عليها السلام فى الميراث لهذا الوجه ، فمن أقبح ما يقال فى هذا الباب وأبعدِه عن[3] الصواب ! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام روايةَ أبى بكر ، وبها دُفعتْ زوجتُه عن الميراث ! وهل مِثلُ ذلك المقام الّذى قامته ، ومارواه أبو بكر فى دفعها يخفى على من هو فى أقاصى البلاد ، فضلا عمّن هو فى المدينة حاضر شاهد يُراعِى[2] الأخبار ، ويعنى بها! إنّ هذا لخروج فى المكابرة عن الحدّ ! وكيف يَخفَى على الأزواج ذلك حتّى يطلبنه مرّة بعد أخرى ، ويكون عثمان الرسول لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، وعثمان على زعمهم أحدُ من شهد

(١) الشافى ص ٢٣٣ . (٢) ا والشافى : « يعنى بالأخبار ويراعيها » . (٣) د : « من » .

أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يُورّث ؛ وقد سمعنَ على كلّ حال أنّ بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله لم تورّث ماله ولابدّ أنْ يكنّ قد سألنَ عن السبب فى دفعها ، فذكر لهنّ الخبر، فكيف يقال : إنّهن لم يعرفنه (١) !

قلت : الصحيح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع بعد موت فاطمةَ فى الميراث ، وإنما نازع فى الولاية لِفَدَكَ وغيرِها من صدقات رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وجرى بينه وبين العبّاس فى ذلك ما هو مشهور ، وأمّا أزواجُ النبيّ صلى الله عليه وآله فما ثبت أنّهنّ نازعن فى ميراثه ، ولا أنّ عثمانَ كان المرسَل لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، إلّا فى رواية شاذّة ، والأزواج لمّا عرفن أنّ فاطمة عليها السلام قد دُفِعتْ عن الميراث أمسكْن ، ولم يكنّ قد نازعن ، وإنّما اكتفَيْن بغيرهنّ ، وحديث فَدَكَ وحضور فاطمةَ عند أبي بكر كان بعد عشرةِ أيّام من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنّه لم ينطق أحدٌ بعد ذلك من النّاس من ذَكَر أو أنثى بعد عودِ فاطمةَ عليها السلام من ذلك المجلس بكلمة واحدة فى الميراث .

* * *

قال المرتضى : فإن قيل : فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ فى دفع فاطمةَ عليها السلام عن الميراث ، واُحتجّ بخبرٍ لا حجّة فيه ، فما بال الأمّة أقرّته على هذا الحكم ، ولم تُنكِر عليه ، وفى رضاها وإمساكها دليلٌ على صوابه (٢) !

قلتُ : قد مضى أنّ ترك النكير لا يكون دليل الرضا إلّا فى هذا الموضع الّذى لا يكون له وجهٌ سوى الرّضا ، وذكرْنا فى ذلك قولاً شافيا ، وقد أجاب أبو عثمان الجاحظُ فى كتاب « العباسيّة » عن هذا السؤال جوابا حسنَ المعنى واللّفظ ، نحن

(١) الشافى ص ٢٣٣ .
(٢) الشافى ص ٢٣٣ .

نذكره على وجهه ، ليقابَلَ بينَه وبين كلامه فى العثمانيّة وغيرها (١) .

قلت : ما كناه المرتضى رحمه الله فى غير هـذا الموضع أصلا ، بل كان ساخطا عليه ، وكناه فى هذا الموضع ، واستجاد قوله ؛ لأنّه موافقٌ غرضَه ، فسبحان الله ، ما أشدّ حبّ الناس لعقائدهم !

قال : قال أبو عثمان : وقد زعم أناس أنّ الدليل على صدق خبرهما ـ يعنى أبا بكر وعمر ـ فى منع الميراث وبراءة ساحتِهما ، تركُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم النكيرَ عليهما.

ثم قال : قد يقال لهم : لئن كان تركُ النكير دليلا على صدقهما ، ليكونَنّ تركُ النكير على المتظلمين والمحتجّين عليهما ، والمطالبين لهما ، دليلاً على صدق دعواهم ، أو استحسان مقالتهم ، ولا سيّما وقد طالت المناجاة ، وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكيّة ، واشتدت المَوْجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السّلام ، حتى إنّها أوصت ألّا يصلّىَ عليها أبو بكر ، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبةً بحقّها ، ومحتجّة لرَهْطها : مَنْ يرثك ياأبا بكر إذا متّ ؟ قال : أهلى وولَدى ؛ قالت : فما بالُنا لا نَرِث النبىّ صلّى الله عليه وآله ! فلمّا منعها ميراثَها وبخسها حقّها واعتلّ عليها وجلح (٢) فى أمرها ، وعاينت التهضّم (٣) ، وأيست من النزوع ، ووجدت نشوة الضّعف وقلّة الناصر ، قالت : والله لأدعونّ الله عليك ، قال : والله لأدعونّ الله لكِ ؛ قالت : والله لا أكلّمك أبدا ، قال : والله لا أهجُرُكِ أبدا . فإن يكن تركُ النكير على أبى بكر دليلا على صواب منعها ؛ إنّ فى ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلاً على صواب طلبها ! وأدنى ما كان يجب عليهم فى ذلك تعريفها ما جهلتْ ، وتذكيرُها ما نسيَت ، وصرفُها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء (٤) ، وأن تقول هُجْرا (٥) ، أو تجوّر عادلا ، أو تقطع واصلا ؛ فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعا فقد تكافأت

---

(١) الشافى ٢٣٣ . (٢) جلح فى أمرها : جاهر به وكاشفها .
(٣) التهضم : الظلم ، وفى ا : « الهضم » . (٤) البذاء : الفحش .
(٥) الهجر : القبيح من الكلام .

الأمور ، واستوت الأسباب ، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولى بنا وبكم ، وأوجبُ علينا وعليكم .

قال : فإن قالوا : كيف تظنّ به ظلمَها والتعدّيَ عليها ! وكلّما ازدادت عليه غلظةً ازداد لها ليناً ورقّةً ، حيث تقول له : والله لا أكلّمك أبداً ، فيقول : والله لا أهجركِ أبداً ، ثم تقول : والله لأدعوَنّ الله عليك ، فيقول : والله لأدعونّ الله لكِ ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ ، والقول الشديد في دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة ، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتّنزيه ، وما يجب لها من الرفعة والهيبة ! ثمّ لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرّباً ، كلام المعظِّم لحقّها ، المكبِر لمقامها ، والصائن لوجهها ، المتحنّن عليها : ما أحدٌ أعزّ عليّ منك فقراً ، ولا أحبّ إليّ منك غنًى ، ولكنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه فهو صدقة » !

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظّلم ، والسلامة من الجوْر ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً ، وللخصومة معتاداً ، أن يُظهر كلامَ المظلوم ، وذلّة المتنصف[1] وحَدَب[2] الوامق ، ومِقَة[3] المحقّ . وكيف جعلتم تركَ النكير حجّةً قاطعة ، ودلالةً واضحة ، وقد زعمتم أنّ عمر قال على منبره : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : متعة النساء ، ومتعة الحجّ ، أنا أنهى عنهما ، وأعاقبُ عليهما ؛ فما وجدتم أحداً أنكر قوله ، ولا استشنَع مخرج نهْيِه ، ولا خطّأه في معناه ، ولا تعجّب منه ، ولا استفهمه ! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السّقيفة وبعد ذلك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » ؛ ثم قال في شكاته : لو كان سالمٌ حيّاً ما تخالجني فيه شكّ ، حين[4] أظهر الشكّ في استحقاق كلّ واحد من الستّة الذين

(١) المتنصف : المستوفي حقه . (٢) وحدب الوامق ؛ أي وانثناء الناظر .

(٣) المقة : التودد والحب . (٤) الثاني : « حتى » .

جعلهم شُورَى ، وسالمٌ عبدٌ لامرأة من الأنصار ، وهى أعتقته ، وحازتْ ميراثَه ، ثمّ لم ينكر ذلك من قوله منكِر ، ولا قابل إنسان بين قوله ، ولا تعجّب منه ، وإنّما يكون تركُ التّنكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنـــده دليلا على صدق قوله ، وصوابِ عمله ، فأمّا تركُ التّنكير على من يملك الضّعة والرِّفعة ، والأمر والنهى ، والقتل والاستحياء ، والحبس والإطلاق ، فليس بحجّة تَشفِى ، ولا دلالة تضىء .

قال : وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولهما ، وصواب عملهما ، إمساكُ الصحابة عن خَلعهما ، والخروج عليهما ، وهم الّذين وَثَبوا على عثمان فى أيسر من جَحْد التنزيل ، وردّ النصوص[1] ؛ ولو كان كما تقولون وما تصفون ، ما كان سبيل الأمّة فيهما إلا كسبيلهم فيه ، وعثمان كان أعزّ نفرا ، وأشرف رهطا ، وأكثر عددا وثروة ، وأقوى عُدّة .

قلنا : إنّهما لم يجحدا التنزيل ، ولم ينكرا النصوص ، ولكنّهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادّعيا رواية ، وتحدّثا بحديث لم يكن مُحالا كونه ، ولا ممتنِعا فى حجج المعقول مجيئُه ، وشهد لهما عليه من علّته مثل علّتهما فيه . ولعلّ بعضَهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عَدْلا فى رَهْطه ، مأمونا فى ظاهره ، ولم يكن قبلَ ذلك عرفه بفَجْرة[2] ، ولا جرتْ عليه غَدْرة ، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ ، وتعديل الشاهد ؛ ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائقَ الحجج ، والّذى يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم ، فلذلك قلّ التّنكير وتواكل الناس ، فاشتبه الأمر ، فصار لا يُتخلّص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلّا العالمُ المتقدّم ، أو المؤيّد المرْشد ، ولأنّه لم يكن لعثمانَ فى صدور العوامّ وقلوب السّفِلة والطَّغام ما كان لهما من المحبّة والهيبة ، ولأنّهما كانا أقلّ استئثارا بالفىء ، وتفضّلا بمالِ الله منه ، ومن شأن الناس إهمال السلطان ما وفّر عليهم أموالَهم ، ولم يستأثر بخراجهم ، ولم يعطّل ثغورَهم . ولأن الّذى صنع أبو بكر

---

(١) د : « المنصوص » . (٢) الفجرة : الانبعاث فى المعاصى والفجور .

من منع العِترة حقّها ، والعمومة ميراثَها ، قد كان موافقا لجلّة قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمانَ أيضا كان مضعوفاً فى نفسه ، مستخفاً بقدره ، لا يمنع ضَيْما ، ولا يَقمع عدوّا ؛ ولقد وثب ناس على عثمانَ بالشتم والقذف والتشنيع والنكير ، لأمور لو أتى أضعافَها وبلغ أقصاها لما اجترءوا على اغتيابه ، فضلا على مبادأته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينةُ بن حِصْن له فقال له : أما إنّه لو كان عمر لقمَعك ومَنَعك ؛ فقال عُيينة : إنّ عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فاتّقانى .

ثم قال : والعجبُ أنّا وجدنا جميع من خالَفَنا فى الميراث على اختلافهم فى التشبيه والقدَر والوعيد يردّ كلّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسنادا ، وأصحّ رجالا ، وأحسن اتّصالا ؛ حتى إذا صاروا إلى القول فى ميراث النبيّ صلى الله عليه وسلّم نسخوا الكتاب ، وخصّوا الخبر العامّ بما لا يدانى بعضَ ما ردّوه ، وأكذبوا قائليه، وذلك أنّ كلّ إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ، ويصدق ما وافق رضاه .

هذا آخر كلام الجاحظ[1] .

* * *

ثم قال المرتضى رضى الله عنه : فإن قيل : ليس ما عارض به الجاحظ من الاستدلال بترك النكير ، وقوله : كما لم ينكروا على أبى بكر ، فلم ينكروا أيضا على فاطمة عليها السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث ، كالأزواج وغيرهنّ معارَضة صحيحة ، وذلك أن نكيرَ أبى بكر لذلك ، ودفعها والاحتجاج عليها ، ويكفيهم ويغنيهم عن تكلّف نكير آخر ، ولم ينكر على أبى بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره[2] .

قلنا : أوّل ما يُبطل هذا السؤال أنّ أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد

---

(١) نقله فى الشافى ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

احتجاجها من التظلّم والتألّم، والتعنيف والتبكيت ، وقولها على ما رُوِى : والله لأدعونّ الله عليك ، ولا أكلمك أبدا ، وما جرى هذا المجرى ، فقد كان يجب أن ينكِرَه غيره ، ومن المنكر الغضب على المنصف . وبعد ، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعا ومغنيا عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه ، ومقامها على التظلّم منه . مغنٍ عن نكيرِ غيرها ؛ وهذا واضح[1] .

* * *

الفصل الثالث

فى أنّ فَدَكَ هل صحّ كونها نِحْلةَ رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام أم لا ؟

نذكر فى هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضى القضاة فى « المغنى » ، وما اعترض به عليه ، ثم نذكر ما عندنا فى ذلك .

قال المرتضى حاكياً عن قاضى القضاة : وممّا عظمت الشيعة القول فى أمر فَدَكَ ، قالوا : وقد رَوَى أبو سعيد الخُدْرىّ أنه لما أُنزِلتْ : ﴿ وآتِ ذا القرْبى حقه ﴾[2] ، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فَدَكَ ، ثم فعل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك ، فردّها على ولدها . قالوا : ولا شكّ أن أبا بكر أغضبها ؛ إن لم يصحّ كلّ الذى رُوِىَ فى هذا الباب، وقد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم ممّا ارتكبوا منها فضلا عن الدّين ، ثم ذكروا أنها استشهدتْ أميرَ المؤمنين عليه السلام وأمّ أيمنَ ، فلم يقبل شهادتهما ، هذا مع تركه أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله فى حجرهنّ ، ولم يجعلها صدقةً ، وصدقهنّ فى ذلك أنّ ذلك لهنّ ولم يصدّقها .

---

(١) الشافى ٢٣٤ .
(٢) سورة الإسراء ٢٦ .

قال : والجواب عن ذلك أنّ أكثر ما يروُون فى هذا الباب غيرُ صحيح ؛ ولسنا ننكر صحّة ما روى من ادّعائها فدك ، فأمّا أنّها كانت فى يدها فغير مسلّم ، بل إن كانت فى يدها لكان الظاهر أنها لها ، فإذا كانت فى جملة التركة فالظاهر أنها ميراث ، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبى بكر قبولُ دعْواها ، لأنه لاخلافَ فى أنّ العمل على الدّعْوى لا يجوز ، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحّته بمشاهدة ، أو ماجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، ثمّ إنّ البيّنة لابدّ منها ، وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما خاصمه اليهودىّ حاكمه ، وأنّ أمّ سلمة التى يطبق على فضلها لو ادّعت نَحْلًا ما قُبِلَتْ دعواها .

ثم قال : ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالى ، ولم يعلم صحّة هذه الدعوى ، ما الذى كان يجب أن يعمل ؟ فإن قلتم : يقبل الدعوى ، فالشرع بخلاف ذلك ، وإن قلتم : يلتمس البيّنة ، فهو الذى فعله أبو بكر .

ثم قال : وأما قول أبى بكر : رجل مع الرجل ، وامرأة مع المرأة ، فهو الذى يوجبه الدّين ، ولم يثبت أنّ الشاهد فى ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام ، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أمّ أيمن .

قال : وليس لأحد أن يقول : فلماذا ادّعت ولا بيّنةَ معها ؟ لأنه لا يمتنع أن تجوّز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين ، أو تجوّز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد ، وهذا هو الموجب على ملتمس الحقّ ، ولا عيب عليها فى ذلك ، ولا على أبى بكر فى التماس البيّنة ، وإن لم يحكم لها لما لم يتمّ ولم يكن لها خصم ، لأنّ التركة صدقة على ما ذكرنا ، وكان لا يمكن أن يعوّل فى ذلك على يمين أو نُكول ، ولم يكن فى الأمر إلا مافعله . قال : وقد أنكر أبو علىّ ما قاله السائل من أنّها لما رُدّت فى دعوى النِّحلة ادّعته إرثا ، وقال : بل كان طلبت الإرث قبل ذلك ، فلما سمعت منه الخبر كفّت وادّعت النِّحلة[1] .

---

(١) الشافى ٢٣٥ .

قال : فأما فِعْل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النِّحلة ، بل عمل فى ذلك ماعمله عمرُ بن الخطاب بأنْ أقرّه فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلّاتها فى المواضع التى كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، فقام بذلك مدّة ، ثم ردّها إلى عمر فى آخر سنته ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ؛ ولو ثبت أنه فعل بخلاف مافعل السّلف لكان هو المحجوجَ بفعلهم وقولهم . وأحدُ ما يقوّى ماذكرناه أنّ الأمرَ لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترك فدَكَ على ما كان ، ولم يجعله ميراثا لولد فاطمة ، وهذا يبيّن أنّ الشاهد كان غيره ، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقربَ أن يحكم بعلمه ؛ على أنّ الناس اختلفوا فى الهِبَة إذا لم تقبض ، فعند بعضهم تستَحقّ بالعقد ؛ وعند بعضهم أنها إذا لم تقبَض يصير وجودها كعدمها ، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أميرُ المؤمنين عليه السلام من ردّها ، وإن صحّ عنده عقد الهبة ، وهذا هو الظاهر ، لأنّ التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان فى يدها ، ولكان ذلك كافيا فى الاستحقاق ، فأمّا حُجَر أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله فإنما تُرِكتْ فى أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ، ونصّ الكتاب يشهد بذلك ، وقوله : ﴿ وقَرْنَ فى بيوتكن ﴾[1] . ورُوى فى الأخبار أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجَر على نسائه وبناته . ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثا أو صدقة لكان أميرُ المؤمنين عليه السلام لمّا أفضى الأمرُ إليه يغيّره .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنما لم يغيّر ذلك لأنّ الملْك قد صار له ، فتبرّع به ، وذلك أنّ الذى يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة عليها السلام ، وهو الثمنُ من ميراث رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن فى باب الحجَر ، ويأخذ هذا الحقّ منهنّ ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه ، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلق بالتقيّة[2] ، وقد سبق الكلام فيها .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .   (٢) التقية : الحيطة .

قال : ومما يَذْكرونه أن فاطمة عليها السلام لغضبها على أبى بكر وعمرَ أوصت ألّا يصلّيا عليها ، وأن تُدْفن سرّا منهما ، فدفنت ليلا ، وهـذا كما ادّعوا رواية رووْها عن جعفر بن محمد عليهما السلام وغيره ، أنّ عمر ضرَب فاطمة عليها السلام بالسوط ، وضرب الزبير بالسيف ، وأن عمر قصد منزلها وفيه علىّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممن تخلّف عن أبى بكر وهم مجتمعون هناك ، فقال لها : ما أحدٌ بعدَ أبيك أحبّ إلينا منك ، وايمُ الله لئن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم ! فمنعت القومَ من الاجتماع .

قال : ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوّزها . وأمّا أمر الصلاة فقد رُوى أنّ أبا بكر هو الذى صلّى على فاطمة عليها السلام ، وكبّر عليها أربعاً ، وهذا أحد ما استدلّ به كثير من الفقهاء فى التكبير على الميت ، ولا يصحّ أيضا أنها دُفنت ليلا ، وإن صَحّ ذلك فقد دُفِن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ليلا ، ودَفَن عمرُ ابنه ليلا ، وقد كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل ، فما فى هـذا مما يطعن به ، بل الأقرب فى النّساء أنّ دفنهنّ ليلا أستر وأولَى بالسنة .

ثم حكَى عن أبى علىّ تكذيبَ ما رُوِى من الضرب بالسوط ؛ قال : والمروىّ عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه كان يتولّاهما ، ويأتى القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلّى الله عليه وآله ، رَوَى ذلك عباد بن صُهيب ، وشعبة بن الحجاج ، ومهدىّ ابن هلال ، والدَّراوَرْدىّ ، وغيرهم ، وقد روى عن أبيه محمد بن علىّ عليه السلام وعن علىّ بن الحسين مثل ذلك ، فكيف يصحّ ما ادّعَوْه ! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن علىّ بن أبى طالب عليه السلام هو إسرافيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت ، وآمنة أمّ النبىّ صلى الله عليه وآله ليلة القدر ! فإن صدّقوا ذلك أيضاً قيل لهم : فعمر بنُ الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت ! وإن قالوا : لا نصدّق ذلك ، فقد جوّزوا ردّ هذه الروايات ، وصحّ أنه لا يجوز التعويل على هـذا الخبر

وإنما يتعلق بذلك مَنْ غرضه الإلحاد كالورّاق ، وابن الراوندىّ ، لأنّ غرضهم القدْح فى الإسلام .

وحُكى عن أبى علىّ أنه قال : ولم صار غضبُها إن ثبت كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وآله من حيث قال : « فمن أغضبها فقد أغضبنى » ، أولى من أن يقال : فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين ؛ لأنه رُوِى عنه عليه السلام قال : « حبُّ أبى بكر وعمر إيمان، وبغضُهما نفاق »! ومن يورد مثل هذا فقصده الطعن فى الإسلام ، وأن يتوهّم الناس أنّ أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليُضعفوا دلالة العلم فى النفوس .

قال : وأما حديث الإحراق فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر ، لأن له أن يهدّد من امتنع من المبايعة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت . انتهى كلام قاضى القضاة (١) .

قال المرتضى : نحن نبتدئ فندلّ على أنّ فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحْل فدَك إلا ما كانت مصيبة فيه ، وأن مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنّت ، عادلٌ عن الصواب ، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة ، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل ، فنتكلم عليه .

أما الذى يدلّ على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط ، مأمونا منها فعلُ القبيح ، ومَن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبيّنة .

فإن قيل : دلّلوا على الأمرين ، قلنا : بيان الأوّل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٢) والآية تتناول جماعةً منهم فاطمة

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . (٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

عليها السلام بما تواترت الأخبار فى ذلك ، والإرادة هاهنا دلالة على وقوع الفعل للمراد .
وأيضاً فيدلّ على ذلك قوله عليه السلام : « فاطمة بَضْعةٌ منّى ، مَنْ آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله عزّ وجلّ » ، وهذا يدلّ على عصمتها ؛ لأنّها لو كانت ممّن تقارف الذنوب لم يكن مَنْ يؤذيها مؤذيا له على كلّ حال ، بل كان متى فعل المستحقّ من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها ، إن كان الفعل يقتضيه سارًّا له ومطيعا ، على أنّا لا نحتاج أن ننبّه هذا الموضع على الدّلالة على عصمتها ، بل يكفى فى هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادّعته ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين ، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدّعِ ما ادّعته كاذبة ، وليس بعد ألّا تكون كاذبة إلّا أنْ تكون صادقة ؛ وإنّما اختلفوا فى هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادّعته بغير بيّنة أم لا يجب ذلك، قال : الّذى يدلّ على الفصل الثانى أنّ البيّنة إنّما تراد ليغلب فى الظنّ صدقُ المدّعى ، ألا ترى أنّ العدالة معتبرةٌ فى الشهادات لما كانت مؤثّرة فى غلبة الظنّ لما ذكرناه ، ولهذا جاز أن يحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة لأنّ علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البيّنة ، من حيث كان أغلبَ فى تأثير غلبة الظنّ ، وإذا قدّم الإقرار على الشهادة لقوّة الظنّ عنده ، فأولى أن يُقدّم العلم على الجميع ، وإذا لم يحتجْ مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوىّ لا يحتاج أيضا مع العلم إلى ما يؤثّر الظنّ من البيّنات والشّهادات .

والّذى يدلّ على صحّة ما ذكرناه أيضا أنّه لا خلاف بين أهل النقل فى أنّ أعرابيّا نازع النبىّ صلى الله عليه وآله فى ناقة ، فقال عليه السلام : « هذه لى ؛ وقد خرجتُ إليك من ثمنها»، فقال الأعرابىّ : من يَشهدلك بذلك ؟ فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهدبذلك ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « من أين علمتَ وما حضرتَ ذلك ؟ » قال : لا ، ولكن علمتُ ذلك من حيث علمت أنّك رسولُ الله ، فقال : «قد أجزتُ شهادَتك ، وجعلتُها شهادتين» ؛ فسُمّىَ ذا الشهادتين .

وهذه القصّة شبيهة لقصّة فاطمةَ عليها السلام ، لأنّ خزَيمة اكتفى فى العلم بأن الناقة له صلّى الله عليه وآله ، وشهد بذلك من حيث علم أنه رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ولا يقول إلّا حقّا ، وأمضى النبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك له من حيث لم يحضر الابتياع وتسليم الثمن ، فقد كان يجب على مَنْ علم أنّ فاطمة عليها السلام لا تقول إلّا حقا ألّا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة ؛ هذا وقد رُوِى أنّ أبا بكر لمّا شهد أمير المؤمنين عليه السلام كتب بتسليم[1] فَدَكَ إليها ، فاعترض عمر قضيّته ، وخرّق ما كتبه .

روى إبراهيم بن السعيد الثقفيّ ، عن إبراهيم بن ميمون، قال : حدّثنا عيسى بن عبد الله ابن محمّد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عن علىّ عليه السلام، قال : جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبى بكر وقالت : إنّ أبى أعطانى فدَكَ ، وعلىٌّ وأمّ أيمنَ يشهدان ، فقال : ما كنتِ لتقولى على أبيك إلّا الحقّ قد أعطيتُكِها ، ودعا بصحيفة من أَدَم فكتب لها فيها ؛ فخرجتْ فلقيتْ عمرَ ، فقال : من أينْ جئت يا فاطمة ؟ قالت : جئتُ من عند أبى بكر ، أخبرتُه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم أعطانى فَدَكَ ، وأنّ عليّا وأمّ أيمن يشهدان لى بذلك ، فأعطانيها ، وكتب لى[2] بها ؛ فأخذ عمر منها الكتاب، ثم رجع إلى أبى بكر، فقال : أعطيتَ فاطمةَ فدَكَ ، وكتبتَ بها لها ؟ قال : نعم، فقال : إنّ عليّا يجرّ إلى نفسه ، وأمّ أيمَن امرأة ؛ وبَصَق فى الكتاب فمحاه وخرّقه .

وقد رُوِى هذا المعنى من طرق مختلفة ، على وجوه مختلفة، فمن أراد الوقوفَ عليها، واستقصاءها أخذها من مواضعها .

وليس لهم أن يقولوا : إنّها أخبار آحاد ، لأنّها وإن كانت كذلك ، فأقلّ أحوالها أنْ توجب الظنّ ، وتَمنَع من القطع على خلاف معناها . وليس لهم أن يقولوا : كيف يسلّم إليها

---

(١) ب : « بسلم » ؛ والصواب ما أثبته من ا ، د والشافى . (٢) الشافى : « وكتبها لى » .

فَدَكَ وهو يَرْوِى عن الرّسول أن ما خلّفه صدقة ، وذلك لأنّه لا تنافى بين الأمرين ، لأنّه إنما سلّمها على ما وردتْ به الرواية على سبيل النحْل (١) ، فلمّا وقعتْ المطالبةُ بالميراث روى الخبر فى معنى الميراث ، فلا اختلاف بين الأمرين .

فأمّا إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَكَ فى يدها ، فما رأيناه اعتمد فى إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كان ذلك فى يدها لكان الظاهر أنّها لها (٢) . والأمر على ما قال ، فمن أين أنّه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضى الظاهرُ خلافَه ! وقد رُوِى من طرقٍ مختلفة غير طريق أبى سعيد الّذى ذكره صاحبُ الكتاب أنّه لمّا نزل قولُه تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّه﴾ (٣) دعا النبيّ صلى الله عليه وآله فاطمةَ عليها السلام فأعطاها فَدَكَ ! وإذا كان ذلك مرويّا فلا معنى لدفعه بغير حجّة .

وقوله : لا خلاف أنّ العمل على الدّعوى لا يجوز ، صحيح ، وقد بيّنّا أنّ قولها كان معلوما صحّته ، وأمّا قوله : إنما يعمل على ذلك متى علم صحّته بشهادة أو ما يجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، فيقال له : إمّا علمتَ بمشاهدة فلم يكن هناك ، وإمّا بيّنة فقد كانت على الحقيقة ، لأنّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البيّنات وأعدلها ، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بيّنة ، فمن أين زعمتَ أنّه لم يكن هناك عِلْم ! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلتَ ذلك فى جملة الأقسام .

فإن قال : لأن قولها بمجرّده لا يكون جهةً للعلم ؛ قيل له : لم قلت ذلك ؟ أو ليس قد دلّلنا على أنّها معصومة ، وأن الخطأ مأمونٌ عليها ! ثمّ لو لم يكن كذلك لكان قولُها فى تلك القضيّة معلوما صحّته على كلّ حال ، لأنّها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلة عاصية فيما ادّعته ، إذ الشّبهة لا تدخل فى مثله ؛ وقد أجمعت الأمّة على أنّها لم يظهر منها بعد

---

(١) ا ، د : « النحلة » . (٢) ا والثانى : « أنه » . (٣) سورة الإسراء ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليه وآله معصية بلا شكّ وارتياب ؛ بل أجمعوا على أنّها لم تدّع إلّا الصّحيح ، وإن اختلفوا ؛ فمن قائل يقول : مانعها مخطئ ، وآخر يقول : هو أيضا مصيب، لفقد البيّنة وإن علم صدقها .

وأمّا قوله : إنّه لو حاكم غيره لطولب بالبيّنة ، فقد تقدّم فى هذا المعنى ما يكفى ، وقصّة خزيمة بن ثابت وقبول شهادته تبطل هذا الكلام .

وأمّا قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام حاكم يهوديًّا على الوجه الواجب فى سائر الناس، فقد رُوِى ذلك ، إلّا أنّ أمير المؤمنين (١ لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله ١) ، وإنّما تبرّع به ، واستظهر بإقامة الحجّة فيه ؛ وقد أخطأ من طالبه ببيّنة كائنا من كان . فأمّا اعتراضه بأمّ سلمة لم يثبت من عصمتها ما ثبت من عصمة فاطمة عليها السلام ، فلذلك احتاجت فى دعواها إلى بيّنة . فأمّا إنكاره وادّعاؤه أنّه لم يثبت أنّ الشاهد فى ذلك كان أمير المؤمنين ، فلم يزد فى ذلك إلّا مجرد [الدعوى و] (٢) الإنكار ، والأخبار مستفيضة بأنّه عليه السلام شهد لها ، فدفع ذلك بالزّيغ (٣) لا يغنى شيئا ! وقوله : إنّ الشاهد لها مولًى لرسول الله صلّى الله عليه وآله هو المنكر الّذى ليس بمعروف .

وأما قوله : إنّها جوّزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فطريف ؛ مع قوله: فيما بعد: « إن التّركة صدقة ، ولا خصم فيها » ، فتدخل اليمين فى مثلها ؟ أفترى أنّ فاطمة لم تكن تعلم من الشريعة هذا المقدار الذى نبّه صاحب الكتاب عليه ! ولو لم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشّريعة يوافقها عليه .

وقوله : إنّها جوّزت عند شهادة مَنْ شهد لها أن يتذكّر غيرهم فيشهد باطل ، لأنّ مثلها لا يتعرّض للظّنّة والتهمة ، ويعرّض قوله للردّ ، وقد كان يجب أن تعلم مَنْ يشهد لها

(١ – ١) الشافى : « لم يفعل ذلك وهو واجب عليه » .

(٢) من الشافى . (٣) الشافى : « باقتراح » .

ممّن لا يشهد حتّى تكون دعواها على الوجه الّذى يجب معه القبول والإمضاء ، ومَنْ هو دونها فى الرتبة والجلالة والصّيانة من أفناء الناس لا يتعرّض لِمثل هذه الخطّة ويتورّطها ، للتجوز الّذى لا أصلَ له ولا أمارة عليه .

فأمّا إنكار أبى علىّ لأن يكون النّحْل قبل ادّعاء الميراث وعكسه الأمر فيه ، فأوّل مافيه أنّا لا نعرف له غرَضا صحيحا فى إنكار ذلك ، لأنّ كون أحد الأمرين قبل الآخر لا يصحّح له مذهبا؛ فلا يُفسِد على مخالِفه مذهبا .

ثم إنّ الأمر فى أنّ الكلام فى النّحْل كان المتقدّم ظاهرا ، والروايات كلّها به واردة ؛ وكيف يجوز أن تبتدئ بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نَحْلا ! أوَ ليس هذا يوجب أن تكون قد طالبتْ بحقّها من وجه لاتستحقّه منه مع الاختيار ! وكيف يجوز ذلك والميراثُ يَشرَكها فيه غيرها ، والنّحْل تنفرد به ! ولا ينقلب مِثلُ ذلك علينا من حيث طالبتْ بالميراث بعدالنّحْل ؛ لأنّها فى الابتداء طالبتْ بالنّحْل ، وهو الوجه الّذى تستحقّ فدَكَ منه، فلمّا دُفعتْ عنه طالبت ضرورةً بالميراث ؛ لأنّ للمدفوع عن حقّه أنْ يتوصّل إلى تناوله بكلّ وجه وسبب ، وهذا بخلاف قول أبى علىّ ، لأنّه أضاف إليها ادّعاء الحقّ من وجه لا تستحقّه منه ، وهى مختارة .

وأما إنكاره أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز ردّ فدَكَ على وجه النّحْل ، وادّعاؤه أنه فعل فى ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ، ليصرف غلاّتها فى وجوهها ، فأوّل مافيه أنّا لا نحتجّ عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أىّ وجه وقع ، لأنّ فعله ليس بحجّة ، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الحُجج لذكرنا فعل المأمون ، فإنه ردّ فدَكَ بعد أن جلس مجلسا مشهورا حكم فيه بين خَصْمين نصَبهما ، أحدهما لفاطمة ، والآخر لأبى بكر ، وردّها بعد قيام الحُجّة ووضوح الأمر .

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه ، وقد روى محمد بن زكريا الغلابيّ عن شيوخه ، عن أبي المقدام هشام ابن زياد مولى آل عثمان ، قال : لما ولّي عمرُ بن عبد العزيز ردّ فدك على ولد فاطمة ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك ، فكتب إليه : إنّ فاطمة قد ولدتْ في آل عثمان ، وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإني لو كتبت إليك آمرُك أن تذبح شاةً لكتبتَ إليّ : أجمّاء أم قرناء[1] ؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني : ما لونُها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من عليّ عليه السلام ؛ والسلام .

قال أبو المقدام : فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه ، وقالوا له : هجّنتَ فعل الشيخين ، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال : إنكم جهلتم وعلمتُ ، ونسيتم وذكرتُ ، إن أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم حدّثني عن أبيه عن جده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « فاطمة بَضعةٌ مني يسخطها ما يسخطني ، ويُرضيني ما أرضاها » ، وإن فدك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثمّ صار أمرها إلى مروان ، فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثتها أنا وإخوتي عنه ، فسألتهم أن يبيعوني حصّتهم منها ، فمن بائع وواهب ، حتى استجمعتْ لي ، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة . قالوا : فإن أبيتَ إلّا هذا فأمسك الأصل ، واقسم الغلّة ، ففعل .

وأمّا ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فدك لما أفضى الأمرُ إليه ؛ واستدلاله بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها ، فالوجه في تركه عليه السلام ردّ فدك هو الوجه في إقراره

(١) الجماء : الملساء . والقرناء : ذات القرن .

أحكامَ القوم وكفّه عن نقضها وتغييرها، وقد بيّنا ذلك فيما سبق ، وذكرنا أنه كان فى انتهاء الأمر إليه فى بقيّة من التقيّة قويّة .

فأما استدلاله على أنّ حُجَر أزواج النبيّ صلى الله عليه كانت لهنّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[1]، فمن عجيب الاستدلال ، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضى المِلك ، بل العادة جاريةٌ فيها أن تستعمل من جهة السكنى ، ولهذا يقال : هذا بيتُ فلان ومسكنُه ، ولا يراد بذلك المِلك ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾[2] ، ولا شبهة فى أنه تعالى أراد منازل الرجال التى يُسكِنون فيها زوجاتِهم ، ولم يُرِد بهذه الإضافة المِلك .

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حُجَره على نسائه وبناته ، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحا أنّ هذه القسمة على وجه التمليك دون الإسكان والإنزال ! ولو كان قد ملّكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهرا مشهورا .

فأما الوجه فى ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه فى يده منازعة الأزواج فى هذه الحُجَر فهو ما تقدّم وتكرّر .

وأما قوله : إنّ أبا بكر هو الذى صلى على فاطمة وكبّر أربعا ، وإنّ كثيرا من الفقهاء يستدلّون به فى التكبير على الميت ـ وهو شىء ما صحّ إلاّ منه، وإن كان تلقّاه عن غيره فممن يجرى مجراه فى العصبيّة ، وإلاّ فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسِّير خالية من ذلك ، ولم يختلفْ أهل النقل فى أن عليّا عليه السلام هو الذى صلى على فاطمة ، إلاّ رواية نادرة شاذّة وردتْ بأن العباس رحمه الله صلّى عليها .

وروى الواقدىّ بإسناده فى تاريخه ، عن الزهرىّ ، قال : سألت ابن عباس :

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) سورة الطلاق ١ .

متى دفنتم فاطمة عليها السلام ؟ قال : دفنّاها بليل بعد هدأة ؛ قال : قلتُ : فمن صلى عليها ؟ قال : علىّ .

وروَى الطبرىّ عن الحارث بن أبى أسامة ، عن المدائنىّ ، عن أبى زكريا العجلانىّ أنّ فاطمة عليها السلام عُمِل لها نعش قبل وفاتها ، فنظرتْ إليه ، فقالت : سترتُمونى ستركما الله !

قال أبو جعفر محمد بن جرير : والثبت فى ذلك أنّها زينب ، لأنّ فاطمة دُفنتْ ليلا ، ولم يحضرها إلّا علىّ والعبّاس والمقداد والزبير .

وروَى القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده فى تاريخه ، عن الزّهرىّ ؛ قال حدثنى عروة بن الزبير أنّ عائشة أخبرته أنّ فاطمة[١] عاشت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها علىّ ليلا ، وصلّى عليها ، وذكر فى كتابه هذا أنّ عليّاً والحسن والحسين عليهما السلام دفنوها ليلا ، وغيّبوا قبرها .

وروى سُفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن بن محمد بن الحنفيّة أنّ فاطمة دُفنت ليلا .

وروى عبدُ الله بن أبى شيبة ، عن يحيى بن سعيد القطّان ، عن معمر ، عن الزّهرى مثل ذلك .

وقال البلاذُرِىّ فى تاريخه : إنّ فاطمة عليها السلام لم تُرَ متبسّمة بعد وفاة النبىّ صلّى الله عليه وآله ، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها .

والأمر فى هذا أوضح وأشهر من أن نُطنب فى الاستشهاد عليه ، ونذكر الروايات فيه .

---

(١) الشافى : « فاطمة بنت رسول الله » .

فأما قوله : ولا يصحّ أنها دفنتْ ليلا وإن صحّ فقــد دُفن فلان وفلان ليلا ؛ فقد بيّنا أنّ دفنها ليلا فى الصحّة أظهر من الشمس ، وأنّ مُنكر ذلك كالدافــع للمشاهدات ، ولم يجعل دفنها ليلا بمجرده هو الحجّة ليقال : لقد دُفن فلان وفلان ليلا ، بل يقع الاحتجاج بذلك على ما وردتْ به الروايات المستفيضة الظاهرة التى هى كالتواتر ؛ أنها أوصت بأن تدفن ليــلا حتى لا يصلى الرجلان عليهــا ، وصرّحت بذلك وعهدتْ فيه عهدا بعد أن كانا [1] استأذنا عليها فى مَرَضها ليعوداها ، فأبتْ أن تأذنَ لهما ، فلما طالت عليهمــا المدافعة رَغِبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى أن يستأذن لهما ، وجعلاها حاجةً إليه ، وكلمها عليه السلام فى ذلك ، وألحّ عليها ، فأذنت لهما فى الدخول ، ثم أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تــكلّمهما ، فلما خرجا قالت لأمير المؤمنين عليه السلام : هل صنعت ما أردتُ؟ قال : نعم ، قالت : فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ قال نعم ، قالت : فإنّى أنشدك الله ألاّ يُصلّيا على جنازتى ، ولا يقوما على قبرى!

وروى أنه عفّى قبرها [2] وعلّم عليه [2] ، ورشّ أربعين قبرا فى البقيع ، ولم يرشّ قبرها حتى لا يُهتدى إليه ، وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها ، وإحضارها الصــلاة عليها ؛ فمن ها هنا احتججنا بالدّفن ليلا ، ولو كان ليس غير الدفن بالليل من غير ما تقدّم عليه وما تأخرّ عنه ، لم يكن فيه حُجّة .

وأما حكايته عن أبى علىّ إنــكار ضرب الرجل لهــا . وقوله : إنّ جعفر بن محمّد وأباه وجدّه كانوا يتولّونهمــا ، فــكيف لا ينــكر أبو علىّ ذلك ، واعتقاده فيهما اعتقاده ! وقد كنّا نظنّ أنّ مخالفينــا يقتنعون أن يَنسُبوا إلى أئمتنا الــكفّ عن القوم والإمساك ، ومــا ظننّا أنّهم يحملون أنفسهم على أن يُنسبُوا إليهم الثناء والوَلاء ،

---

(١) ب : « كان » . (٢ ـ ٢) ساقط من الشافى.

وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم ، قد روَوا عنهم ضدّ ما روى شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان وقولهم : هما أوّل من ظلمنا حقّنا ، وحمل الناسَ على رقابنا ، وقولهم : أنّهما أصفيا بإنائنا ، واضطجعا بسبلنا ، وجلسا مجلسا نحن أحقّ به منهما ، إلى غير ذلك من فنون التظلّم والشكاية ، وهو طويل متسع ، ومن أراد استقصاء ذلك فلينظر فى كتاب « المعرفة » لأبى إسحاق إبراهيم بن سعيد الثقفىّ ، فإنّه قد ذكر عن رجل من أهل البيت بالأسانيد النيّرة ما لا زيادة عليه ، ثمّ لو صحّ ما ذكره شُعبة لجاز أن يُحمَل على التقيّة .

وأمّا ذكره إسرافيل وميكائيل ؛ فما كنّا نظنّ أنّ مثله يذكر ذلك ، وهذا من أقوال الغُلاة الذين ضلّوا فى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت ، وليسوا من الشيعة ولا من المسلمين ، فأىّ عيب علينا فيما يقولونه ! ثمّ إن جماعةً من مخالفينا قد غلَوا فى أبى بكر وعمر ، ودوّنوا روايات مختلفة فيهما تجرى مجرى ما ذكره فى الشناعة ، ولا يلزم العقلاء وذوى الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك .

وأمّا معارضة ما رُوِى فى فاطمة عليها السلام بما رُوِى فى : « أنّ حبّهما إيمان ، وبغضهما نفاق » ، فالخبر الّذى رويناه مُجمَع عليه ، والخبر الآخرُ مطعونٌ فيه ، فكيف يعارَض ذلك بهذا !

وأمّا قوله : إنّما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيفَ دلالة الأعلام فى النفوس ، من حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها ؛ فتشنيعٌ فى غير موضعه ، واستنادٌ إلى ما لا يُجدى نفعا ، لأنّ من شاهد الأعلام لايضعفها ولا يُوهِن دليلها . ولا يقدح فى كونها حجّة ، لأنّ الأعلام ليست ملجئة إلى العِلم ، ولا موجبة لحصوله على كلّ حال ، وإنّما تثمر العلم لمن أمعن النظر فيها من الوجه الّذى تدلّ منه ، فمَنْ عدَل عن ذلك لسوء اختياره لا يكون

عدوله مؤثرا فى دلالتها ، فكم قد عدل من العقلاء وذوى الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمّل هذه الأعلام وإصابة الحقّ منها ! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحا فى دلالة الأعلام . على أنّ هذا القول يُوجب أن ينفى الشكّ والنّفاق عن كلّ من صَحِب النبيّ صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبى سفيان وابنه ، وعمرو ابن العاص ، وفلان وفلان ؛ ممّن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكّهم فى الدين وارتيابهم باتّفاق بيننا وبينه ؛ وإن كانت إضافة النّفاق إلى هؤلاء لا تقدح فى دلالة الأعلام ، فكذلك القول فى غيرهم .

فأما قوله : إن حديث الإحراق لم يصحّ ، ولو صحّ لساغ لعمر مثل ذلك ؛ فقد بينا أنّ خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنه يسوغ مثل ذلك ؛ فكيف يسوغ إحراق بيت علىّ وفاطمة عليهما السلام ! وهل فى ذلك عُذْر يصغَى إليه أو يسمَع ! وإنما يكون علىّ وأصحابُه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين ؛ لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت ، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف علىّ وحده ، فضلا عن أن يوافقه على ذلك غيرُه . وبعد ، فلا فرق بين أنْ يُهدّد بالإحراق لهذه العلّة ، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلامُ لمثلها ؛ فإن إحراق المنازل أعظمُ من ضرب سوط أو سوطين ؛ فلا وجه لامتعاض المخالف من حديث الضّرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار[1] !

* * *

قلت : أمّا الكلامُ فى عِصْمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه ، وللقول فيه موضع غير هذا .

وأما قول المرتضى : إذا كانت صادقة لم يبق حاجةٌ إلى مَنْ يشهد لها ؛ فلقائل أن

---

(١) الشافى ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

يقول : لم قلت ذلك ؟ ولم زعمت أنّ الحاجــة إلى البيّنة إنّما كانت لزيادة غلبة الظنّ ؟ ولم لا يجوز أنْ يكون الله تعالى يُعَبِّد بالبيّنة لمصلحة يعلمها ؟ وإن كان المدّعى لا يكذب ! أليس قد تعبّد الله تعالى بالعدّة فى العجوز التى قد أيست من الحَمْل ؛ وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم !

وأما قصّة خُزيمة بن ثابت ؛ فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أنّ مصلحة المكلّفين فى تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وآله وحدها ؛ ويستغنى فيها عن الشهادة . ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفا لها ، وإن كان المدّعى لا يكذب . ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدى الأئمــة والصالحين ؛ ولو قدّرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادّعى دعوى ، وقال بحضرة جمــاعة من الناس من جملتهم القاضى : اللهمّ إن كنتُ صادقاً فأظهر علىّ معجزة خارقة للعادة ؛ فظهرتْ عليه ، لعلمنا أنّه صادق ؛ ومع ذلك لا تقبل دعواه إلّا ببيّنة .

وسألت على بن الفارقىّ مدرّس المدرسة الغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فَدَك وهى عنده صادقة ؟ فتبسّم ، ثم قال كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه وحُرمته وقلّة دعابته ، قال : لو أعطاها اليوم فَدَك بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يمكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشىء ؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعى كائنا ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود ؛ وهذا كلام صحيح ؛ وإن كان أخرجه مخرج الدُّعابة والهزْل .

فأما قول قاضى القضاة : لو كانت فى يدها لكان الظاهر أنها لها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنه لم يعتمدْ فى إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كانت فى يدها لكان الظاهر أنّها لها ، والأمر على ما قال ؛ فمن أين أنّها لم تخرج عن يدها على وجه ! كما أنّ الظاهر

يقتضي خلافه ؛ فإنه لم يُجب عمّا ذكره قاضي القضاة ؛ لأنّ معنى قوله: إنها لو كانت في يدها، أي متصرّفة فيها لكانت اليد حجّةً في الملكيّة ؛ لأنّ اليدَ والتصرّف حجّة لا محالة ، فلو كانت في يدها تتصرّف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرّف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بدعوى النِّحل ؛ لأنّ اليد حجّة ، فهلا قالت لأبي بكر : هذه الأرض في يدي ؛ ولا يجوز انتزاعها منّي إلا بحجّة ! وحينئذ كان يسقط احتجاج أبي بكر بقوله : «نحن معاشر الأنبياء لا نورَث» ، لأنّها ما تكون قد ادّعتها ميراثاً ليحتجّ عليها بالخبر . وخبر أبي سعيد في قوله « فأعطاها فدَك » ، يدلّ على الهبة لا على القبض والتصرّف؛ ولأنه يقال: أعطاني فلان كذا فلم أقبِضْه ، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرّف لكان هذا الكلام متناقضاً .

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي علىّ : إن دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوى النِّحل ، وقوله : إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك ، فإنه لا يصح له بذلك مذهب ، ولا يبطل على مخالفيه مذهب ؛ فإن المرتضى لم يقف على مُراد الشيخ أبي علىّ في ذلك ؛ وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه ، فإنّ أصحابنا استدلّوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة ، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ (١) برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؛ قالوا : والصحيح في الخبر أنّ فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنِّحل لا بالميراث ، فلهذا قال الشيخ أبو علىّ : إنّ دعوى الميراث تقدّمت على دعوى النِّحل ، وذلك لأنه ثبت أنّ فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر؛ فلو كانت دعوى الإرث متأخّرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد ؛ أمّا إذا كانت دعوى الإرث متقدّمة فلمّا روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النّزاع من جهة أخرى ، فإنه يصحّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد .

---

(١) سورة النساء ١١ .

فأما أنا فإنّ الأخبار عندى متعارضة ، يدلّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخرة ، ويدلّ بعضها على أنها متقدمة ؛ وأنا فى هذا الموضع متوقّف .

وما ذكره المرتضى من أنّ الحال تقتضى أن تكون البداية بدعوى النِّحْل فصحيح ، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكلّ ما ذكره المرتضى فيه فهو الذى يظهر ويقوى عندى ، لأن الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها ، وكذلك القول فى مَوجِدتها وغضبها ، فأمّا المنقول عن رجال أهل البيت فإنّه يختلف ، فتارة وتارة ، وعلى كلّ حال فَميل أهل البيت إلى ما فيه نصرة أبيهم وبيتهم .

وقد أخلّ قاضى القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهى لفظة جيدة . قال : قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلا عن الدِّين . وهذا الكلام لا جواب عنه ، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عهده يقتضى أن تعوّض ابنته بشىء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتُسلم إليها تطييباً لقلبها . وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه ، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ، ولا نعلم حقيقة ما كان ، وإلى الله ترجع الأمور .

* * *

الأصْلُ :

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ — وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ — أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى ، وَأَكْبَادٌ حَرَّى ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ؛ هَمُّهَا عَلَفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ ؛ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى ، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا ، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ !

***

الشرح :

قد روى : « ولو شئت لاهتديت إلى هـذا العسل المصفّى ، ولباب هذا البرّ المنقّى ؛ فضربت هذا بذاك ؛ حتى ينضج وقودا ، ويستحكم معقودا » .

وروى : « ولعل بالمدينة يتيما تربا يتضوّر سغباً ، أأبيت مِبطاناً ، وحولى بطونٌ غرثى ؛ إذن يحضرنى يوم القيامة ، وهم من ذكر وأنثى » .

وروى : « بطونُ غرثى » بإضافة « بطون » إلى « غرثى » .

والقمح : الحنطة .

والجشع : أشدّ الحرص .

والمبطان : الذى لايزال عظيم البطن من كثرة الأكل . فأما المبطن : فالضامر البطن ؛ وأمّا البطين ، فالعظيم البطن لا من الأكل ؛ وأما البطِن ، فهو الّذى لا يهمّه إلا بطنه ؛ وأما المبطون فالعليل البطن . وبطون غرثى : جائعة ، والبِطْنة : الكِظّة ؛ وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديداً ، وكان يقال : ينبغى للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثا : فثلثٌ للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس .

والتقمّ : أكل الشاة ما بين يديها بمقمّتها أى بشفتها ؛ وكلّ ذى ظِلْف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة .

وتكترش من أعلافها : تملأ كرِشها من العَلَف .

قوله : « أو أجرّ حبلَ الضلالة » منصوب بالعطف على « يشغلنى » ، وكذلك « أترك » ويقال : أجررتُه رَسَنَه ، إذا أهملته .

والاعتساف : السلوك فى غير طريق واضح .

والمتاهة : الأرض يُتاه فيها أى يتحيّر .

وفى قوله : « لو شئت لاهتديت » شَبَهٌ من قول عمر : لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صَلائق وصِناب ؛ وقد ذكرناه فيما تقدّم .

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائىّ الجواد ، وأوّلها :

أيا ابنةَ عبد الله وابنةَ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذى الجدّين والفرس الوَرْدِ(١)

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له ... أكيلًا فإنّى لستُ آكلَه وحدِى

قصيًّا بعيدا أو قريبا فإنّنى ... أخاف مذمّات الأحاديثِ من بعدى(٢)

كفَى بك عارا أن تبيت ببطنةٍ ... وحولك أكبادٌ تحِنّ إلى القِدّ(٣)

وإنّى لعبدُ الضيف ما دام نازلًا ... وما من خِلالِى غيرها شيمة العبد

* * *

---

(١) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٤ : ١٦٦٨ .

(٢) الحماسة :

* أخًا طارقًا أو جار بيت فإننى *

(٣) لم يرد فى رواية الحماسة .

الأصْلُ :

وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَـٰذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ[1] الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُودًا ، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأُ خُمُودًا .

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ ؛ وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ[3] مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ .

***

الشّرْحُ :

الشّجرة البرّيّة : التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه ، فهي أصلب عوداً من الشجرة التي تنبت في الأرض النديّة ، وإليـه وقعت الإشارة بقوله : « والرواتع الخضرة أرقّ جلودا » .

ثم قال : « والنابتات العِذْيَة » التي تنبت عِذْيا ، والعِذْي ، بسكون الذال : الزرع لا يسقيه إلّا ماء المطر ، وهو يكون أقلّ أخذا من الماء من النبت سقيا ، قال عليه السلام : إنها تكون أقوى وقودا ممّا يشرب المـاء السائح أو ماء الناضح ، وأبطأ خمودا ؛ وذلك لصلابة جِرْمها .

ثم قال: «وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد»؛

(١) في د « التربة » . (٢) في د « والمراتع » .
(٣) في ا ، د « الفرصة » .

وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة فى الضوء الثانى، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئا من الشمس ! فهذا الضّوء هو الضوء الأول .

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيضيء وجهُ الأرض منه ، فالضوء الذى على وجه الأرض هو الضوء الثانى ، وما دام الضوء الأول ضعيفا فالضوء الثانى ضعيف ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجهُ الأرض إضاءة ، لأنّ المعلول يتْبع العلّة ، فشبّه عليه السلام نفسه بالضوء الثانى، وشبّه رسولَ الله صلّى الله عليـه وآله بالضّوْء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس الّتى توجب الضوء الأوّل ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثـانى . وها هنا نـكتة ، وهى أنّ الضوء الثانى يـكون أيضا علّة لضوء ثالث ؛ وذلك أنّ الضّوْء الحاصل على وجه الأرض ـ وهو الضوء الثانى ـ إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم ، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئا بعد أن كان مظلمـا ، وإن كان لذلك المكان المظلم باب ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقى البيت ، ثم ذلك الجدار إن كان فيه ثُقب إلى موضع آخر كان ما يحاذى ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه ، وهكذا لا تزال الأضواء[1] يوجب بعضها بعضا على وجه الانعكاس بطريق العلّيّـة ، وبشرط المقابلة ، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة ؛ وهـكذا عالم العلوم ؛ والحـكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريبا كما بدأ بموجب الخبر النبوىّ الوارد فى الصّحاح .

وأما قوله : « والذراع من العَضُد » فلأنّ الذراع فرع على العَضُد ، والعضُد أصـل ، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد ، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له ، ولهذا قال الراجز لولده :

يا بِكْر بِكْرَيْن ويا خِلْبَ الكَبِدْ … أصبحتَ منّى كذراعٍ من عَضُدْ

(١) كذا فى « د » ؛ ا ، ب : « لا يزال الضوء » .

فشبّه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى عليه وآله بالذّراع الذى العضد أصله وأسّه والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما ؛ فإنّ الضوء الثانى شبيه بالضّوء الأوّل، والذراع متّصل بالعَضُد اتصالا بيّنا ؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وآله فى مقامات كثيرة نحو قوله فى قصة براءة : « قد أمِرت أن لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، وقوله : « لتنتهنّ يا بنى وَليعة ، أو لأبعثنّ إليكم رجلًا منّى » ، أو قال : « عديل نفسى » ، وقد سمّاه الكتاب العزيز « نفسه » فقال: ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾[1]، وقد قال له : « لحمك مختلط بلحمى، ودمك مسُوط بدمى ، وشبرك وشبرى واحد » .

فإن قلت : أمّا قوله: « لو تظاهرت العرب علىّ لما وليت عنها »، فمعلوم ، فما الفائدة فى قوله : « ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت[2] إليها » ؟ وهل هذا مما يفتخر به الرؤساء ويعدونه منقبة؟ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا!

قلت : غرضه أن يقرّر فى نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ ، وأنّ حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ من يجاهد الكفّار يجب عليه أن يُغلِظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما جاهد بنى قُريظة وظفِر لم يبق ولم يَعْف ، وحصد فى يوم واحد رقابَ ألف إنسان صَبْرًا فى مقام واحد ، لما علم فى ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين ، فالعفو له مقام والانتقام له مقــام .

قوله : « وسأجهد فى أن أطهّر الأرض » ، الإشارة فى هذا إلى معاوية ، سمّاه شخصا معكوسا ، وجسما مركوسا ، والمراد انعكاس عقيدته ، وأنها ليست عقيدة هدًى ، بل هى معاكسة للحقّ والصواب ، وسمّاه مركوسا من قولهم : ارتكسَ فى الضلال ، والرّكس

(١) سورة آل عمران ٦١ . (٢) د « لأسرعت » .

ردّ الشيء مقلوبا ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾[1] أى قلبهم وردّهم إلى كفرهم ، فلما كان تاركاً للفطرة التى كلُّ مولود يُولد عليها ، كان مرتكسا فى ضلاله ، وأصحاب التناسخ يفسّرون هذا بتفسير آخر ،قالوا : الحيوان على ضربين : منتصب ومنحنٍ ، فالمنتصب الإنسان ، والمنحنى ما كان رأسه منكوسا إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع .

قالوا : وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

قالوا : فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب ، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصب ، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشقاوة ، سماه معكوسا ومركوسا رمزا إلى هذا المعنى .

قوله : « حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد » ، أى حتى يتطهر الدين وأهله منه وذلك لأنّ الزُّرّاع يجتهدون فى إخراج المدَر والحجر والشوك والعوْسج ونحو ذلك من بين الزرع كى تفسد منابته ، فيفسد الحبّ الذى يخرج منه ، فشبّه معاوية بالمدَر ونحوه من مُفسِدات الحبّ ، وشبّه الدّين بالحبّ الذى هو ثمرة الزرع .

* * *

الشرح :

ومن هذا الكتاب وهو آخره :

إِلَيْكِ عَنِّى يَا دُنْيَا ، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ ، قد انسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ ، وأفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فى مَدَاحِضِكِ

---

(١) سورة النساء ٨٨ . (٢) سورة الملك ٢٢ .

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ ! فَهَاهُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ .

وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيًّا ، وَقَالَباً حِسِّيًّا ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ !

هَيْهَاتَ ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ ؛ وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إليكِ عنّى ، أى ابعدى . وحبلك على غاربك ، كناية من كنايات الطلاق ، أى اذهبي حيث شئت ، لأنّ الناقة إذا ألقى حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت ، وتذهب أين شاءت ، لأنه إنما يردّها زمامها ، فإذا ألقى حبلها على غاربها فقد أهملت .

والغارب : ما بين السّنام والعُنق . والمداحض : المزالق .

وقيل : إن فى النسخة التى بخط الرضىّ رضى الله عنه « غررتيهم » بالياء ، وكذلك « فتنتيهم » ، و « ألقيتيهم » ، و « أسلمتيهم » ، و « أوردتيهم » ، والأحسن حذف الياء ، وإذا كانت الرواية وردت بها فهى من إشباع الكسرة كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى ... بما لاقت لَبُونُ بنى زيادِ

ومضامين اللحود ، أى الذين تضمنتهم ، وفى الحديث نهى عن بيع المضامين والملاقيح ، وهى ما فى أصلاب الفحول وبطون الإناث .

ثم قال : لو كنتِ أيتها الدنيا إنسانا محسوسا ، كالواحد من البَشر ، لأقمتُ عليكِ الحدّ كما فعلتِ بالناس .

ثم شرح أفعالها فقال: منهم مَنْ غررتِ ، ومنهم من ألقيتِ في مهاوى الضلال والكفر، ومنهم من أتلفتِ وأهلكتِ .

ثم قال : ومن وطئ دَحْضك زلق ، مكان دَحْض أى مزلّة .

ثم قال : لا يبالى مَنْ سلم منك إن ضاق مناخه ، لا يبالى بالفقر ، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لأن هـذا كله حقير لا اعتداد به في جَنْب السلامة من فتنة الدنيا .

قال : والدّنيا عند من قد سَلِم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه .

***

الأصْلُ :

اعْزُبِي عَنِّي ! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي ، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي . وَايْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً ، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً ؛ وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ !

قَرَّتْ إِذًا عَيْنُـهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ !

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا ، وَهَجَرَتْ فِي

اللَّيلِ غُمْضَهَا ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا ، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا .

فِى مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ، ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فَاتَّقِ اللهَ يَابْنَ حُنَيْفٍ ولْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ ؛ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ .

***

الشَّرْحُ :

اعزبى : ابعدى ، يقال عَزَب الرجل بالفتح ، أى بَعُد . ولا أسلَس لك بفتح اللام ، أى لا أنقاد لك ، سلِس الرجل بالكسر يسلَس فهو بيّن السَّلس ، أى سهل قياده .

ثم حلف ، واستثنى بالمشيئة أدبا كما أدّب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله لیروضنّ نفسه أى يدرّبها بالجوع ، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء وأرباب الطريقة .

قال : « حتى أهشّ إلى القرْص » ، أى إلى الرغيف وأقنع من الإدام بالملح .

ونضب معينها : فنى ماؤها .

ثم أنكر على نفسه فقال : أتشبع السائمة من رِعْيها ـ بكسر الراء ، وهو الكلأ ـ والربيضة ـ جماعة من الغنم أو البقر تربض فى أماكنها . وأنا أيضا مثلها أشبع وأنام !

لقد قرت عينى إذاً حيث[1] أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعلم والجدّ فى السنين المتطاولة .

قوله : « وعركت بجنبها بؤسها » ، أى صبرت على بؤسها ، والمشقة التى تنالها . يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أى أغضى عنه ، وصبر عليه .

---

(١) ف د « إذ » .

قوله : « افترشت أرضها » أى لم يكن لها فراش إلا الأرض .

« وتوسّدت كفّها » ، لم يكن لها وسادة إلا الكفّ .

« وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم » لفظ الكتاب العزيز ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عن المضاجع ﴾[1] .

وهمهمت : تكلّمت كلاما خفيا .

وتقشعت ذنوبهم : زالت وذهبت كما يتقشع السحاب .

قوله : « ولتكفف أقراصك » ، إنّما هو نهيٌ لابن حُنيف أن يكفّ عن الأقراص ، وإن كان اللفظ يقتضى أن تكفّ الأقراص عن ابن حُنيف . وقد رواها قوم بالنصب ، قالوا : « فاتق الله يا ابنَ حنيف ولتكفف أقراصُك ، لترجو بها من النار خلاصك » ، والتاء هاهنا للأمر عوض الياء ، وهى لغة لا بأس بها ، وقد قيل : إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قرأ : ﴿ فبذلك فَلْتَفْرَحوا ﴾[2] ، بالتاء .

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء السابع عشر

---

(١) سورة السجدة ١٦ . (٢) سورة يونس ٥٨ .

فهرس الخطب *

* وهى الخطب التى وردت فى نهج البلاغة .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت فى شرح نهج البلاغة .